

تأليـف

علي السيد علي محمود

استاذ تاريخ العصور الوسطى المساعد
كلية التربية بالفيوم جامعة القـاهرة

١٩٩١

المطبعـة التجـارية الحديثة
٢٢ شارع ادريس راغب — الظاهر
تليفون ٩٠٣٣٦٤ القاهـرة

بسم الله الرحمن الرحيم

« ولمثـل هـذا فليعمـل العـــاملون »

صدق الله العظيم

المحتويات

- المقدمة ... ٧
- التمهيد ... ٩
- التطورات الاقتصادية وأثرها فى ازدهار جدة فى العصر المملوكى ... ١٢
- أسواق جدة وارتباطها بالحياة اليومية ... ٢١
- الأزمات الاقتصادية وأثرها فى حركة الأسواق ... ٣٨
- المكاييل والموازين ... ٤٢
- المعاملات المالية ... ٤٣
- علاقات جدة بأهم المراكز التجارية العالمية ، طرق التجارة البرية والبحرية وأهم السلع المتبادلة ... ٥٣
- الجمارك فى جدة والاجراءات الجمركية ... ٧٦
- النشاط الزراعى والرعوى فى جدة ... ٨٧
- النشاط الصناعى فى جدة ، أهم الصناعات ومقوماتها ... ٩٧
  صناعة بناء السفن ... ٩٨
  صناعة دباغة الجلود ... ١٠٤
  صناعة الحلوى ... ١٠٨
  صناعة الحصير ... ١٠٩
  صناعة المسابح ... ١١١
  الصناعات الخشبية ... ١١٢
  المشغولات المعدنية ... ١١٣
  صناعة الأوانى الفخارية ... ١١٤
  أعمال الحفر على الرخام والجص ... ١١٥
- الحواشى والتعليقات ... ١١٧

مقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وبعد ...

فهذا بحث يتناول الحياة الاقتصادية فى مدينة جدة فى عصر سلاطين المماليك ، أى فى الفترة من ٦٤٨ — ٩٢٣ هـ / ١٢٥٠ — ١٥١٧ م ، وهى فترة أدت فيها جدة دورا هاما فى تجارة العبور ، وعملت على جذب المتاجر اليها من كثير من بقاع العالم المعروف آنذاك ، بحيث غدت مركزا لنشاط تجارى واسع بين الشرق والغرب ، حيث تضافرت عدة عوامل سياسية واقتصادية خارجية ، الى جانب سياسة سلاطين المماليك التى كانت تهدف فى المقام الاول لجعل جدة الميناء الأول للسلطنة على البحر الأحمر ، فضلا عن أهمية ميناء جدة ، وارتباطه بمكة المكرمة حيث تقوم سوق عالمية نشطة فى مواسم الحج والعمرة ، مما كان له أثره الواضح فى أن تقوم جدة على تجارة عريضة مع الموانىء العالمية فى حوضى البحر المتوسط والبحر الأحمر ، والمحيط الهندى ، بحيث كانت تصلها سلع أوربا، والهند والصين ، وشرق أفريقيا ، وبلاد الشام ومصر ، وبلاد المغرب العربى .

ومما لا شك فيه أن ازدهار الحياة التجارية كانت له آثاره الملموسة فى أن تصبح جدة بؤرة يتجمع فيها العديد من التجار المسلمين ، الذين قصدوها وأقاموا فيها من شتى أنحاء العالم الاسلامى شرقه وغربه ، مما ساعد على نمو سكانها بسبب تلك الهجرات العديدة ، وأن يكون لهذه الزيادة انعكاساتها على مجتمع جدة التجارى ، وعلى حركة الأسواق فيها ، والمعاملات المالية بها ، وقيام العديد من المؤسسات التجارية التى أدت دورا هاما فى خدمة الاقتصاد المحلى من جهة وتجارة العبور من جهة ثانية .

كما أنه قد سبقت هذا العصر ، ونقصد به العصر المملوكى ، هجرة أعداد كبيرة من المغاربة من ذوى الخبرة بالفلاحة الى بلاد الحجاز بوجه عام ، وجدة والمناطق المتاخمة لها بوجه خاص ، مما كان سببا فى خصب تلك البقاع وازدهار الحياة الزراعية فيها ، وبذلك توفرت الايدى العاملة وهى من أهم مقـــومات الزراعة ، كما توافر لهذه المناطق والتى كانت بمثابة الظهير الزراعى لمدينة جدة مياه الرى من العديد من العيون والآبار الموجودة فى كثير من الأودية الخصبة التى كانت كثيرة فى ذلك العصر والمحيطة بجدة .

وقامت على كثير من المنتجات الزراعية العديد من الصناعات ذات الأهمية فى حياة سكان جدة بوجه خاص والحجاز بوجه عام فى تلك الفترة من تاريخها ، فضلا عن أن الازدهار التجارى والزراعى كان من شأنه أن يعمل على ازدهار كثير من الصناعات التى تلبى احتياجات مجتمع جدة ومجتمع الحجاز فى ذلك العصر جنبا الى جنب تلبية احتياجات الأعداد الغفيرة من زوارها الذين يتوافدون عليها بكثرة فى المواسم المختلفة ، سواء التجارية منها أم المواسم الدينية .

القاهرة فى ٢٣ ربيع الثانى ١٤١٢ هـ
الموافـــق ٣٠ من اكتـــوبر ١٩٩١ م

دكتور / على السيد على محمود
استاذ تاريخ العصور الوسطى المساعد
كلية التربيـــة بالفيوم بجامعة القـــاهرة

تمهيد

جاء ظهور سلطنة المماليك فى مصر سنة ٦٤٨هـ / ١٢٥٠م ليكشف عن دولة جديدة أخذت على عاتقها حماية الاسلام والمسلمين من الأخطار التى أحدقت بهم وبديارهم ، هذه الحقيقة ظهرت واضحة للعيان فى الدور الهام الذى قام به المماليك فى المعركة التى دارت رحاها بين فارسكور والمنصورة سنة ٦٤٨هـ / ١٢٥٠ م ضد الصليبيين ، ثم تأكد هذا الدور بانتصار المماليك على المغول فى عين جالوت سنة ٦٥٨هـ / ١٢٦٠م ، الذين كانت قد اجتاحت جحافلهم بلدان الشرق الاسلامى ، وقضوا على الخلافة العباسية فى بغداد سنة ٦٥٦هـ / ١٢٥٨ م ، ووجد المسلمون أنفسهم بدون خلافة للمرة الأولى فى تاريخهم • ثم حملت هذه القوة الناشئة لواء الجهاد ضد الغزوة الصليبية التى كانت جاثمة فوق صدر الأمة الاسلامية فى بلاد الشام منذ عام ٤٩١ هـ / ١٠٩٧ م ، حتى تم طردهم نهائيا عام ٦٩١هـ/١٢٩١ على أيدى السلطان المملوكى الأشرف خليل بن قلاوون •

واذا كان قد بدا للمعاصرين أن هؤلاء المماليك غرباء مجلوبين عبيدا فى طفولتهم ، فاغتصبوا الحكم من سادتهم الأيوبيين ، وأنه لم تشفع لهم بطولاتهم التى تبدت فى المنصورة ، وعين جالوت ، لذا فقد كان عليهم أن يبحثوا لسلطنتهم الوليدة عن سند شرعى يدعمون به حكمهم فى نظر معاصريهم ، فكان احياء الخلافة العباسية فى القاهرة عام ٦٥٩هـ/١٢٦١م بمثابة هذا السند للخروج من هذه الأزمة(١) ولما كان الحجاز هو الموطن الأول للاسلام ومقصد المسلمين فى الحج والزيارة فقد حرص السلطان الظاهر بيبرس بعد احيائه الخلافة أن تكون القاهرة مركزها ، كذلك حرص على الابقاء على الحجاز تحت حكمه ومده بالمال رفعا لمكانة السلطنة • فأصبح الخطباء يدعون له على منابر تلك البلاد وتضرب السكة فيه باسمه ، كما حرص أمراء مكة والمدينة المنورة على اظهار ولائهم للسلطان المملوكى(٢) ثم كانت زيارته لبلاد الحجاز

وبسط حمايته على الحرمين الشريفين بمثابة تدعيم لهذا السـند الشرعى . وعلى هذا الأساس يمكننا أن نتصور أبعاد ما جرت عليه سياسة سـلاطين المماليك تجاه البحر الأحمر بوجه عام وبلاد الحجاز بوجه خاص ، اذ غـدا البحر الأحمر أو بحر القلزم كما يسميه مؤرخو تلك الفترة بحرا مقدسا يحرم على غير المسلمين دخوله ، حماية للأماكن المقدسة ببلاد الحجاز والتى اصبحت جزءا من سلطنة المماليك .

واذا كان يحلو لبعض المحدثين انكار خضوع بلاد الحجاز لسلطنة المماليك فان المصادر الاسلامية المعاصرة لتلك الفترة تؤكد عكس ذلك فى ظل وحدة اسلامية كبرى ضمت بلاد الشام ومصر والحجاز ، والدليل على ذلك ما جاء فى كثير من المصادر من أنه فى سنة ٦٦٧هـ / ١٢٦٩م قام السـلطان المملوكى الظاهر بيبرس — المؤسس الحقيقى لدولة سلاطين المماليك — برحلة حج الى الحجاز حيث اعترف له أمراؤها بالسيادة ، وصارت الخطبة والسكة باسمه ، وأجهض محاولة ملوك بنى رسول باليمن لفرض سيادتهم على الحجاز،كما كتب تقليدا بالامارة لأميرى مكة والمدينة ، ومنذ ذلك الحين ، وحتى نهـاية عصر سلاطين المماليك كان أمراء الحجاز يتلقون وظائفهم من السلطان فى القاهرة(٣).

ليس هذا فحسب بل أن المصادر الأجنبية المعاصرة ورد فيها ما يؤكد هذا ، فقد ذكر الرحالة بيلوتى الكريتى — الذى زار مصر فى عصر الأشرف برسباى (٨٢٦ — ٨٤٤هـ / ١٤٢٢ — ١٤٣٨ م) فى النصف الأول من القـرن التاسع الهجرى ، الخامس عشر للميلاد — أن السلطان المملوكى فى مصر كان يلقب بسلطان مصر والحجاز ، وكان السـلطان يعين من يشـغلون وظائف الامارة بمكة والمدينة والنيابة فى ينبع(٤) ويذكر القلقشندى أن ينبع كانت نيابة ولم تكن امارة ، لأنها كانت أقل شأنا من مكة المكرمة والمدينة المنورة(٥) وكان لابد لأمراء الحجاز من الحصول على تقليد جديد اذا ما توفى السلطان الحاكم وتولى محله سلطان جديد(٦) .

وربما كان لبعض هؤلاء العذر فيما زعموه بسبب اشارة وردت فى بعض المصادر عن تلقب الشريف حسن بن عجلان أمير مكة بلقب سلطان الحجاز ، الا أنه ينبغى أن نشير الى أنه قد حدثت بعض التطورات منذ القرن التاسع

الهجرى ، الخامس عشر للميلاد ، اذ حصل شريف مكة حسن بن عجلان سنة ٨١١هـ / ١٤٠٨ م من السلطان المملوكى على لقب نائب السلطنة بالأقطار الحجازية ، أو سلطان الحجاز بحيث تمتد سيادته على كل من مكة المكرمة ، والمدينة المنورة وينبع ، وخليص ، والصفراء ، وليس معنى هذا أن أصبح سلطانا مستقلا عن دولة المماليك ، بدليل أنه عندما غضب عليه السلطان المملوكى الناصر فرج بن برقوق قام بعزله من نيابة السلطنة فى الحجاز(٧) •

وقد يكون لهذا الفريق أيضا بعض العذر فيما قالوه ، وذلك لأنه من ناحية أخرى كان لأمراء الحجاز — وهم الأشراف فى ذلك الحين — مكانتهم التى جعلت سلاطين المماليك وبخاصة السلاطين الجراكسة يعاملونهم معاملة خاصة ، فقد ذكر المقريزى أن كل من كان يمثل بين يدى السلطان المملوكى كان لابد أن يقبل الأرض ، باستثناء القضاء والعلماء وأشراف الحجاز اجلالا لهم ، والجدير بالذكر أن السلطان الأشرف برسباى قد أبطل هذه العادة فى عهده(٨)• كذلك كان هؤلاء الأشراف يقابلون بالحفاوة والتكريم حين يصلون الى مصر فى الأحوال العادية(٩) •

ولا يساورنا شك فى أن ارتباط الحجاز بدولة سلاطين المماليك قد أدى الى أزدهار الحياة الاقتصادية فى الحجاز بوجه عام ، وفى مدينة جدة بوجه خاص ، اذ غدت هذه البلاد محط رجال الفكر والتجارة معا ، كما عمدت الدولة الى اخماد الفتن فى الحجاز وضرب التمرد بكل وسيلة مع الحرص على عدم اراقة الدماء ، ابقاء على الصلات الحسنة مع الحجاز وحرصا على الأمن من أن يضطرب فى هذه البلاد المقدسة • مثال ذلك ما حدث أيام الظاهر بيبرس حينما علم بالخلاف بين أبى نمى وعمه عام ٦٦٧هـ/١٢٦٨ م ، فجمع بين أبى نمى وعمه ادريس،وسوى مابينهما من خلاف،ولم يتركهما الا بعد أن تصالحا على كل الأمور(١٠) • وعندما بدت من أبى نمى فى نفس السنة بوادر تهدد الأمن ، عندئذ أرسل السلطان بيبرس اليه كتابا شديد اللهجة ، لوح له فيه بامكان استخدام القوة العسكرية ، ضده اذا لم يرجع عما هو فيه ، حيث جاء فى كتابه هذا قوله : « قد بلغنا أنك أبدلت حرم الله بعد الأمن بالخيفة ومن العجب كيف تفعلون وجدكم الحسن وتقاتلون حيث لا تكون الفتن و لاتقاتلون

حيث تكون الفتن هذا وأنت من أهل الكرم وسكان الحرم فكيف آويت المجرم ، واستحللت دم المحرم ، فاما تقف عند حدك والا أغمدنا فيك سيف جدك والسلام »(١١)ومثال آخر من عصر سلاطين المماليك الجراكسة فى عهد السلطان الناصر فرج بن برقوق ، الذى لم يكن أقل حرصا على استقرار الأمن فى بلاد الحجاز عمن سبقه من السلاطين(١٢) فحين استولى شريف مكة حسن بن عجلان سنة ٨٠٥هـ/١٤٠٢م على الذهب الموجود فى مركب فى طريقه الى اليمن يملكه ابن القاضى برهان الدين ابراهيم بن عمر ، فعندئذ ثارت ثائرة السلطان على شريف مكة وهدد بعزله ، انه فعلا أصدر أوامره فى أواخر عام ٨١٣ هـ / ١٤٠٩ م بسبب اضطراب الأمن وأحوال التجارة بالقبض على الشريف حسن وابنيه(١٣) كما لا يساورنا شك فى أن السلطة المملوكية كانت حريصة على المعاملة الجيدة للتجار والنظام الواضح المحدد فى التعامل ، فضلا عن توفير الأمن ومناخ الاستقرار ، وامكانات الاقامة وحرية التنقل والتجارة ، مما يساعد على ازدهار موارد مدينة جدة ، وعلى جعلها منطقة جذب تجارى ، واذا كانت المدينة قدتعرضت لبعض الفترات التى اضطرب فيها الأمن بسبب الفتن التى نشبت بين أشراف كلة الحسنيين ، الا أن هذه الفترات كانت قصيرة الأمد بالنسبة للعصر المملوكى الذى امتد قرنان وثلاثة أرباع القرن ، ولا شك أن هؤلاء الأشراف كان يعنيهم بالدرجة الأولى هذا الازدهار ، لما يحققه لهم من رخاء ، ولأهل الحجاز عامة من رخص فى الأسعار وتوافر كثير من السلع الضرورية(١٤) . وهذه حقيقة واضحة أدركها كثير من المعاصرين ، فالمؤرخ تقى الدين الفاسى يذكر ذلك صراحة فى حوادث سنة ٧٤٤هـ/١٣٤٣م أنه عندما امتنعت سفن أهل اليمن فى هذا العام ، كانت النتيجة حدوث غلاء عظيم قاسى منه الناس جميعا والذى ظهر جليا فى موسم الحج(١٥) .

التطورات الاقتصادية وأثرها فى ازدهار جده .

قد يتساءل البعض عن السر فى ازدهار جدة الاقتصادى فى العصر المملوكى على الرغم من أنها كميناء ، لم تكن تقع على مصب أحد الأنهار ، وأن منطقة الظهير لها لم تكن منطقة انتاج ضخم لسلع مطلوبة عبر البحار . الا أنها تمتعت بخصائص أخرى ، منها أنها كانت محطة للتموين خصوصا للمياه العذبة ، فقد أشارت كثير من المصادر الى وجود أعداد كبيرة من الصهاريج المعدة لخزن المياه

العذبة بها(١٦) كما أنهـا كانت تقع على طرق برية تسهل الاتصـال بداخل شبه الجزيرة العربية ، وبخاصة مكة المكرمة التى تعتبر من المراكز التجارية الهامة فى العالم الاسلامى • وكانت شوارعها وأسواقها — وبخاصة فى مواسم العمرة والحج — تعج بأناس من بلدان مختلفة ، يتكلمون بلغات مختلفة ، أو على حد التعبير الحديث مدينة دولية ، فضلا عن ارتباط جدة بأهم مراكز التجارة العالمية فى ذلك العصر بعدة طرق برية وبحرية هامة(١٧) • وعلى هذا الاساس يمكننا القول أنهـا كانت واحدة من ذلك النوع من أهم الموانىء قاطبة وهى موانىء الموقع ، أى تلك التى تتحكم بموقعها فى سبل أو طرق التجارة ، وأن أغلب تجارات المحيط الهندى الذاهبة الى مصر والمغرب الأوربى كانت تمر بها ، وتفرغ شحناتها بها لتنقلها سفن أخرى أصغر داخل البحر الأحمر ، خوفا من الشعاب المرجانية وكذلك الحال بالنسبة لتجارة مصر والمغرب الأوربى المتجهة الى الشرق الأقصى(١٨) • وخير مايعبر عن هذه الحقيقة وهى أنها من موانىء الموقع ما ذكره الرحـالة المغربى يوسف التجيبى الذى زارها عام ٦٩٦هـ/١٢٩٦م من قول : « وبها الآن اقلاع وحط يسافر منها الى اليمن ، وسواكن وعيذاب ، والقلزم وغير ذلك »(١٩) •

وشاءت الظروف أن يكون قيام دولة سلاطين المماليك فى منتصف القـرن السابع الهجرى الثالث عشر للميلاد مصحوبا بازدهار طريق البحر الأحمر ، واضمحلال ما عداه من طرق التجارة الرئيسية الأخرى بين الشرق والغرب • ذلك أنه لم يكد يمضى على قيام دولة سلاطين المماليك سنوات معـدودة حتى استولى المغول على بغداد ، وامتد نفوذهم الى الشام وآسيا الصغرى ، فضلا عن بلاد فارس التى اتخـذها هولاكو مراكز لدولته فى الشرق الأوسط ، وبذلك اضمحل طريق التجارة البرى بين الصين من جهة وآسـيا الصـغرى وموانىء البحر الأسود من جهة أخرى ، وقد أشار ماركو بولو فى أواخر القرن الثالث عشر الميلادى الى ما ترتب على غزوات المغول من انعدام الأمن فى ذلك الطريق واعتداء اللصوص على القوافل والتجارة ، وكان ذلك فى الوقت الذى قل فيه اقبال السفن التجارية الآتية من الشرق الأقصى على الخليج الفـارسى بسبب ازدياد نشاط القراصنة من سكان جزر البحرين فى ذلك الخليج ، ومن ثم تحولت السفن التجارية الى اليمن وميناء عدن بالذات(٢٠) •

الا أن ملوك اليمن سرعان ما أظهروا تعسفا كبيرا مع التجار ، فلم يكتفوا بفرض الضرائب الباهظة على ما يحملونه من بضائع ، بل لجأوا الى استخدام القسوة فى معاملة التجار ، حتى صار من التقاليد المرعية عند وصول احدى السفن التجارية الى عدن أن يصعد عمال ملك اليمن اليها وينزعوا قلاعها ودفتها ومرساتها حتى لا يمكنوها من الابحار قبل أن تدفع الأموال والضرائب المستحقة عليها • أما التجار أنفسهم فكانوا يفتشون تفتيشا دقيقا قبل أن يسمح لهم بالنزول من السفن الى الميناء ، وبلغ من دقة التفتيش وقسوته أنه تناول العمامة والشعر والكمين وحزة السراويل وتحت الآباط ، كذلك وجدت عجـوز تفتش النساء وتضرب بيدها فى أعجازهن(٢١) • فاذا أتم التاجر انزال بضاعته ، ودفع ما عليها من ضرائب وتسويقها ، أخذ يتأهب للعودة من حيث أتى ، فيطوف المنادى فى طرقات مدينة عدن ويعلن فى الأسواق أن التاجر الفلانى سيغادر الميناء فمن له عليه دين أو مال فيطالبن به ، وان لم يظهر للتاجر دائن يسمح له بالرحيل(٢٢) • هذا عدا الضرائب التى كان يتم تحصيلها من التجـار الوافدين الى ميناء عدن،والتى تعددت وأصبحت تشكل عبئا ثقيلا على كاهل هؤلاء التجار، ويصف لنا أحد المصادر المعاصرة هذه الضرائب بأنها كانت متنوعة منها العشور ، والزكاة ، ومال الفرضة ، وعشور الشوانى أى الرسوم على السفن ، وضرائب دار الوكالة والتى كانت تبلغ $\frac{1}{24}$ عن كل دينار بالاضـافة الى المبالغ التى كان يدفعها التجار باسم رسم الدلالة • ويصور نفس المصدر مدى ضخامة اجمالى هذه الضرائب بأن أحد التجار أحضر منين من العود ، فلما جاء وقت المحاسبة قوم المن العود بستة دنانير ، وبلغ مجموع ما عليه من ضرائب برسم العشـور ورسم الشوانى ، ورسم دار الوكالة ، ورسم الزكاة والدلالة خمسة عشر دينارا ، وتمت مصادرة العود الذى بلغ ثمنه ستة دنانير،وتبقى على التاجر تسعة دنانير، الى أن توسط له بعض الأشخاص « حتى خرج رأس برأس » عى حد قوله(٢٣)• بالاضـافة الى سياسة الطـرح التى اتبعها حـكام اليمن ، حيث كان يتم طرح البضائع على التجار بالسعر الذى تحدده السلطات الحاكمة ، مثال ذلك أنه كان يتم طرح البهار على تجار الكارم بستين دينارا بينما سـعره الأصلى أربعين دينارا،كما كان يتم « أخذ الصفر من الكارم على سعر البهار بستين دينارا ويطرح على أصحاب الخف بثمانين دينارا ، وأعطى أصحاب الفوة على سعر البهـار

بأربعة وثمانين دينارا ، ويؤخذ البهار بهار وربع واذا أعطى البهار بهارا الا ربع وبعد استخراج الضرائب على هذه البضائع الواصلة يفضل مع التاجر لا شىء فى لا شىء ...»(٢٤) • كما لا يفوتنا القول أن اضطراب الأمن فى عدن فى هذه الفترة كان من العوامل المساعدة فى ازدهار ميناء جدة ، من ذلك ما تشير اليه المصادر المعاصرة عام ٨٤١هـ/١٤٣٧م أنه « فى ربيع الآخر جاءت الأخبار بأن مدينة عدن من أعمال اليمن قد احترقت عن آخرها بسبب فتنة كانت بين الظاهر صاحب عدن ، وبين صاحب زبيد ، وقتل فى هذه الحركة ما لا يحصى من العساكر اليمنى ... »(٢٥) •

واستمر ظلم التجار مما جعل الكثيرين منهم يفكرون فى تفادى الابحار الى ميناء عدن مباشرة ، والتوجه الى موانىء أخرى فى البحر الأحمر لتفريغ شحناتهم ، ولم يجدوا فى كثير من الأحوال أفضل وأقرب من ميناء جدة ، وهكذا تمهدت الأمور كلها لكى تصبح جدة ميناء رئيسا ، حيث أن موقع جدة الجغرافى والتاريخى كان يتيح لها امكانات واسعة فى مجال التجارة البحرية ، فالبحر الأحمر شواطئه ليست آمنة تماما ، بل ان أغلب هذه الشواطىء ، وبخاصة فى القسم الشمالى من هذا البحر عبارة عن شعب مرجانية لا تسمح بوجود موانىء ترسو عليها السفن فى شىء من الأمان(٢٦) • فضلا عن أن التجارة فى البحر الأحمر كانت مستمرة طول العام ، ولم تكن مرتبطة بمواسم معينة للابحار مما أتاح لجدة فرص الازدهار ، بعكس ما كان عليه الحال فى المحيط الهندى مثلا ، حيث ارتبطت الملاحة فيه بحركة الرياح الموسمية سواء منها الجنوبية الغربية أم الشمالية الشرقية ، الى جانب أن الطرق الملاحية عبر البحر الأحمر كانت قريبة، والصلة بين الشاطئين قوية ومتصلة منذ أقدم الأزمان ، ولأهل جدة معرفة تامة بأحوال البحر ومراسيه(٢٧) •

هذا الى جانب أن سياسة سلاطين المماليك كانت قائمة منذ ازدهار طريق البحر الأحمر على احلال جدة محل ميناء عدن فى التجارة الدولية ، ويتضح ذلك منذ بداية العصر المملوكى تقريبا،حيث أصدر السلطان المنصور قلاوون منشورا الى التجار فى بلاد الصين والهند وسيلان والسند واليمن والعراق وبلاد الروم يرحب بهم ويغريهم على القدوم بمتاجرهم،ليس هذا فحسب بل أنه أخذ يتردد

الى القوى الاسلامية المختلفة التى بيدها مقاليد تجارة الشرق مما كان له أثره الواضح فى ازدهار مدينة جدة فيما بعد ، بحيث نسمع أن ملك سيلان على سبيل المثال يرسل سفارة الى عاصمة السلطنة فى مصر عام ٦٨٢هـ/١٢٨٣م يذكر فيها « أنه قد ترك مصاحبة صاحب اليمن مرة واحدة فى محبة السلطان .. »(٢٨) .
ثم بعد ذلك نرى أن هذه السياسة أخذت تتضح رويدا رويدا عنـدما أخذت السلطات المملوكية فى عصر الجراكسة تصدر تحذيراتها الى السفن التجارية من الرسو فى عدن وحرمت على تجار مصر والشام دخول ميناء عدن ، كما خفضت الرسوم الجمركية فى موانىء جدة وينبع بحيث وصلت الى ١٠٪ على كل سلعة يتم انزالها بهما ، وكانت النتيجة المتوقعة واضحة تماما عام ٨٣٨ هـ/١٤٣٤ م والتى تؤكدها المصادر المعاصرة فى قولها « ان تجار الهند فى هذه السنة صاروا عندما يعبرون من باب المندب يجوزون عن بندر عدن ، حتى يرسوا بساحل جدة كما تقدم ، فاقفرت عدن من التجار ، واتضح حال ملك اليمن لقلة متحصله .وصارت جدة هى بندر التجار ... »(٢٩) ، وبالرغم مما نسمع عنه من قيام بعض سلاطين المماليك باحتكار التجـارة فى بعض السلع مثل السكر والبهار والأخشـاب ، والمشغولات المعدنية ، وغيرها بحيث تحتم أن تجلب هذه السلع الى المستودعات الحكومية ، وتباع بالسعر الذى تفرضه السلطات المملوكية الا أن هذه السياسة لم تؤثر فى ورود البضائع الى جدة من الهند وغيرها من بلدان الشرق الأقصى ، وذلك لحرص السلطات المملوكية على أن تظل الرسوم الجمركية بجدة١٠٪(٣٠).
وخير ما يؤكد هذه الحقيقة مؤرخ الحجاز ابن فهد فى قوله : « وأصبح ميناء جدة مركزا لتجمع تجار الهند وغيرها لما يلاقيه فيه هؤلاء التجار من راحة بخلاف ما كانوا يجدون بعدن ، فتركوا بندر عدن واتجهوا الى بندر جدة واستمر بندر جدة عظيما وتلاشى أمر عدن .. »(٣١) .

كما تضافرت عدة عوامل أخرى كان لها تأرها الواضح فى استمرارية هذا الازدهار طوال العصر المملوكى باستثناء السنوات العشر الأخيرة منـه ، وهى التى اشتدت فيها خطورة الغزو البرتغالى لمراكز التجارة فى البحر الأحمر ومنها جدة . يأتى فى مقدمة هذه العوامل تلك الامارات الاسلامية التى كانت قد نشأت على الساحل الافريقى من البحر الأحمر ، ووجود أسرات عربية كثيرة على هذا الساحل . فقد أعتلى السلطة فى بعض الامـارات رجال من العـرب ، فعلى

سبيل المثال ، اعتلى السلطة فى كلوة فى أواخر القرن السابع الهجرى ، الثالث عشر للميلاد رجل ينتمى الى أسرة تحمل اسم «أبدالى» أو «عبدالى»،وبالضرورة لم تنتقل تلك الأسرات بكاملها ، بل استمر جزء منها فى مواطنها ، ونتج عن ذلك استمرار تواصل الأقارب وازدهار التجـارة بين الساحلين(٣٢) • ومن هذه الأسرات العربية وبخاصة تلك التى ترجع فى أصولها الى عرب الحجاز بوجه عام والى أشراف مكة بوجه خاص ، تلك الأسرة التى كانت تحكم فى سواكن ، والتى يذكرها لنا الرحالة المغربى ابن بطوطة فى رحلته الشهيرة عندما انتهت من مناسك الحج ، فقد خرج من جدة فى قافلة بحرية صحبة الشريف المنصور بن أبى نمى أحد أبناء شريف مكة آنذاك ، قاصدا ميناء عيذاب أولا ومنها الى سواكن « وكان سلطان جزيرة سواكن حين وصولى اليها الشريف زيد بن أبى نمى ، وأبوه أمير مكة ، واخواه اميراها بعده ، وهما عطيفة ورميثة اللذان تقدم ذكرهما ، وصارت اليه — أى سواكن — من قبل البجاة ، فانهم اخواله ، ومعه عسكر من البجاة ؛ وأولاده كاهل وعرب جهينة ••• »(٣٣) • وغنى عن البيان القول بأن مثل هذه الامارة قد لعبت دورا هاما فى ازدهار العلاقات الاقتصادية بين سواكن وجدة ؛ وأمدت جدة بكثير من منتجات الساحل الأفريقى للاستهلاك المحلى أو للتصدير كما يفهم مما أورده ابن بطوطة عن ذلك من اشارات فى رحلته(٣٤) •

ومن العوامل التى أدت دورا هاما فى ازدهار جدة فى ذلك العصر ، ما تشير اليه بعض المراجع من أنه بالرغم من وجود كثير من الطرق التجارية البرية التى تمر بها المتاجر بين الشرق والغرب ، ألا أن الكثـيرين من التجـار قد آثروا شحن بضائعهم بحرا الى جدة بالرغم مما كانوا يتكبدون من رسـوم جمـركية ومصاريف شحن ، حتى يضمنوا وصول بضائعهم سالمة نظرا لما كانت تشـكله اغارات البدو على طرق القوافل البرية من أخطار جسيمة • فقد كان تجـار أفريقيا وحجاجها — على سبيل المثال — يأتون ومعهم الكثير من البضائع،ولكنهم كانوا يفضلون شحنها من مصر الى جدة بعد دفع رسوم جمركية عليها مرتين ، مرة فى مصر ، ومرة أخرى فى ميناء جدة ، وهذه الشحنات كانت بمثابة شحنات لكميات كبيرة من البضائع ، أما ما كان يأتى بطريق القوافل فقد كان لا يقـارن بما يصلها بحرا ، وعادة ما كانت قوافل أمثال هؤلاء التجار البحرية تصل جـدة قبيل مواسم الحج وموسم وصول التجارة الهندية(٣٥) •

ومما ساعد على ذلك الازدهار التجارى لميناء جدة ، ذلك الارتباط الشديد بين جدة ومكة ، والذى يظهر بوضوح فى مواسم العمرة والحج بوجه خاص ، وعلى مدار السنة بوجه عام كذلك • فقد كان لمكة المكرمة أثرها الواضح فى حالة الازدهار الاقتصادى التى شهدتها جدة ، بما تمثله مواسم التجارة من رواج اقتصادى انعكست آثاره على مكة نفسها وعلى مينائها الأساسى جدة،وقد أدرك ابن جبير هذه الحقيقة الهامة أواخر العصر الأيوبى ، وصورها بقلمه ، فى عبارة بليغة حيث يقول : « ولو لم يكن لها من المتاجر الا أوان الموسم ففيه مجتمع أهل المشرق والمغرب ، فيباع فيها فى يوم واحد ، فضلا عما يتبعه ، من الذخائر النفيسة كالجواهر ، والياقوت ، وسائر الأحجار ، ومن أنواع الطيب ، كالمسك ، والكافور ، والعنبر ، والعود ، والعقاقير الهندية ، الى غير ذلك من جلب الهند والحبشة ، الى الأمتعة العراقية واليمانية ، الى غير ذلك من السلع الخرسانية ، والبضائع المغربية،الى ما لا ينحصر ولا ينضبط ، ما لو فرق على البلاد كلها لأقام لها الأسواق النافقة ولعم جميعها بالمنفعة التجارية ، كل ذلك فى ثمانية أيام بعد الموسم ، حاشا ما يطرأ بها مع طول الايام من اليمن وسواها ، فما على الأرض من سلعة من السلع ولا ذخيرة من الذخائر الا وهى موجودة فيها مدة الموسم ••• »(٣٦) •

وقد تناولت وثائق الجنيزا اشتراك التجار وأرباب الحرف والعلماء فى القوافل المسافرة لأداء فريضة الحج،والتى يتضح منها أن الهدف من هذه الرحلة الى جانب أداء الفريضة الدينية كان المنفعة التجارية ، كما تعطين هذه الوثائق صورة مفصلة عن نشاط بعض التجار ، حيث يقوم بعضهم بالمتاجرة بنفسه ولنفسه أو لغيره فى نفس الوقت ، أو قد يكون وكيلا لتاجر أو عدد من التجار فى آن واحد ، وأنه فى مثل هذه الحالات كان يتم عقد مشاركة أو عقد قراض أو مضاربة بين كل تاجر أو أكثر • ولحفظ الحقوق ، ومعرفة حساب الأرباح أو الخسائر كان كل تاجر يراجع حساباته عندما يصل الى أحد الموانىء ، ويبعث بهذه المعلومات الى شركائه فى شكل رسائل ، ويتلقى منهم بعض المراسلات التى تفيد رضاهم من عدمه(٣٧) •

ومما ساعد على ازدهار النشاط التجارى فى جدة فى ذلك العصر ، أن عددا

كبيرا من التجار الذين استوطنوا جدة وهم من أصل هندى،كانوا على صلات وثيقة بوطنهم الأصلى ، كما كانت لهم صلاتهم الوثيقة بكل مدن وموانىء الهند ، وبعضهم كان يقيم فى جدة بصفة شبه دائمة ، والبعض الآخر كان ينتقل ما بين جدة والهند وبالعكس — ويمكن أن يقال نفس الشىء عن طائفة التجار الكارمية — وأن بعضهم كان لهم شركاء فى الهند بحيث أنهم كانوا يحصلون على كثير من السلع بسعر أرخص مما لو أنهم اشتروها من السفن القادمة من الهند الى جدة • كذلك كانت هناك علاقات تجارية أساسية وهامة بين جدة وبين سكان المدن فى داخل شبه الجزيرة العربية مثل نجد ، ومع البدو وهم الذين كانوا دائما فى حاجة الى السلع الهندية ، والعقاقير الطبية ، والأقمشة التى يصنعون منها ملابسهم ، كل ذلك ساعد بدوره فى ازدهار مدينة جدة فى ذلك العصر(٣٨) •

كما أن التطورات التجارية التى لاحت فى الأفق فى العقد الأخير من القرن الثامن الهجرى ، الرابع عشر الميلاد كان لها انعكاساتها على أحوال تجارة البحر الأحمر بوجه عام ، وعلى ازدهار جدة بوجه خاص • اذ يشير المؤرخ المعاصر ابن الصيرفى أنه فى عام ٧٩٥هـ/١٣٩٢م فى عهد السلطان الظاهر برقوق فى سلطنته الثانية « وصل رسل متملك دملك وعلى أيديهم هدية سنية فقبلت وهى : فيل وزرافة وعدة من الجوارى والخدام والقماش وغير ذلك من الأصناف ، فأكرموا وأنزلوا فى دار أعدت لهم وقرر لهم ما يكفيهم •••»(٣٩) • ونستطيع أن نفسر السر فى وفود هذه البعثة فى ضوء ما حدث من تطورات ألمت بالطرق التجارية البرية بوجه عام فى آسيا من جراء غزوات تيمور لنك ، والتى أصابت هذه الطرق بنوع من الشلل ، من خلال الأخبار التى توالت على عاصمة السلطنة فى القاهرة والتى تفيد أنه فى التاسع عشر من شهر شوال من نفس العام « وصل رسول صاحب ماردين الملك الظاهر مجد الدين عيسى وعلى يده مكتوب مضمونه أن تيمور كوركان ملك تبريز واستولى عليها ••• وأنه جهز اليه بخلعة لبسها نائبا عنه وبسكه عليها اسمه تنقش بها الدراهم والدنانير ، وأمره أن يدعى له على المنابر ••• ••• » • وفى نفس الشهر « وصل رسل متملك بسطام مخبرا بأن تيمورلنك قتل شاه منصور متملك شيراز وأرسل برأسه الى بغداد وأرسل صحبتها السكة والخلعة للسلطان أحمد بن أويس صاحب بغداد فما ساعه الا أن لبس الخلعة باسمه » • ثم « ان تيمورلنك تملك بغداد فى يوم

السبت حادى عشرين ... »(٤٠) • وعندئذ سعت القوى التجارية الى عقد أواصر الصداقة والمحبة مع سلطنة المماليك لتدعيم التبادل التجارى ، ولتعويض الطريق البرى الذى يربط آسيا بأوربا ، بطريق آخر آمن ألا وهو طريق البحر الأحمر • واستمرت غزوات تيمورلنك المدمرة حتى أوائل القرن التاسع الهجرى ، الخامس عشر للميلاد ، والتى بلغت بلاد القرم والقفجاق «فأخربها دكا وسبا حريمها واستأصل رجالهما كما هى العادة القبيحة لعنه الله وخزاه »، بما يعتبر تحولا كبيرا فى صالح تجارة البحر الأحمر بوجه عام وميناء جدة بوجه خاص(٤١) •

وتشير كثير من المصادر الى أن هذه الفترة وما صحبها من أحداث قد ساعدت على ازدهار ميناء جدة بشكل لم يسبق له مثيل ، فالمقريزى يشير صراحة الى أن جدة صارت منذ ذلك الحين « أعظم مراسى الدنيا »(٤٢) • كذلك يذكر تقى الدين الفاسى مؤرخ مكة والذى كان معاصرا لنفس الفترة قوله : « وجدة هى الآن ساحل مكة الأعظم »(٤٣) • كما نستطيع القول أن ميناء جدة شهد ازدهارا مستمرا وملحوظا طوال القرن التاسع الهجرى ، الخامس عشر للميلاد،فاذا غزوات تيمورلنك قد عملت على اضطراب طرق التجارة البرية من وسط آسيا وآسيا الصغرى ، فان القوات العثمانية التى أخذت منذ أوائل النصف الثانى من القرن التاسع الهجرى،الخامس عشر للميلاد تزحف حثيثانحو الغرب ، وأن ما صحب ذلك من عمليات حربية برية وبحرية واسعة لنطاق ، كل ذلك أدى الى ارتباك التجارة وانهيار طرقها البرية والبحرية بين آسيا وأوربا عبر البحر الأسود والأناضول والمضايق ، اذ اصبح المرور أمرا محفوفا بالكثير من المخاطر ، كما أن السلطات العثمانية أولت كل اهتمامها بالعمليات الحربية ، التى كان من أهم نتائجها سقوط القسطنطينية فى أيدى الأتراك العثمانيين سنة ٨٥٧هـ/١٤٥٣م ، ثم ما تلا ذلك من أندفاع قواتهم غربا الى شرق ووسط أوربا ، ثم مد حدودهم بعد ذلك الى البحر الأسود وايران شرقا • وفى أثناء تلك العمليات الحربية عمدت القوات العثمانية الى سد الطرق التجارية لدواعى الأمن(٤٤) بل أن العثمانيين قبضوا على الجاليات الأجنبية التى احتكرت التجارة فى المنطقة منذ أمد بعيد ، وخاصة تجار المدن والجمهوريات الايطالية لمساعدتهم البيزنطيين فى العمليات الحربية ، فأنهت الوكالات والمصارف

أعمالها ، وأغلقت الأسواق • ورحل بعض التجار الى بلادهم ، واتجه الآخرون الى فروع وكالاتهم فى بلاد السلطنة المملوكية بمصر والشام(٤٥) • وكانت النتيجة أن تحولت التجارة تماما بعد هذا الحادث الى موانىء مصر والشام والبحر الأحمر،وغدت جدة واحدة من أهم مراكز التجارة فى العصور الوسطى، وزاد الرواج التجارى فى السلع الشرقية فى دولة سلاطين المماليك والتى كانت تصلها من جدة بصفة أساسية ، لدرجة أن سفن البندقية وحدها ، وهى العميل الأول لتجارة التوابل فى مصر ، كانت تحمل سفنها من موانىء مصر والشام سلعا تقدر بحوالى ٣٠٠٫٠٠٠ دوكات(٤٦) • واستمر هذا الازدهار الى أن ظهر البرتغاليون فى البحار الشرقية • والذين جاء ظهورهم بمثابة تهديد لكيان دولة سلاطين المماليك ، اذ أخذت تجارة الشرق — بوصول البرتغاليين بحرا الى الهند — وأرباحها الهائلة تتحول عن مصر والشام والحجاز وموانيها الى أوربا بالطريق البحرى الجديد الذى يدور حول أفريقيا متجها الى أوربا ، وهو الذى عرف بطريق رأس الرجاء الصالح • وهكذا كانت السنوات الأخيرة من العقد الأول للقرن العاشر الهجرى ، والسنوات الأولى للعقد الثانى منه تمثل فترة من أكثر فترات العصور الوسطى أهمية فى تاريخ جدة نظرا لما واكبها من أحداث جسام أدت الى تغييرات جوهرية فى أحوال مدينة جدة الاقتصادية بوجه عام وسلطنة المماليك بوجه خاص ، والتى أدت فى نفس الوقت الى سقوط سلطنة المماليك فريسة سهلة فى أيدى الأتراك العثمانيين لتدخل دولتهم فى مرحلة جديدة من تاريخها(٤٧) •

أسواق جدة وارتباطها بالحياة اليومية :

شهدت جدة مع بداية عصر سلاطين المماليك نموا سكانيا ملحوظا ، وكان ذلك النمو السكانى راجعا الى حد بعيد الى ما تمتعت به من ازدهار اقتصادى ؛ بسبب أهميتها التجارية التى اكتسبتها على مر الأيام ، فأصبحت مركزا من مراكز التجارة فى عالم العصور الوسطى ، تلتقى فيها السفن الآتية من الصين والهند ، وشرق أفريقيا بالسفن القادمة من مصر ، محملة بسلع مصر وشمال أفريقيا والغرب الأوربى(٤٨) • وليس أدل على حالة الازدهار هذه مما يذكره أحد المؤرخين المعاصرين عنها من قول : « وأما جدة فهى ميناء مكة المشرفة ترد اليها المراكب بالبضائع من أعظم المين ••• »(٤٩) •

هذا النمو السكانى يمكن أن نلحظه بوضوح من خلال أقوال بعض الرحالة الذين زاروها قبل بدايات العصر المملوكى ، ثم فى العصر المملوكى نفسه . فالرحالة الفارسى ناصر خسرو الذى زارها عام ٤٤٢هـ/١٠٥٠م قال عنها : « جدة مدينة كبيرة لها سور حصين ، تقع على شاطىء البحر ، وبها خمسة آلاف رجل ، وهى شمال البحر ... »(٥٠) وعلى هذا الأساس يمكن لنا أن نفترض أن عدد سكانها كانوا لا يقلون عن خمسة عشر ألفا . وقال عنها ابن المجاور التى زارها بعد ذلك بما يقرب من قرنين من الزمان ، أى عام ٦٢٠هـ/١٢٢٣م : « وهى فرضة مكة وليس يمكن بها السكنى لازدحام الخلق بها » وبخاصة أيام موسم الحج ، ويفسر سبب قوله هذا بأن « يلتام اليها من جميع أطراف العالم والربع المسكون والبحر المعمور من ديار مصر والمغرب والهند واليمن »(٥١) . حقيقة أنه لم يذكر عدد سكانها عندما زارها ، لكننا نستطيع أن نستنتج أن تلك الأعداد الضخمة من الحجاج التى كانت تأتيها كل عام كانت وراء الزيادة المستمرة فى عدد سكانها عاما بعد عام ، بسبب من يتخلف من هؤلاء الوافدين ، سواء ممن انقطعت بهم السبل ، أو راق لهم العيش فيها ، أو اضطرتهم ظروف بلادهم السياسية الى الهجرة اليها ، وبخاصة أهل المغرب ، والذين كانوا يتعرضون فى تلك الفترة من تاريخهم لضربات موجعة من مسيحيى غرب أوربا فى ظل ما عرف فى التاريخ بحرب الاسترداد الأسبانية .

وهناك كثير من الدلائل على أنه فى الفترة التى سبقت العصر المملوكى ، وصلت أعداد كبيرة من المغاربة الى بلاد الحجاز بوجه عام واستوطنتها ، حيث تشير بعض وثائق الجينزا الى أن بعض موانىء الحجاز كانت تموج بأعداد كبيرة من المغاربة الذين جاءوا اليها من جهات المغرب المختلفة ، مثل برقة ، وجبل نفوسة ، والقيروان ، وطرابلس ، وتلمسان ، والمهدية وفاس ، وجربة وغيرها ، وأنهم أخذوا يسيطرون على التجارة فى موانىء شبه الجزيرة العربية ، بل انهم وصلوا فى تجارتهم الى الهند ، ولم يقتصر نشاطهم فى امارة مكة على التجارة فحسب ، بل أخذوا يمارسون الزراعة ، وأنهم كانوا أحد الأسباب فى خصب هذه الجهات(٥٢) .

كما كانت القاهرة فى ذلك العصر المملوكى بل والعصرين السابقين عليه ، وأعنى بهما العصر الفاطمى والعصر الأيوبى ، عاصمة الدولة التى لها السلطان

على مصر ومعظم بلاد شبه الجزيرة العربية ، وأصبح للأوقاف المحبوسة على الحرمين الشريفين فى مصر دور كبير فى انعاش الحياة الاقتصادية فى الحجاز بوجه عام ، كذلك كان لهذه الاوقاف دور كبير فى تقوية الروابط بين مصر والحجاز ، لذا فقد أم أبناء مصر من المسلمين بلدان شبه الجزيرة العربية ، اما بقصد أداء فريضة الحج ، واما بقصد التجارة ، وممارسة الأنشطة الاقتصادية الأخرى ، والاستقرار فى مدن وموانىء هذه البلدان ، واندمجوا اجتماعيا فى مجتمعات هذه المدن والموانى ، بحيث أننا نسمع أن كثيرا من الأسر الحجازية التى وجدت فى مكة المكرمة ، والمدينة المنورة ، وجدة ، وينبع تحمل لقب « المصرية » ، بل ان الأستاذ حمد الجاسر يقول ان أغلب سكان مدينة ينبع من الأسر العربية التى انتقلت من صعيد مصر ، واستوطنت هذه المدينة(٥٣) .

كذلك شكل التكاررة(٥٤) عددا لا بأس به من سكان جدة وحتى بداية الكارمية ، وعلى ما يبدو أنهم كانوا طبقة ثرية جدا من كبار تجار المدينة ، اذ يصفهم الرحالة الفرنسى تاميزيه بقوله : « وهم من الغطرسة يمكن حتى أنهم ينظرون الى من سواهم من الناس نظرة احتقار ...»(٥٥) . كما وفد الى جدة كثير من عرب شبه الجزيرة ، نخص منهم بالذكر أهل حضرموت ، وهم الذين عرفوا فى جدة بجماعة الحضارمة ، وكان لهم حى خاص بهم فيه مسجد لهم هو المعروف باسم مسجد الحضارم وهو فى سوق الندا فى الجهة الغربية من السوق(٥٦) . ويقول عنهم أحد الرحالة الغربيين أنهم الشعب الوحيد الذى يؤمن بالعمل اليدوى ، حيث عمل كثيرون منهم فى الحرف التى تخدم التجارة ، ونظرا لما اشتهروا به من أمانة واخلاص ، فقد اشتغل كثيرون منهم وكلاء للتجار فى جدة(٥٧) . كذلك وجدت جماعة كبيرة من أهل اليمن الذين سكنوا جدة ، ومارسوا فيها التجارة ، واتخذوا لهم حيا سكنيا وتجاريا فيها ، عرف باسم « حارة اليمن »(٥٨) .

يضاف الى هذه الجماعات ، جماعة من مسلمى الهنود الذين وفدوا الى جدة واستوطنوها ، وقد اشتهروا بالغنى(٥٩) . يقول عنهم أحد الرحالة الأوربيين ممن زاروا المدينة بأنهم تواجدوا فيها عبر أجيال عديدة مضت ، وأنهم تخصصوا فى بيع العقاقير الطبية ، ولم يستطيع أحد أن ينافسهم فى ذلك ،

وأن تواجدهم لم يكن قاصرا على جدة ، بل تواجدوا فى مكة المكرمة ، والمدينة المنورة ، والطائف ، وينبع كذلك • وعلى الرغم من أنهم عاشوا فى جدة منذ عدة أجيال ، وتأقلموا على الحياة فيها ، الا أنهم استمروا يتحدثون بلغتهم الهندية ، واحتفظوا بكثير من عاداتهم وتقاليدهم التى ميزتهم عن غيرهم من السكان فى جدة(٦٠) • ومن المرجح أن يكون قد وجد فى جدة كثير من الأشخاص من أصل أفريقى ، مثل الزيالعة ، ونقصد بهم أهل مدينة زيلع على الساحل الغربى للبحر الأحمر فى طرف الحبشة ، ويسكنها السودان المسلمون • وكذلك المقادشة ، نسبة الى مدينة مقديشو ، وهى حاليا عاصمة جمهورية الصومال ، وهؤلاء كانوا كثيرين فى مدينة مكة المكرمة فى ذلك العصر ، واشتغلوا بكثير من الحرف ، وتذكر المصادر المعاصرة أن منهم من كانوا « يسقون على الساقية التى فى سبيل السلطان •• » أى سبيل أمير مكة الشريف حسن بن عجلان برباطه الذى أنشأة سنة ٨٠٣هـ/١٤٠٠م بباب المعلاة،ويعملون بالتناوب ليلا ونهارا(٦١)

ومما لا شك فيه أن هذه الهجرات وغيرها قد كان لها تأثيرها على معدل النمو السكانى • ذلك أن وجود مثل هؤلاء المهاجرين فى جدة كان يمثل زيادة طارئة فى أعداد السكان ، وهى زيادة فاقت فى تصورنا الأربعين ألف نسمة ، خصوصا اذا وضعنا فى اعتبارنا أيضا أنه مع بداية العصر المملوكى ، ربما هاجرت الى بلاد الحجاز وجدة بوجه خاص جماعات من أبناء بلاد الشام ، أمام الخطر المغولى الداهم الذى راحت ضحيته أعداد هائلة من سكان هذه البلاد ، بسبب المذابح الفظيعة التى ارتكبوها فى كل مدينة حلوا بها • يضاف الى هذا ما ذكره الرحالة البولونى لودوفيكو فارتيما الذى زار جدة يوم السبت الرابع عشر من شهر يونيو ١٥٠٣م ، وقال أنه وجد بها ما لا يقل عن خمسة وعشرين ألفا من السكان(٦٢) وهنا يجب أن نضع فى اعتبارنا أن هذه الزيارة قد تمت أواخر عصر سلاطين المماليك ، وفى فترة سبقتها عدة أحداث كان من الطبيعى أن تؤثر فى أعداد السكان بها ، وأن تعيش المدينة فترة قلق واضطراب،بل وعدم استقرار فى الأحوال الاقتصادية بسبب ما نجم عن محاولات البرتغاليين أولا الوصول الى ذهب بلاد السودان ، وتحويل تجارته الى موانىء المحيط الأطلسى بدلا من موانىء سلطنة المماليك ، وانتزاع تجارة الرقيق من أيدى التجار المسلمين وتحويلها الى الغرب الأوربى والتى كانت بلاد وسط وغرب أفريقيا أهم مورد

لها ، ومن أجل ذلك قام البرتغاليون بحركة الكشوف الجغرافية التى استهدفت أولا استكشاف الساحل الغربى لأفريقيا للوصول الى أهم مورد للذهب، وتغيير مساره الى الغرب الأوربى • مما أحدث أزمة نقدية فى سلطنة المماليك ، كان من أخطر آثارها الاعتماد على العملات الأجنبية ، وسيطرتها على حركة التعامل فى التجارة الداخلية والخارجية فى بلدان السلطنة • وما استتبع ذلك من محاولات البرتغاليين الوصول الى البحار الشرقيـة ، ومحاولتهم الاستيلاء على أهم المراكز التجارية فى الشرقين الأقصى والأدنى ، ومن بينها جدة ذاتها، وكلها عوامل بلا شك كان لابد لها أن تترك آثارها على النمو السكانى ومعدله فى جدة فى تلك الفترة من تاريخها(٦٣) • والذى قد هبط بشكل ملحوظ ربما وصل الى ثلاثين ألفا حسبما يذكر أحد الباحثين ذلك(٦٤) •

هذا النمو السكانى الذى أشرنا اليه انعكست نتائجه فى أسواق مدينـة جدة فى ذلك العصر ، تلك الأسواق التى كان عددها كبيرا من ناحية ، كما كانت تموج بالحركة والنشاط وتكتظ بأنواع البضائع من ناحية أخرى ، والتى تميزت حوانيتها بصغر حجمها ، بحيث بلغ طول الواحد منها ما بين عشرة أقدام واثنى عشر قدما ، بينما تراوح عرضها ما بين ستة أقدام وسبعة أقدام ، مع ارتفاع تلك الحوانيت عن أرضية الشارع قليلا ، بحيث وجد أمام كل حانوت منها مصطبة يجلس عليها صاحب الحانوت ، وأعلى هذه المصطبة توجد مظلة مصنوعة من الحصير ، غالبا ما كان يتم تثبيتها فوق أعمدة خشبية(٦٥) • وهى فى هذا تشبه حوانيت القاهرة من وجوه عدة ، ويبدو أن حوانيت جدة فى هذا العصر لم تتخذ محلا للبيع والشراء فحسب ، بل تردد فيها على التجار معارفهم وأصدقاؤهم ليتناقلوا مختلف الحكايات والنوادر(٦٥) • يضاف الى هذا أن أسواق جدة كانت حافلة بأعداد كبيرة لا يمكن حصرها ممن يحترفون التسول فى الطرقات ، ويفضلون ذلك على العمل اليدوى ، وربما ساعدهم على ذلك كثرة الحجاج والمعتمرين الذين يفدون الى البلاد ، فمنذ أن تطأ أقدامهم الأراضى المقدسة يقدمون لأمثال هؤلاء الكثير من المساعدات ، بالاضافة الى الاعداد الهائلة من الحمالين والسماسرة والسقائين وأرباب الحرف المختلفة(٦٦)•

والواقع أن أسواق جدة فى ذلك العصر عرفت نوعا من التخصص فى نوع البضائع التى يبيعها كل منها • وهو ما يبدو متسق مع طبيعة الحياة الاجتماعية آنذاك ، اذ كان أبناء كل حرفة يسكنون حارة أو حيا يعرف باسمهم • فهناك

سوق الحدادين ، وسوق النجارين ، وسوق الأقمشة ، وسوق السمك ، وسوق الحلى والمجوهرات ، وغيرها من الأسواق مثل سوق العطارين ، وسوق العنبريين ، وسوق الحريريين(٦٨) كما نسمع عن أحد أحياء جدة أو حارتها والتى عرفت باسم « حوش اليسر » ، نسبة الى المسابح التى كانت تصنع فيه من مادة اليسر ، وهذه المسابح كانت تلقى رواجا واقبالا شديدين من الحجاج الوافدين الى البلاد من شتى أنحاء العالم الاسلامى آنذاك(٦٩) كذلك نسمع عن « قصبة الهنود » ، وكل أصحاب الحوانيت فيها كانوا من تجار الهنود ، ولهم فيها مسجد صغير يسمى مسجد الهنود ، وهم الذين كانوا يبيعون الأقمشة المستوردة من الهند ، كما يبيعون الفضة المذهبة والمصنوعة على شكل ورد وأزهار مما يستعمل فى ثياب العرس للنساء ، ولحفلات الزواج ، وقد أزيلت قصبة الهنود هذه حينما تم شق شارع الدهب ، وتقع زاوية الهنود الآن فى قلب هذا الشارع الموازى لشارع الملك عبد العزيز ، والمجاور للسوق الكبير(٧٠) .

وفيما يتعلق بتجارة الرقيق وتخصيص سوق لها ، فان المصادر التى بين أيدينا لم توضح ذلك الا فيما ندر من اشارات ، وبخاصة عند ورود ركب بلاد التكرور فى مواسم العمرة والحج ، حيث نسمع عن اشارات بسيطة عن اصطحابهم لأعداد من الرقيق(٧١) . الا أنه من الواضح أن تجارة الرقيق هذه كانت تلقى رواجا هائلا حتى بدايات القرن الثالث عشر الهجرى ، التاسع عشر للميلاد ، بدليل ما يذكره الرحالة بوركهارد من أن القليلين جدا من أهالى الحجاز هم الذين لم يكن لديهم أعداد من العبيد والجوارى فى منازلهم ، بل ويشير صراحة الى اتخاذ معظم الاهالى لكثير من النساء الجوارى كسرارى، وأن البعض كان يفضلون التسرى بهؤلاء الجوارى على الزواج من النساء الحرائر ويفسر أن السر فى ذلك راجع الى ارتفاع تكاليف الزواج . ويذكر أن عدد الجوارى كان يبلغ فى المتوسط عند أبناء الطبقات الثرية مالا يقل عن اثنى عشرة جارية ما بين صغيرة فى السن وكبيرة . كما يذكر أن جرت عادة أهل الحجاز منذ أزمان بعيدة وبخاصة فى جدة ومكة المكرمة أن يتخذوا من تجارة الجوارى حرفة لهم ، حيث يقومون بشراء أعداد من هؤلاء الجوارى وبخاصة من الحبشيات ، ويقومون بتربيتهن وتدريبهن على أعمال المنزل والخدمات المنزلية وغيرها . ثم يقومون ببيعهن ويحققون من وراء ذلك أرباحا كبيرة ، بما يرجح

وجود سوق متخصصة لبيع وشراء العبيد والجوارى فى ذلك العصر(٧٢) .

ومن دراستنا لاسواق جدة فى ذلك العصر نستطيع أن نخـرج بنتيجـة مؤداها أن الاسواق فى العصر المملوكى ارتبطت بكثير من عادات أهل جدة ، وأنها كانت تعبيرا عن كثير من جوانب حياتهم . فعلى سبيل المثال كان من عادة أهل جدة تعطير منازلهم كل صباح بأنواع البخور المختلفة وبخاصة خشـب الصندل ، كما اعتادت نساء جدة بل وكل نساء الحجاز وضع ماء الورد فى الماء الذى يتم شربه ، لذلك وجدت سوق متخصصة لتلبية احتياجات أهل جدة من هذه الاصناف ، هى التى عرفت باسم سوق العطارين ، والتى اشتغل فيهـا كثير من سكان جدة يبيع الزيوت العطرية ، وأنواع البخور المختلفة ، ومـاء الورد ، والتى كان يتم جلبها من الطائف ، أو من الفيوم فى مصر ، وكذلك قاموا ببيع العنبر الذى كان يتم جلبه من الحبشـة ، والمسـك الذى كان يجلب من الهنـد(٧٣) .

كما تشير بعض المراجع الى أن أبناء الطبقات الثرية من التجار والعلمـاء وغيرهم من أهل الحجاز بوجه عام ، وجدة بوجه خاص ، كانوا يحرصون على اقتناء مجموعات كبيرة من التحف والخزف الصينى الصنع ، ولذلك نجـد فى « قصبة الهنود » عدد من الحوانيت التى تخصصت فى بيع المصنوعات الهندية التى تشبع هذه الرغبة لديهم ، بالاضافة الى الاقمشة الصينية، والملاعق الخشبية، والسكاكين ، والأمواس ، والمرايا . وهؤلاء البـاعة كانوا فى معظمهـم من بومباى ، وهم الذين أمدوا أبناء هذه الطبقة بما يلزمهم لوضعه على أرفف أعدوها لذلك فى الحجرات المخصصة لاستقبال الضيوف فى منازلهم . يضـاف الى هذا أن الأوانى النحاسية كانت فى جدة من الاشياء التى لا يمكن الاستغناء عنها فى بيت من البيوت ، بل حتى عند البدو . من هذه الأوانى ، الابريق والذى كان من أهم الأشياء عند الوضوء ، تلك الأوانى كانت تباع فى سـوق عرف باسم سوق النحاسين ، علما بأن الأوانى النحاسية نفسها كان يتم جلبها من الصين والتى كان يحضرها أهل الملايو معهم ، لكنها لم تلاقى نفس الاقبال الذى كانت تلقاه الاوانى النحاسية المصرية الصنع(٧٤) . كذلك وجدت أسواق لبيع النعال والتى تعرف بالصنادل ، وينبغى أن نذكر أن الصـنادل المستخدمة فى الحجاز كانت تختلف عن غيرها من البلدان الأخرى . بل أن كل طبقة من طبقات المجتمع كان لها نعالها أو صنادلها المميزة لها عن غيرها ، فالتجار لا يلبسون

صنادل مثل تلك التى يلبسها الذين يعملون فى البحر ، ومن الطبيعى أن يتبع ذلك بعض التفاوت فى مستوى الحوانيت التى تعرض كل نوع . كذلك كان من عادة أهل جدة أن يخزنوا مياه الشرب لمدد طويلة لاستعمالها عند اللزوم ، وكانت أضمن وسيلة لذلك وضعها فى قرب خاصة ، لذلك وجدت كثير من الحوانيت التى تخصصت فى بيع قرب الماء ، هذه القرب عادة ما كان يتم جلبها من سواكن ومصر ، ويتم بيعها بل واصلاحها كذلك فى تلك الحوانيت ، وكانت قرب سواكن أكثر أنواع القرب استعمالا لخفة وزنها ، ولأنها مشهورة بجودتها وحسن خياطتها ، وهذه القرب كانت ضرورية فى حياة السكان الذين كانوا يضطرون لحفظ الماء فيها لمدة لا تقل عن ثلاثة أو أربعة أشهر نظرا لما هو معروف عن قلة المياه فى جدة(٧٥) .

ومن الأسواق التى ارتبطت بعادات الناس فى جدة فى ذلك العصر أيضا ، سوق الحبوب ، والتى كان يتم فيها بيع الكثير من أنواع الحبوب ومن أهمها الأرز الذى يشكل الوجبة الاساسية ، لمعظم السكان فى جدة وبل فى الحجاز بوجه عام ، لذاكان أهم ما يميز حوانيت ذلك السوق كثرة ما يتم عرضه فيها من الأرز . ومعظم الأرز الذى كان يستهلك فى جدة كان يتم جلبه من مصر أو من الهند ، وتشير بعض المراجع أن الأهالى كانوا يفضلون الأرز الهندى على الأرز المصرى ، ربما كان السبب فى ذلك هو طول حبة الأرز الهندى عن المصرى. فضلا عن لونه المائل للصفار ، كذلك فان حجم الأرز الهندى يزداد مع الطهى بنسبة أكبر من الأرز المصرى ، ولهذا السبب أيضا كان يتم تفضيله ، كما أن الأرز الهندى أرخص فى سعره من الأرز المصرى ، لذا كان يتم استيراده بكثرة حيث يستهلك فى كل من مكة المكرمة ، وجدة والطائف ، والمدينة المنورة ، وأحيانا يصل الى نجد . وكان تجار الهنود هم أهم مستوردين فى جدة فى ذلك العصر(٧٦) .

وتشير بعض المراجع الى وجود سوق لبيع الانواع المختلفة من الحلوى. والتى تميز أهل الحجاز عن غيرهم من سكان المشرق بكثرة الاقبال عليها وتناولها بوجه خاص عقب تناولهم وجبة العشاء ، وفى هذه السوق الليلية يقف باعة الحلوى ويحيط بهم العديد من المشترين . وكان الهنود هم أحسن صناع

لهذه الأنواع من الحلوى التى يقبل على شرائها سكان مدينة جدة • من هذه الأنواع « البقلاوة » و « الكنافة » و (الغريبة) وهى الأنواع المفضلة جـدا لدى أهل جدة(٧٧) • ويبدو لنا أنه كان يتم بيع عسل النحل فى هذه السوق أيضا ، والذى كان فى مقدمة السلع التى يقبل على تناولها سكان مدينة جدة فى ذلك العصر ، كما كان الحجاج والمعتمرين وبخاصة أهل اليمن يشترون ، هذا العسل كان يتم جلبه من المناطق الجبلية الخاصة ببنى سليم ، فى المنطقـة التى يقال لها أرض عزةعلى الطريق الى المدينة المنورة(٧٨) • كذلك لعله وجد سوق خاص لبيع حلى النساء ، أو على الأقل تم تخصيص عدة حوانيت لهذا الغرض ، حيث اعتادت نساء جدة فى ذلك العصر أن يقبلن على التحلى بالقلائد والعقود المصنوعة من الزجاج أو من العاج ، والتى كان يتم جلبها بصفة خاصة من يومباى بالهند(٧٩) • وعلى هذا الأساس فاننا نرجح أن يكون هذا السوق قد شغل أحد شوارع « قصبة الهنود » ، أو على الأقـل تم تخصيص بعض الحوانيت فيها لبيع مثل هذه الأنواع من الحلى التى تلبى حاجة ملحة لدى نساء جدة فى ذلك العصر وربما فى كل عصر •

وينبغى أن نلاحظ أيضا أن أسماء الأسواق لم تكن دائمة مشتقة من نوع النشاط الذى يقوم به أصحاب السوق ، وهذه ظاهرة شاركت فيها جدة العديد من المدن التى خضعت لحكم سلطنة المماليك سواء فى مصر أم فى بلاد الشام ، وان كانت فى جدة فى ذلك العصر أسواق اتخذت أسماءها من الأماكن التى أقيمت فيها ، مثل « سوق الجامع » ، وسمى بالجامع المعروف بمسجد الشافعى وهو من المساجد القديمة فى المدينة ، وهذا السوق تقابله وأنت داخل من باب مكة على جهة اليمين يسيرا(٨٠) • ومن هذا النوع من الأسواق « سوق بره » ، أى خارج البلد ، وهو خارج باب مكة ، وهو سوق طريف محتو على أبنية ودكاكين، وسمى بذلك لكونه خارج البلد ، أى خارج سور مدينة جدة مما يلى باب مكة • و « سوق البنط » وهو سوق ظريف مجمع الصيارف ، وفيه يباع السـمك الطرى ، والتمر الصفرى ، وأنواع سبح اليسر ، والنقل وغير ذلك ، وبحذائه خان صغير بسقيفة ، وعادة ما يزدحم أيام موسم الحج بأعداد كبيرة من زوار المدينة • و « سوق الندا » ، وهو أول أسواق جدة وأعلاها ، وهو سـوق مستطيل فى غاية من اللطافة ، وبه بعض أحواش التجار وغيرهم ، وأنواع

الأقمشة والأطعمة • وكذلك « سوق الخاسكية » فى جنوب شارع قابل ، وكان مقرا للصيارفة ، وباعة السمك المجفف ، والسبح المصنوعة من اليسر والكهرمان وقد أزيل بعض أجزاء الخاسكية وأدخل فى شارع الملك عبد العزيز(٨١) •

ويتضح لنا من وصف أسواق جدة فى ذلك العصر أنها كانت مقـامة فى أماكن يراعى فيها أن للسوق منافذ متعددة ، حتى يسهل على روادها أن يدخلوها ويخرجوا منها فى سهولة ويسر ، « أسواق البلدة ممتدة مع جانب البحر ، وأغلبها أخصاص واسعة مفتحة الى البحر ، والى ناحية البلد •• » ، كما يتضح أيضا أنه كان لبعض هذه الأسواق مستودعات خاصة بها ، كذلك عرفت أسواق جدة فى ذلك العصر نظام الصيارفة ، الذين كانت أولى مهامهم استبدال العمـلات وتغييرها لرواد الأسواق ، « كل واحد منهم يجلس على دكة فى الشارع ، ومعه صندوق كبير يضعه أمامه وبه النقود » ، وقد كان هؤلاء الصيارفة على جانب كبير من الأهمية بالنسبة لحركة التعامل فى أسواق جدة ، نظرا لكثرة أنواع النقود التى ترد مع زوارها فى مواسم الحج والعمرة ، هذا من جهة ، ومن جهة ثانية للحاجة الشديدة للعملة أثناء الموسم الهندى، وهو موسم وصول متاجر الهند والشرق الاقصى ، والذى ترتفع فيه أسعار العملة ارتفاعا ملحوظـا وسريعا بسبب الاقبال الشديد على المعاملات النقدية فى هذا الموسم(٨٢) •

ويمكننا القول أن مدينة جدة طوال العصر المملوكى ، عرفت مثل غيرها من مدن الشرق الأسواق بأنواعها الثلاثة التى شاعت فى العصور الوسطى ، من أسواق محلية ، وموسمية ، وسنوية ، هذه الأسـواق وان كانت فى وقت مبكر قد غلبت عليها صفة التخصيص ببيع أنواع معينة من السلع ، وكما سبقت الاشارة بذلك ، فهذا سوق العطارين ، وسوق الحريريين ، وسوق العنبريين ، وسوق النحاسين ، ولكن لما اشتدت حركة التجارة فى النصف الثانى من العصر المملوكى لم يعد هذا التخصص هو السمة الغالبة فى كل الأسواق • وشـمل كل سوق أنواعا من السلع وكما ألمحنا فى السطور السابقة • وتجار هذا النوع من الأسواق اما مستقرون لهم دكاكينهم ومستودعاتهم ، واما متنقلون يبقون بالسوق لفترة متأخرة من النهار ، أو الليل ، ثم يبارحونه ليعودوا اليه فى اليوم التالى ، ومنهم من يتواجد فى السوق بعد اعتدال حرارة النهار ويبقى فيه الى

فترة متأخرة من النيل ، وكما سبقت الاشارة بذلك عند الحديث عن بائعى الحلوى •

أما الاسواق الموسمية فكانت تعقد فى جدة فى موسمين أو ثلاثة على الاكثر أولها موسم ورود المتاجر من الشرق الأقصى من الهند والصين وغيرها الى جدة ، والتى تصل فى مواعيد سنوية لا تتغير ، وهو الذى عرف فى بلاد الحجاز، بل وفى كثير من البلدان التى لها علاقات تجارية مع جدة باسم « الموسم الهندى » أو « الهندى » فقط تمييزا له عن (الموسم العدنى) أو (العدنى) فقط ، والذى كانت تصل فيه القوافل برا الى مكة(٨٣) • هذا الموسم وهو الهندى ، غالبا ما كان يستمر ستة أسابيع حيث تصلها السفن القادمة من الشرق مع بداية شهر مايو من كل عام ، والتى تخضع فى ذلك لمواعيد هبوب الرياح الموسمية • وتدب فى جدة الحركة والنشاط ، حيث تصلها أيضا أعداد كبيرة من التجار من القاهرة وبلاد الشام ومن المغرب العربى وغيرها من البلدان لشراء كثير من السلع التى تأتى اليها ، ثم تعود السفن فى أواخر شهر يونيو أو أوائل شهر يوليو بعد أن تفرغ حمولتها ، ويتم شحنها بالبضائع القادمة لجدة من مصر وأوربا ، شرق أفريقيا ووسطها • ومما لا شك فيه أن ورود تجارة الشرق الأقصى فى مواعيد ثابتة قد تطلب وجود معاملات مالية على مستوى عال ، والاستعداد لهذه المتاجر وتجهيز مبالغ ضخمة لاستغلالها فى تلك التجارة ، كذلك استفاد الكثيرون من أهالى جدة الذين كانوا يستعدون لهذا الموسم لتقديم خدماتهم المختلفة التى يتطلبها وجود مثل تلك الأعداد فى المدينة فى هذا الموسم(٨٤) • كما جرت العادة أن يخرج الباعة من أهالى جدة الى الميناء ، ومعهم أنواع الأطعمة والمأكولات المختلفة ، ويقومون ببيعها للبحارة على المراكب القادمة لمدينتهم ، وبذلك كان وصول مراكب الموسم الهندى يعنى فرصة زاهرة لهؤلاء الباعة ، وربما قام بعضهم بعرض بعض منتجات جدة على هؤلاء البحارة ، والذين يقومون بشراء بعضها كهدايا لأهليهم عند عودتهم لديارهم(٨٥) • وربما قدموا لهم الماء فى قلال مليئة بالمياه المبردة والمعطرة بكثير من المواد العطرية ، ومنهم من كان يحرق البخور لتعطير الماء والجو فى نفس الوقت ، نظير بعض المبالغ التى يحصلون عليها منهم ، وهؤلاء الباعة قد كان لديهم الى جانب قلال الماء الكثير من الصحون المليئة بالمواد

العطرية ، وبخاصة ماء الورد الذى كانت له جاذبيته الخاصة عندما يضاف الى الماء أو بعض المواد السكرية(٨٦) .

ومن الأسواق الموسمية التى عرفتها جدة أيضا موسم العمرة والحج ، والذى كان عادة ما يبدأ من شهر رجب من كل عام مع وصول ركب الرجبية من مصر وشمال ووسط أفريقيا ، أو من بعض البلدان الأخرى مثل اليمن ، ثم يتوالى وصول ركب الحجيج بعد ذلك ، وفى هذا الموسم كانت تصل جدة أعداد كبيرة من المعتمرين والحجاج والتجار ، ويستعد أهل جدة بوجه عام لمثل هذا الموسم ، فأصحاب الدواب يجهزون الكثير من الدواب لنقل هؤلاء الزوار من جدة الى مكة المكرمة وبالعكس ، وأحيانا منها الى الطائف أو المدينة المنورة ، وأصحاب المأكولات يستعدون بكل ما يمكنهم من أطعمة لخدمة الوافدين وتزويدهم باحتياجاتهم فترة تواجدهم فى جدة ، بل وعلى طول الطريق من جدة الى مكة المكرمة ، وأرباب الأحواش يجهزونها لاستقبال التجار واستضافتهم فترة مكوثهم قبل أداء المناسك وبعدها فى طريق عودتهم لديارهم . وفى هذا الموسم يشتغل عدد كبير من أهل جدة ببيع ملابس الاحرام ، كما يأتى البدو لبيع العبى المصنوعة من الصوف ، وبعض الناس يقومون ببيع الأقمشة من كل نوع ، أو بيع المسابح المصنوعة من اليسر والكهرمان والتى تلقى اقبالا كبيرا(٨٧) . كذلك واضح مما تشير اليه بعض المصادر أن أهالى جدة كانت لديهم الكثير من الدور التى يتم كراوها للحاج والمعتمرن الواصلين اليها للاستراحة فيها بعد عناء السفر فى البحر ، فقد ذكر الرحالة المغربى التجيبى الذى قدم الى جدة فى شهر رمضان عام ٦٩٦هـ / ١٢٩٦م قوله : « فكان نزولنا بجدة المذكورة فى يوم السبت المذكور — الثامن من رمضان — بدار من دور كبرائها ، وهو الشيخ الأجل ظفر ، وكان حسن الأخلاق ، طيب النفس ، وأنزلنا أسبابنا من المركب المذكور ، وأراحنا الله بفضله وكرمه من البحر الوحش الفرعونى .. »(٨٨) .

كما كان لهذا الموسم أهميته الفائقة بالنسبة لتجارة جدة ، والذين استغلوا فرصة تواجد أعداد كبيرة من تجار البلاد المختلفة لعقد كثير من صفقات البيع والشراء والمبادلة بالنقد والمقايضة والحساب الجارى والبيع المؤجل الدفع ، كذلك كان له أثره الواضح فى أسواق جدة ، وبخاصة أسواق السلع الاستهلاكية

والمواد الغذائية بوجه خاص ، والتى تزدهر حركة التعامل فيها فى هذا الموسم نظرا لضخامة أعداد الوافدين اليها ، مما كان يؤدى الى ارتفاع كثير من السلع أمام الطلب الهائل عليها(٨٩) • وارتبط بموسم الحج قيام بعض الأســـواق المحلية ، اذ تشير بعض المراجع الى أنه فى بداية الطريق الممتدة من جدة الى مكة المكرمة وخارج باب مكة ، أحد أبواب مدينة جدة القديمة ، كان هناك سوق يعقد فى موسم الحج ، تباع فيه الاغنام حية ، وكذلك الحطب والفحم ، وأن هذه السوق كانت تزدحم بالباعة فى الصباح الباكر ولا تستمر سوى ساعات قليلة بسبب شدة حرارة الجو ، حيث يقوم الحجاج بشراء الاضاحى والهدى منهـــا(٩٠) •

ومن الاسواق الموسمية التى اشتهرت بها جدة فى ذلك العصر أيضـــا ، كان موسم « الرطب » أو التمر ، وعادة ما كان يقام هذا النوع من الاسواق الموسمية فى فصل الصيف ، حين يأتى البدو المجاورون لجدة بما لديهم من أنواع التمور المختلفة والتى كانت تلقى اقبالا كبيرا ليس فقط من أهالى جدة بل ومن زوارها كذلك • كما كان التمر الهندى يباع أيضا هناك وهو الذى يتم جلبه من الهند فى موسم التجارة الهندى ، ويلقى اقبالا منقطع النظير من سكان جدة ومن زوارها الذين اعتادوا حمله معهم عند عودتهم الى بلادهم وتقـــديمه لأهليهم وأصدقائهم(٩١) •

ومن الجدير بالملاحظة أن أسواق المواد الغذائية كانت منتشرة فى جميع أنحاء المدينة ، وهذا أمر يتمشى بالضرورة مع توزيع التجمعات السكانية ، وقد كانت هذه الأسواق حافلة بكل أنواع السلع الغذائية مثل الزبد والعسل والجبن والزيت وغيرها ، كما كانت حافلة بالبـــاعة الجائلين الذين يبيعـــون الفاكهة والخضروات • اذ أن معظم الفواكه كانت تأتيها من الطائف لكثرة ما بها من بساتين ، كذلك كانت تصل اليها كثير من أنواع الفاكهة من القرى الواقعة على الطريق المؤدية الى المدينة المنورة مثل الجريدة ، وخليص ، والصفرا ، ومن أهم أنواع الفواكه كان البطيخ والعنب والتين والليمون والبرتقال والموز • ومن وادى فاطمة كان يأتيها أيضا البطيخ ، هذا فضلا عن باعة الأطعمة الجاهزة ومنهم الشوائين وهم الذين كانوا يقومون بشى لحوم الاغنام وتقديمها لكل من يطلبهـــا(٩٢) •

وربما وجد فى جدة مثل غيرها من مدن الشرق وبخاصة تلك التى خضعت لحكم سلاطين المماليك سوق تباع فيه الطيور ، وهو الذى عرف باسم « سوق الدجاجين » ، والذى كانت تباع فيه كميات كبيرة من الدجاج ، والبط ، والأوز والحمام ، وأنواع الطيور الأخرى ، فضلا عن الأرانب ، كما كنت تباع فيه كثير من أنواع طيور الزينة ، والتى أقبل على شرائها كثير من أبنـاء الطبقـات الاجتماعية المختلفة فى ذلك العصر(٩٣) • أما الأسواق التى كانت تباع فيهـا حاجات الناس اليومية ، فقد كانت كثيرة ومتنوعة ، فربما كان هناك سـوق تباع فيه الصناديق والخزائن والأسرة وغيرها من المصنوعات الخشبية ، أو تلك القطع من الاثاثات المصنوعة من سعف وجريد النخيل ، والتى كان يستخدمها أهالى جدة بكثرة فى ذلك الحين ، وهى التى سوف نتحدث عنها فى الجزء الخـاص بالصناعة فى جدة ، والحقيقة أننا لم نعثر على اسم خصص لمثل هذه المنتجات بما يرجح أنها كانت تباع داخل الأسواق الأخرى ، أو أن المصادر قد أهملت الحديث عنها باعتبارها أنها أشياء مألوفة وليس هناك داع لذكرها • ومن البديهى أن الأسواق التى ذكرناها لا تمثل كل الاسواق التى عرفتها جدة فى ذلك العصر ، وانما هى أمثلة على مدى التنوع فى أنماط هذه الأسـواق • كذلك من المرجح أن مدينة جدة قد عرفت فى نفس الفترة الأسواق الدورية ، وهى التى كانت ولا زالت تقام فى يوم معين من كل أسبوع ، واستمدت أسماؤها من الايام التى تعقد فيها ، مثل سوق السبت ، أو سوق الجمعة ، أو سـوق الاثنين ، وهذا النمط من الأسواق تميزت به معظم بلدان الشرق العربى ، وكانت شائعة ومعروفة منذ عهود موغلة فى القدم •

وتكشف لنا دراسة الأسواق عن أنه لم يكن من عادة أهل جدة بشكل عام أن يعدوا طعامهم خارج منازلهم • وانتشرت فى جدة المطاعم التى يأكلون فيها ، أو يشترى منها الناس طعامهم جاهزا • أما الخبز فكان منه ما يباع جاهزا فى الأسواق ، ومنه ما يعد فى البيوت ثم يرسل الى الافران الكثيرة المنتشرة فى كل أنحاء جدة فى ذلك العصر ، والتى اشتغل فيها كثير من الاشخاص لتزويـد سكان جدة باحتياجاتهم من الخبز(٩٤) وكان بعض الناس يخبزون فى الفـرن مشاهرة ، على حين كان البعض الآخر يدفع نقدا عن كل مرة • والجدير بالذكر أن كلمة « الخباز » فى ذلك العصر كلمة تعنى من يصـنع الخبز لبيعـه فى

الأسواق ، أما كلمة « القران » فتدل على الشخص الذى يخبز الخبز الخاص بالبيوت لقاء أجر معلوم(٩٥) •

أما عن مياه الشرب فى مدينة جدة فى ذلك العصر ، فبسبب عدم كفاية مياه الصهاريج الموجودة فى المنازل للاستهلاك،فانه كان يتم جلب المياه من كثيرمن الآبار خارج المدينة او العيون ، وبعض هذه الآبار كان يبعد عن جدة ميلا ونصف الميل تقريبا فى الجهة الجنوبية منها ، وبعضها الآخر فى الجهة الشرقية منها خارج باب مكة • وكانت هذه الآبار اذا امتلأت بالمياه بعد سقوط الأمطار ، يقفل عليها أصحابها ، ويظل الماء فيها محفوظا الى الأوقات التى تشح فيها المياه ، فيفتحونها للبيع حيث يبيعون الماء بالقربة • وكان ذلك فى جدة عدة أنواع ، ماء مالح وهو الذى يستخدم لكنس الحمامات ، والسلالم ، والأسطح ، والدهاليز ، ويرش عصر كل يوم لترطيب الجو ، وماء به بعض ملوحة ولكنه لا يصلح للشرب ، وأشهر بئر للماء العذب خارج مدينة جدة هى التى عرفت باسم « العسيلة » ، ويتردد عليها أعداد كبيرة من البدو لملأ القرب من هذه البئر وتوزيعها على أهالى جدة ، الذين يحفظون هذه المياه فى أزيار كبيرة من الفخار ولتبريدها حيث امتازت هذه الأزيار بعدم رشحها للماء الا القليل منه ، أو فى القرب • وقد ظلت مدينة جدة تعتمد فى شربها على الآبار الى أن قام السلطان الغورى آخر سلاطين المماليك بجلب الماء الى جدة من وادى قوص الواقع شمال الرغامة(٩٦) • أما اذا نفذت مياه هذه الآبار ، أو انقطع تدفق مياه الوادى هذا فان الاهالى كانوا يجلبون كفايتهم من القرين وهى على نصف مسافة الطريق بين جدة ومكة(٩٧) •ولقد تطلب تزويد السكان باحتياجاتهم من مياه العيون والآبار استخدام اعداد كبيرة من الجمال لحمل المياه ، كما كانت هذه العيون والآبار بمثابة ممتلكات خاصة ، تدر على أصحابها دخلا طيبا(٩٨) •

وتنبغى الاشارة كذلك الى أن الاسواق فى مدينة جدة كانت تعتبر « مراكز اخبارية واجتماعية » على حد تعبير أحد الباحثين المعاصرين(٩٩) • فالواقع أن السوق كان بؤرة اجتماعية هامة نظرا لأن عددا كبيرا من الناس يتواجدون فيه ، أما كمشترين وزبائن للسوق ، واما بقصد النزهة ، واما باعتبارهم من أصحاب الحوانيت ، أو غيرهم من أرباب السوق • ومن الطبيعى ان يتداول الناس الأخبار ، ويتناقشون حول ما يشغلهم

من أمور سياسة أو اقتصادية أو اجتماعية • ومن ثم فاننا يمكن أن نقول أن السوق كان مركزا من مراكز تكوين الرأى العام على تعبيرنا المعاصر(١٠٠) •

ومن المؤسسات التجارية التى عرفتها مدينة جدة وكانت تؤدى مهمة الأسواق أو الأحواش أو الوكالات ، والقيساريات • وهى الى جانب كونها مؤسسات تقوم بمهمة البيع أو الشراء كانت بمثابة أماكن للنزل والاقامة والمستودعات للواردين من التجار وحفظ أموالهم ، كما أنها تؤدى مهمة البيع بالجملة بجانب البيع بالتجزئة(١٠١) • وان كنا لم نعثر فى المصادر العربية التى تحدثت عن جدة فى العصر المملوكى عن وصف للخانات باعتبارها واحدة من المؤسسات التجارية الهامة ، لذا سنجد أنفسنا مضطرين للاستعانة بما ذكره بعض الرحالة الأجانب عنها وهم الذين شاهدوا خانات جدة فى فترة لاحقة • فالطبيب الفرنسى جاك بونسيه الذى زار جدة فى الخامس من شهر ديسمبر عام ألف وسبعمائة للميلاد ، ونزل فى واحد من هذه الخانات يقول أن الخان له حوش كبير يقع فى وسطه ، وفى كل ركن من أركانه توجد مستودعات مرتفعة البناء ، وبعض الخانات يحتوى على ثلاث طوابق ، الطابق الارضى منها يستخدم كمستودع ، بينما يستفيد المسافرون من الطابقين العلويين • وأن خانات جدة كانت محترمة ، ليس فيها سرقة ، ولا تسمع فيها لغوا ، ولكنك مضطر لأن تشترى ما تحتاج اليه من فراش ، وعليك أن تعد طعامك بنفسك ان لم يكن لك خادم يقوم لك بذلك(١٠٢) • كما يقول عنها الرحالة بوركهارد أنها كانت مزودة بكل وسائل الراحة ، يقصد بذلك وجود اصطبل للدواب ، وبئر للمياه ، وميضأة ، ومسجد صغير للصلاة ، حيث يستطيع التجار الوافدين على المدينة فى مواسم التجارة المختلفة النزول بها • وعادة ما كان يوجد فى كل خان فناء أرضى واسع على جوانبه حنيات على شكل أروقة مسقوفة ، توفر الظل والهواء البارد للتجار ،حيث يمضون تحتها معظم أوقات النهار ،ويذكر أن الخان كان يطلق عليه فى بلاد الحجاز اسم « الحوش » ، ويتضح من حديثه كذلك أن تلك الخانات كانت تقام فى أماكن قريبة من الاسواق الكبرى أو على البحر مباشرة بمايخدم متطلبات حركة التجارة الدولية وبخاصة تجارة العبور(١٠٣)•

ومن خلال ما تشير اليه بعض المراجع يتضح أن كبار تجار مدينة جدة وأثريائها كانوا يتنافسون فيما بينهم على بناء تلك الخانات أو الأحواش أو

الوكالات ، وأنها كانت تستخدم كذلك لنزل الحجاج ، فضـلا عن أن بعض كبار التجار من الحضارمة والهنود كانت لديهم خانات خاصة لتخزين البضائع التى ترد اليهم على أيدى وكلائهم ، وكان لكل خان منها مقدم يحيلون اليـه المشترى ليتسلم منه بضاعته مقابل جعل على كل حمولة ، ويسمى هذا الجعل بالفسح ، وكان المقدم يستفيد من الحركة الدائمة فى الخان ، لان البضائع يتم تصديرها من جدة الى مكة المكرمة ، والمدينة المنورة ، والطائف والى أنحاء مختلفة من الجزيرة العربية • ومن الطبيعى أن يعمل داخل الخـان عدد من الحمالين والدلالين والسماسرة وغيرهم لخدمة حركة التجارة ، وجرت العادة أنه اذا حدث خلاف بين بعض التجار داخل هذه الخانات أن يتم الرجوع الى كبير التجار لفض ما يحدث من منازعات والجسم فيها بما يراه مناسبا(١٠٤) • كذلك من الواضح أن خانات جدة أو بعضها على الأقل قد تخصص فى الاتجار فى سلعة بعينها ، حيث نسمع عن خان العطارين الذى كانت ترد اليه شـتى أنواع العطور والبخور والاخشاب العطرية من بلدان الشرق الاقصى ، هذا الخان كان قريبا من سوق الندا بجدة ، كما كان الخان الكبير محـل تجـار الأقمشة تلك التى كان يتم استيرادها سواء من مصر أم من الهند من حراير ومنسوجات قطنية وصوفية وغيرها(١٠٥) •

ومن المؤسسات التجارية أيضا والتى لها علاقة وثيقة بالتجارة القيساريات والحقيقة أننا نلاحظ أن القيساريات من حيث تكوينها لم تختلف كثـيرا عن الخان ، كذلك كانت تؤدى نفس الغرض ، وهى أنها الى جانب مهمة البيـع والشراء ، فقد كان بمثابة نزل للتجار ومحل اقامتهم ، فضلا عن أنها مخازن أو مستودعات لتجارتهم ولحفظ أموالهم • كما تجب الاشارة أيضـا الى أن مؤرخى العصور الوسطى والمعاصرين لتلك الفترة لم يستطيعوا أن يعطونا فرقا واضحا بين تلك المؤسسات من خانات وقيساريات ووكالات وفنـادق ، وان كانت مدينة جدة لم تعرف الفنادق بمفهومها فى ذلك العصر ، نظرا لانها كانت تقدم من الدولة كهدية للتجار الاجانب أى من غير المسلمين ، ليعيشوا فيها فترة تواجدهم وكأنهم فى جزء من وطنهم بكل ما تحمله الكلمة من معانى • كمـا لا يخفى علينا أن تلك المؤسسات كانت من العوامل المساعدة على تنشيط حركة التجارة فى جدة فى تلك العصور(١٠٦) •

ولم يترك سلاطين المماليك حركة البيع والشراء فى أسواق جدة ومؤسساتها التجارية — دون رقيب أو حسيب ، وانما عهدوا الى المحتسب بمراقبة الباعة ، وضبط من يحاول منهم التلاعب فى الأسعار أو الأوزان أو المكاييل ، وقد ساعده فى عمله هذا عد من الأشخاص هم الذين عرفوا باسم عرفاء الأســواق ، كان يتخذهم من أرباب الحرف المختلفة ، خضعوا لاشرافه المباشر ، وكانوا موضع ثقته فيما ينقلون اليه من أخبار وما يشيرون عليه به • ويطوف الجميع على الأسواق ليل نهار للتفتيش عليها • وقد روعى فى المحتسب أن يكون دائما « ذا صرامة وخشونه فى الدين »[١٠٧] ولقد شغل هذه الوظيفة عدد من رجالات الحجاز البارزين فى ذلك العصر يأتى فى مقدمتهم « بنو ظهيرة » ، « بنو النويرى » ، و « بنو المغبرى » ، وهم من المشهود لهم بالصلاح والتقوى والورع وتولوا كثيرا من المناصب الهامة ومنها القضاء والخطابة والافتاء وغيرها[١٠٨] •

وحرصا من الدولة على صحة الأهالى فقد كان المحتسب يفحص الأطعمة والمشروبات التى تباع فى الأسواق للتأكد من جودتها وسلامتها ، فاذا وجد بعضها فاسدا قام باعدامه وأخذ البائع بالشدة[١٠٩] ، كذلك كان يأمر باعة الطعام بتغطية أوانيهم وحفظها من الذباب والهوام ، وكثرة غسلها بالماء الحار ، كما كان يأمر بالاكثار من التوابل التى من شأنها اضفاء نكهة وطعم للأكل ، فضلا عن أن بعضها كان بمثابة المادة الحافظة للأطعمة من سرعة التلف أو التلوث ، وضرورة غسل الأوعية التى يأكل فيها الناس بالماء النظيف[١١٠] •

الأزمات الاقتصادية وأثرها فى حركة الأسواق :

من الطبيعى أن تتأثر أسواق جدة فى ذلك العصر بعدة عوامل متباينة ، والتى كان لها آثارها السلبية على حركة الأسواق ، والمتمثلة فى عدم استقرار الأحوال السياسية وبعض الاجراءات الاقتصادية ، وما نجم عنها من اضطراب الأسواق ، وعدم استقرار حالة البيع والشراء •

فقد شهدت مدينة جدة فى عصر سلاطين المماليك بعضا من الأزمات الاقتصادية ، ترجع أسبابها الى أحداث سياسية متعلقة بسياسة المماليك تجاه الحجاز ، أو لأسباب خارجية لم يكن للمماليك دخل فيها ، بالاضافة الى بعض الاجراءات الاقتصادية التى اضطر بعض السلاطين لتنفيذها بسبب افلاس

خزانة الدولة في الحروب التى خاضتها داخليا بهدف القضاء على الفتن والثورات التى شنتها بعض القبائل العربية، وخارجيا لمجابهة الأطماع الخارجية وبخاصة الأطماع الصليبية • وفى تصورنا أن وهن قبضة سلاطين المماليك على تقليد الأمور فى الحجاز كانت وراء قيام بعض القبائل العــربية بالثورة وإذكاء روح الفتنة ، فمن المعروف أنه حتى أواخر عصر سلاطين المماليك ، فان البدو الذين كانوا يقيمون على أطراف مدينة جدة شكلوا خطرا على تجار المدينة وتجارتها ، والذين وصفهم أحد الرحالة الغربيين بقوله : « ان سكان جدة ومعظمهم من التجار كانوا يعيشون فى رعب من هؤلاء البدو ، وهم الذين يهاجمون المدينة فجأة ، ويقومون بكثير من عمليات السلب والنهب والقتل ، وذلك قبل قيام الأمير حسين الكردى ببناء سور حولها ••• » ، وكان ينجم عن هذه الأزمات اغلاق الحوانيت ، واضطراب الأسواق ، فيشح وجود الخبز والمواد الغذائية ، مما يؤدى الى ارتفاع كبير فى الأسعار[١١١] •

كذلك كان لاغارات بعض القبائل العربية المجاورة لجدة أثره فى احداث كثير من الأزمات الاقتصادية فيها ، يأتى فى مقدمة هذه القبائل « بنو ابراهيم »، وهم من أشهر القبائل فى العصر المملوكى التى كانت تسكن بين ينبع ومكة المكرمة، وكانت السلطات المملوكية توكل اليهم حراسة قوافل الحج فى بعض مراحــل الطريق بين ينبع ومكة ، وفيما بين سنتى ٩٠٧ — ٩١١هـ/١٥٠١ — ١٥٠٥م قام أعراب بنى ابراهيم بكثير من أعمال السلب والنهب لحجاج بيت الله الحرام ، متضامنين مع أمير ينبع « يحيى بن سبع » ، وأمير خليص «ملك بن رومى » ، وأشتد أمرهم فى سنة ٩١١هـ/١٥٠٥م لدرجة أن السلطان الغورى أمر بايقاف التوجه الى الحج فى هذه السنة من مصر والشام وسائر الأمصار ، حتى يقوم بتأمين طريق قوافل الحج من شر هؤلاء المفسدين ، وبذلك حرموا المدينة من مورد هام كان يعود عليها بالنفع الكثير[١١٢] الى جانب أنهم نشروا الخــراب والدمار فى منطقة جدة وقلة ، وتكلفت الدولة كثيرا من الجهد والمال ، فى الوقت الذى كان فيه فى أمس الحاجة الى توفير قوتها لمجابهة البرتغاليين فى البحر الأحمر والبحار الشرقية[١١٣] •

كما يمكننا القول أن الفتن والثورات التى نشبت بين الأشراف الحسينيين حول زعامة مكة فى هذا العصر ، والتى تكررت بصورة تفوق الحد ، كانت من

أهم أسباب كثير من الأزمات الاقتصادية التى عانت منها مدينة جدة فى العصر المملوكى ، بسبب ما دأب عليه هؤلاء من مهاجمة ميناء جدة والاستيلاء على ما فيه « من أموال الكارم ، وغلال المصريين بالنهب »(١١٤) . وأخذهم المراكب وهى « مشحونة بالقماش للتجار »(١١٥) . وتكررت عمليات التعدى على التجار وأخذ أموالهم ، نذكر من ذلك على سبيل المثال ما حدث عام ٧٩٠هـ/١٣٨٨م عندما احتاج أمير مكة الشريف على بن عجلان الى النفقة على الموالين له لصد غارات بعض الأشراف الحسنيين على جدة وغيرها « فأخذ من تجار اليمن ومكة ، ما استعان به على إزالة ضرورية »(١١٦).ونتيجة لقلة الأمن فى مكة وجدة بسبب هذا التناحر السياسى ، ومصادرة أموال التجار فقد اضطر التجار الى أن « أعرضوا عن مكة ، وقصدوا ينبع ، لقلة الأمن بمكة وجدة » ، مما كان له أثره السيىء فى أحوال جدة الاقتصادية فى مثل هذه الظروف(١١٧).يضاف الى هذا طمع هؤلاء الأشراف الدائم فى ثروات التجار ،من ذلك ما يرويه لنا الرحالة المغربى ابن بطوطة الذى زار البلاد فى هذا العصر ، بما يبرهن على خوف التجار الدائم من طمع هؤلاء الأشراف بدرجة كانوا يتحايلون بشتى الطرق على اخفاء أموالهم عن عيونهم وعيون أتباعهم ، ويضرب لنا مثلا على ذلك بما حدث سنة ٧٣٠هـ/١٣٢٩م عندما استقل مركبا من جدة ضمن المراكب التى استقلها الشريف منصور بن أبى نمى من أشراف مكة الحسنيين فى طريقها الى ميناء عيذاب « وكان هناك جملة من أهل اليمن قد جعلوا أزوادهم وأمتعتهم فى الجلب — نوع من المراكب — وهم متأهبون للسفر ، ولما ركبنا البحر أمر الشريف منصور أحد غلمانه أن يأتيه بعديلة دقيق ، وهى نصف حمل ، وبطة سمن يأخذهما من جلب أهل اليمن ، فأخذهما وأتى بهما اليه فأتى التجار باكين وذكروا لى أن فى جوف تلك العديلة عشرة آلاف درهم نقرة ،ورغبوا منى أن أكلمه فى ردها ،وأن يأخذسواها ... »(١١٨) . وفى تصورنا أن هؤلاء لم يدركوا حقيقة هامة وهى أن المعاملة الجيدة ، والنظام الواضح فى التعامل فضلا عن توفير الأمن ومناخ الاستقرار ، وامكانات الاقامة وحرية التنقل والتجارة ، كل هذا يساعد على تنمية موارد جدة ، وعلى جعلها منطقة جذب تجارى ، العكس صحيح ، وهنا تجدر الاشارة الى أن التجار لم يكونوا سلبيين فى جميع الحالات والظروف ، فعلى سبيل المثال لا الحصر أنه عندما حدث عام ٧٤٤هـ/١٣٤٣م نتيجة لتعرض التجار لمثل هذه الأطماع

أن امتنعت سفن أهل اليمن من دخول جدة ، فحدث فى جدة غلاء عظيم فى موسم الحج[١١٩] .

وتشير بعض المصادر المعـاصرة الى أن بعض أفراد المماليك ممن تولوا وظيفة « شاد جدة » كانوا السبب فى احداث بعض الأزمات الاقتصـادية ، واضطراب أحوال أسواق المدينة ، نذكر منهم الأمير جانبك الظاهرى الذى ولى هذه الوظيفة فى عهد السلطان الظاهر جقمق،وفى ربيع الأول سنة ٨٥١هـ/١٤٤٧م زادت شكوى التجار فىجدة منه لأنه كان قد ظلمهم،واستأصل جملة من أموالهم، مما جعل هؤلاء التجار يتركون البيع والشراء ، ويقررون عدم النزول الى جدة[١٢٠] . وما حدث عام ٩٠٨هـ/١٥٠٢م فى بداية عهد السلطان الغورى ، وحيث كانت خزانة الدولة خاوية فلجأ الى سـياسة المصـادرات وعين لذلك شخصا يدعى على بن أبى الجود « فاجتمعت فيه الكلمة وتصرف فى أمر المملكة بما يختار ، وجار على الناس بالظلم ، حتى أخرب ثغر الاسكندرية ودمياط وبندر جدة وغير ذلك من الثغور بسبب مصادرات التجار ، فتلاشىأمر الثغور والبنادر من يومئذ ... »[١٢١] .

أما فيما يختص ببعض الاجراءات الاقتصادية التى أدت الى كثير من الأزمات ، فلعل من أهمها وأخطرها كانت سياسة الرمى أو الطرح ، فمن المعروف أن سلاطين المماليك الجراكسة بوجه خاص لم يقنعوا بما فرضوه من ضرائب مباشرة على السلع والمشتروات ، أو تلك التى كانت تفرض على الأسـواق والتجار ، أو المقررات التى فرضت على كثير من أوجه الحياة وبخاصة فى مصر والشام ، بل انهم عمدوا الى احتكار بعض السلع وفرض شرائها بالأسعار التى يحددونها على أتباعهم والمتعاملين معهم فى البلاد التى خضعت لهم ، وهذا ما يسمى بنظام الرمى أو الطرح . فقد أشارت بعض المصادر المعاصرة لهذه الفترة أنه فى عهد السلطان الأشرف برسباى فى عام ٨٣٧هـ/١٤٣٣م « صار يحمل من قبل سلطان مصر مرجان ونحاس وغير ذلك مما يحمل من الأصناف الى بلاد الهند ، يطرح على التجار ، وتشبه به فى ذلك غير واحد من أهل الدولة . فضاق التجار بذلك ذرعا ، ونزل جماعة منهم فى السنة الماضية الى عدن،فتنكر السلطان بمصر عليهم ، لما فاته من أخذ عشورهم[١٢٢] .

وأخيرا كان وصول البرتغاليين الى المحيط الهندى عام ٩٠٤هـ/١٤٩٨م

يمثل كارثة عظمى لدولة سلاطين المماليك بوجه عام ، ولميناء جدة بوجه خاص أ ذلك أن البرتغاليين قاموا باحراق مدن وموانىء المسلمين على طول السواحل الأفريقية الشرقية ، ومن موزمبيق حتى القرن الأفريقى وخليج عدن كانوا يحرقون ويغرقون السفن الاسلامية ، ومنعوا المشتغلين بتجارة الشرق الأقصى من الوصول الى الشرق الأدنى ، مما أدى الى حالة من الكساد التجارى لم تشهد البلاد لها نظير من قبل[١٢٣] • وأدى ذلك الى « خراب بندر الاسكندرية وبندر جدة وبندر دمياط من تعنت الفرنج مع التجار فى بحر الهند ، ولم تدخل بضائع جدة نجدا من ست سنين »[١٢٤] •

المكاييل والموازين :

أما عن المكاييل والموازين التى كانت مستخدمة ، فانها لم تختلف بوجه عام عن تلك التى كانت مستخدمة فى مصر فى العصر المملوكى ، نذكر منها على سبيل المثال « الحمل » بكسر الحاء،وهو وسق بعير ، أى حمل جمل ،وهو اذا استخدم فى الشحن البحرى كان يساوى تقريبا العدل أى البالة ، وكلاهما يزيد خمسمائة رطل[١٢٥] • وهو من المكاييل التى كانت مستخدمة فى القمح وأمثاله من الحبوب. وفى هذه الحالة كان يقدر بأردب أى ستين كيلة من كيل مكة • كما كان هناك أيضا نصف الحمل ويطلق عليه كذلك اسم « العديلة » حسبما يذكر ابن بطوطة ذلك ، ربما كان هناك ربع الحمل ، ونصف العديلة[١٢٦] • الا أن الحمل استخدم أكثر وبخاصة فى مكيال الفلفل[١٢٧] • والتوابل وغيرها من الأخشاب العطرية والبخور •

كما كانت هناك مكاييل أخرى استخدمت الى جانب الحمل ، فى بيع كثير من السلع وبخاصة الحبوب ، مثل الصاع ، « ويحسب الصاع أربعة أمداد ، وكل مد أربعة أرباع رطل»[١٢٨] ويبدو لنا أن الصاع كان يستخدم أولا فى المدينة المنورة ثم عم استخدامه فى بقية مدن الحجاز ، اذ يذكر أحد المصادر « وفى الحجاز كان يستعمل الصاع ، والصاع مكيال لأهل المدينة — يأخذ أربعة أمداد — والمد ربع صاع والجمع أمداد »[١٢٩] • وهناك أيضا « الغرارة » المكية « والغرارة المصرية ، المشار اليها غرارتان مكيتان ونحو نصف غرارة » علما بأن غرارة القمح المصرية عبارة عن مئة قدح مصرى • وعلى هذا

الأساس تكون الغرارة المكية أربعين قدحا[١٣٠] • ويباع بها وربما بالقدح أيضا، القمح ، والذرة ، وغيرها من الحبوب[١٣١] • كما تشير بعض المصادر المعاصرة الى نوع آخر من المكاييل وهى « الويبة » ، وكانت تباع بها أيضا السلع مثل الدقيق ، والشعير ، والأرز ، والنوى الذى كان يستخدم كعلف للجمال[١٣٢] • كذلك نسمع عن استخدام « المد » فى بعض السلع مثل الملح[١٣٣] •

أما عن الموازين المستخدمة ، فقد كانت الرطل ومشتقاته من الأوقية ، وربع الرطل ونصف الرطل[١٣٤] • كما نسمع عن استخدام « المن » من الملاحظ أن استخدام المن كميزان كان يختلف باختلاف نوع السلعة نفسها ، فقد ورد فى بعض المصادر المعاصرة أنه عندما كانت توزن به اللحوم والأسماك فهو هنا « عبارة عن سبعة أرطال بالمصرى »[١٣٥] • أو حسبما يذكر تقى الدين الفاسى مؤرخ مكة « سبعة أرطال مصرى الا ثلثا »[١٣٦] • أما اذا استخدم « المن » فى بيع سلع مثل السمن والتمر فانه كان عبارة عن « ثلاثين رطلا بالمصرى •• »[١٣٧] ومن الطبيعى أن تكون مثل هذه الأمور من الأشياء المألوفة للمعاصرين عند استخدامها ولا تحدث لهم أى ارتباك ، لأنهم اعتادوا عليها بحكم المران أو العادة • كما ينبغى أن نشير الى أن هناك بعض السلع لم تستخدم فيها الموازين والمكاييل عند بيعها ، مثل بيض الدجاج ، والبطيخ والشمام وغيرها والتى كانت تباع بالواحدة • كما تعددت أنواع الموازين فى كثير من الأحيان عند بيع بعض السلع ، وفى تصورنا أن ذلك راجع بالدرجة الأولى الى القدر الذى بيعت به ، فكلما كان كبيرا استخدم ميزان أكبر ، والعكس صحيح • حيث نسمع عن سلع بيعت بالرطل مثل اللحم والعسل والسمن والتمر ، أو بيعت بالمن كذلك[١٣٨] •

المعاملات المالية :

فى البداية يجب أن نذكر أن مدينة جدة بوجه خاص وبلاد الحجاز بوجه عام ، كانت مرتبطة بنظام المعاملات النقدية الذى كان سائدا فى مصر وبلاد الشام فى العصر السابق على العصر المملوكى ، وهو العصر الأيوبى من حيث الدنانير والدراهم الفضية[١٣٩] • فمن المعروف أن السلطان صلاح الدين الأيوبى أمر فى سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م بضرب دراهم من خليط معدنى نصفه من الفضة

والنصف الآخر من النحاس ، وهى التى عرفت باسم «الزيوف» أى «الزائفة»، كما أمر ببناء دار لضرب النقود باسمه فى مكة المكرمة(١٤٠) . واستمر الحال على ذلك الى قرب نهاية العصر الأيوبى ، حيث أشار ابن المجاور الذى زار الحجاز حوالى عام ٦٢٠هـ/ ١٢ الى أن « نقد البلد ذهب مصرى وبها يضرب على عيار المصرى»(١٤١) . فلما جاء عصر السلطان الملك الكامل محمد بن العادل الأيوبى ، أمر فى سنة ٦٢٢هـ/١٢٢٥م بضرب دراهم مستديرة سماها الدراهم الكاملية والتى تعرف بالنقرة أيضا(١٤٢) . ومن بعده تم التعامل بالدراهم المسعودية ، التى تنسب الى الملك المسعود يوسف بن الملك الكامل محمد الأيوبى ، وهى من الفضة الخالصة ، مربعة الشكل وتساوى فى المعاملة ثلثى الدراهم الكاملية ، وقد ظلت هذه الدراهم المسعودية والكاملية يتعامل بها الى نهاية العصر الأيوبى ، بل وتم التعامل بها طوال العصر المملوكى جنبا الى جنب العمـلات الأخرى التى ظهرت فى العصر المملوكى ، بالاضافة الى الفلوس النحاسية أو دراهم الفلوس النحاسية والتى كثر استخدامها بعد سنة ٦٣٠هـ/١٢٣٣م وهى التى تم سكها من النحاس وكثر استخدامها بسبب الأزمة الاقتصـادية التى حلت بالبـلاد الأيوبية فى هذه السنة(١٤٣) .

وفى السنوات العشر الأولى من قيام دولة المماليك البحرية أو الأولى بما صحبها من اضطراب ، لم نعثر فى المصادر التى بين أيدينا عن حدوث تغيير فى النقد فى الحجاز ، مع العلم بأن سلاطين المماليك الأوائل مثل شجر الدر والمعز أيبك والمنصور على بن أيبك والمظفر قطز ، قد سكوا نقودا كثيرة بأسمائهم ، والتى من المؤكد أنها عرفت فى بلاد الحجاز على الأقل مع الحجاج والمعتمرين ، اذ أن أول اشارة وردت عن النقود المملوكية فى الحجاز ترجع الى عصر السلطان الظاهر بيبرس ، المؤسس الحقيقى لدولة سلاطين المماليك ، والذى استقرت فى عهدة الأمور ، وأخذ ينظم شئون الدولة ، وعندئذ أمر بضرب دراهم جديدة فى عاصمة السلطنة عرفت باسم الدراهم الظاهرية ، ونقش رنكه عليها ، وهو يمثل صورة سبع ، وقد قام السلاطين الذين تولوا بعده بسك عملات تحمل أسماءهم، لما تحمله السكة من رمز سياسى فى المقام الأول للسلطان الجالس على العرش . وقد أورد القلقشندى اشارة هامة وهى أن الغـالب فى الدنانير التى سكت فى العصر المملوكى«نقص أوزانها،وكأنهم جعلوا نقصها فى نظير كلفة ضربها»(١٤٤).

ومن الطبيعى أن تعرف هذه العملات فى الحجاز كما عرفت فى بلاد الشام كذلك. بل لدينا اشارات عن سك عملات فى بلاد الحجاز فى عهود كثير من سلاطين المماليك ، ولعل أول عملة سكت فى الحجاز فى العصر المملوكى تلك التى تحمل اسم السلطان الظاهر بيبرس عقب حجه عام ٦٦٧هـ/١٢٦٩م ، بعد أن استقبله الشريف نجم الدين أبو نمى وعمه ادريس بن قتادة استقبالا حافلا ، فأنعم عليهما واشترط عليهما « ألا يتعرض أحدهما لتاجر ما لتشجيع مرور التجارة الى مصر ، واتفق معهماعلى أن يخطب له فى الحرم والمشاعر وأن تضرب السكة باسمه ... »[١٤٥] . وفى سنة ٦٨١هـ/١٢٨٢م فى عهد السلطان المنصور قلاوون أقسم أمير مكة الشريف أبو نمى بناء على أوامر السلطان ، أقسم على الطاعة ، وأن يستمر فى افراد «الخطبة والسكة بالاسم الشريف المنصورى ... »[١٤٦]. كذلك أشارت المصادر المعاصرة الى أنه فى عهد السلطان الأشرف خليل بن قلاوون، الذى ولى السلطنة عام ٦٨٩هـ/١٢٩٠م بعد وفاة والده ، فقد خطب له أمير مكة الشريف أبو نمى ، ونقش السكة باسمه أيضا[١٤٧] .

وفى عصر سلاطين المماليك الجراكسة ، أو دولة المماليك الثانية ظل الحال على ما كان عليه من قبل ، ولنأخذ من المصادر المعاصرة بعض الأمثلة على ذلك . ففى عام ٨١٦هـ/١٤١٣م تشير بعض المصادر وبخاصة الحجازية الى وجود « دنانير » ، ويقصد بها تلك الدنانير التى قام بسكها السلطان الملك المؤيد الشيخ المحمودى فى محاولة منه لاصلاح العملة المملوكية[١٤٨]. وفىسنة ٨٢٩هـ/١٤٢٦ أمر السلطان الأشرف برسباى بضرب دنانير عرفت بالأشرفية ، كان وزن الدينار منها ٣ر٤١ جراما من الذهب ، وظل الدينار الأشرفى هذا يتم التعامل به مع النقود الأخرى حتى نهاية العصر المملوكى . بل ان الفلوس النحاس التى تم سكها فى عاصمة السلطنة بالقاهرة كان يتم نقلها الى بلاد الحجاز[١٤٩] . ومن المؤكد أنه لم يتم ضرب عملة الأشرف برسباى الذهبية فى مكة ، حيث أشارت بعض المصادر المعاصرة الى أن السلطان برسباى سمح لأمير مكة بأن يسك دراهم فى مكة جنبا الى جنب اسم السلطان ، بنفس قيمة وعيار تلك الدراهم التى كان يتم سكها فى عاصمة السلطنة بالقاهرة[١٥٠] .

وعلى هذا الأساس يمكننا القول أن مدينة جدة قد عرفتالعملاتالمملوكية، سواء تلك التى تم سكها فى مصر وبلاد الشام أو التى تم سكها فى مكة ، من

الدينار الذهب والدرهم الفضة ، ثم بعد ذلك الفلوس النحاسية ، مع ما طرأ على هذه العملات من تعديل أو تغيير سواء فى قيمتها أم فى عيارها[١٠١] الا أنه من المرجح أن يكون الدينار الذهب هو الذى كان تفضيله أكثر من بين جميع أنواع النقود هذه ، وخصوصا فى التعاملات الكبيرة ، حيث تشير بعض المصادر الى أنه فى سنة ٨٥٧هـ/١٤٥٣م كان الدينار الذهب يلقى قبولا واسعا[١٠٢] .

ومن خلال دراسة حركة التعامل فى أسواق جدة فى العصر المملوكى ، يتضح لنا أن جدة عرفت استخدام كثير من أنواع النقود الاسلامية التى كانت متداولة آنذاك ، وذلك لاتصالها بالعديد من المدن والموانىء الاسلامية ، فهى بحكم تبعيتها لسلطنة المماليك كان أساس التعامل فيها العملات المملوكية ، وبحكم علاقاتها مع اليمن مثلا ، عرفت النقود الخاصة باليمن ، سواء التى ترد مع التجار أم تلك التى كانت يأتى بها كثير من ملوك اليمن فى رحلات حجهم . ولنضرب مثالا على ذلك وهو ما حدث عام ٧٤٢هـ/١٣٤١م عندما قدم الملك المجاهد صاحب اليمن وتصدق بصدقة هائلة من الدراهم، ولما قابله أمير مكة الشريف رميثه «أعطاه من النقد أربعين ألف درهم جددا مجاهدية »[١٠٣] . وما ينطبق على نقود اليمن ينطبق على نقود كثير من الدول الاسلامية الأخرى. اذ تشير بعض المصادر الى أن جدة قد عرفت النقود الفضية المستخدمة فى بلدان المغرب العربى، بسبب توافد أعداد كبيرة من أهلها الى جدة فى مواسم الحج سنويا . فالرحالة المغربى ابن بطوطة الذى زارها فى ذلك العصر ، يذكر أن الدراهم النقرة المستخدمة فى كل من مصر والحجاز كانت تعد ستة دراهم من دراهم المغرب ، وأن الدرهم المغربى كان يساوى ثمانية من الفلوس النحاس عند زيارته للمدينة[١٠٤] .

كما عرفت جدة كغيرها من مدن الحجاز — النقود المغولية ، والتى تميزت بوجود التاريخ الهجرى المسجل عليها باللغة العربية ، وان كانت هناك بعض النقود الذهبية والفضية ضربت باسم العاهل المغولى أبو سعيد بهادر خان « ٧١٦هـ — ٧٣٦هـ/١٣١٦ — ١٣٣٥م » وعليها تاريخ ضربها بالحروف العربية حسب التاريخ الايلخانى ، هذا التاريخ الايلخانى ظهر على تلك النقود منذ عهد السلطان محمود غازان . وبعض هذه النقود تم ضربها فى مدينة أرزروم وعليها كتابات بالخط الكوفى ، وتحمل على الوجه شهادة التوحيد والرسالة المحمدية « لا اله الا الله محمد رسول الله صلى الله عليه » وحولها أسماء الخلفاء

الراشدين الأربعة . ومنها ما ضرب فى أروند ، وأصفهان ، وبازار ، وتبريز ، وشيران ، وكرمان ، ويزد وغيرها(١٥٥) . الا أن أبرز أنواع النقود المغولية التى كثر استعمالها فى الحجاز بوجه عام فى العصر المملوكى ، وكانت الدنانير الغازانية نسبة الى السلطان محمود غازان ، عاهل مغول ايران ، لما كان يرسله كبار حكام المغول الى علماء الحجاز من مبالغ ضخمة سنوية(١٥٦) . ومن المرجح أن تكون جدة قد عرفت كغيرها من بلدان السلطنة المملوكية الدراهم اللنكية،وهى الدراهم التى تنسب الى تيمولنك.وكذلك الدراهم القرمانية نسبة الى بنى قرمان أصحاب بلاد الروم ، وربما غيرها من الدراهم التى كانت مستعملة فى أنحاء شتى من العالم الاسلامى وبخاصة فى المشرق(١٥٧) .

كما كانت النقود التكرورية معــروفة فى جدة ، وهى التى تنسب الى بلاد التكرور ونقصد بهم سكان السودان الغربى والأوسط ، أو أهالى أفريقيا جنوب الصحراء بأقاليمهم وقبائلهم المختلفة(١٥٨) . حيث كانت مواكب الحجاج القادمة من هذه البلاد من المصادر الهامة للحصول على عملاتها ، نظرا لكثرة من يأتون فى هذا الموكب ، حيث تشير بعض المصادر المعاصرة أن ركب التكرور الذى يأتى سنويا كان لا يقل بحال من الأحوال من خمسة آلاف نفس(١٥٩) .

والى جانب النقود الاسلامية السابقة ، فقد عرفت مدينة جدة فى ذلك العصر الكثير من أنواع النقود الأجنبية الأوربية،مثل«الافرنتى»أو«الافلورى»، وهى عملة فلورنسة الذهبية(١٦٠) . ولقد ظهر الافرنتى فى مكة لأول مرة فىموسم الحج سنة ٨١٥هـ/١٤١٣م حيث كان يصرف بسبعة وخمسين درهما سعوديا، ، بينما كان صرف الدينار المملوكى ستين مسعوديا . ولم يأت عام ٨٢٢هـ/١٤١٩م الا وكان الافرنتى هو العملة الأكثر شيوعا والتى يتم بها تقييم أسعار معظم المبيعات،وبعد سنة٨٢٩هـ/١٤٢٦م قل التعامل به بسبب اصدار السلطان الأشرف برسباى عملة ذهبية جديدة لتحل محل الافرنتى(١٦١) . ويصف لنا القلقشندى هذه العملة فيقول أنها عبارة عن دنانير يؤتى بها من البلاد الافرنجية والروم ، معلومة الوزن،كل دينار منها معتبر بتسعة عشر قيراطا ونصف قيراط من المصرى، وهذه الدنانير مشخصة على أحد وجهيها صورة الملك الذى تضرب فى زمنه،وعلى الوجه الآخر صورتا بطرس وبولس الحواريين اللذين بعث بهما المسيح عليه السلام الى رومية ، ويعبر عنها بالافرنتية جمع افرنتى نسبة الى مدينة من مدنهم

وهى افرنسة « فلورنسة »(١٦٢) . والجدير بالذكر أن هذا النوع من النقود عندما شاع استعماله فى بلاد الحجاز فى عصر المماليك الجراكسة ، أثر بدوره على النقود المحلية،فقد ذكر ابن فهد فى حوادث سنة٨٤٨هـ/١٤٤٤م أيام الأشرف برسباى أنه فى شهر شعبان « عقد مجلس بالقضاء والأمراء من جهة الدراهم المسعودية ،بأن يضرب دراهم عوض الدراهم الموجودة الآن بمكة،وأن يكون صرف الأفلورى مائة وعشرين ، لأن صرف الافلورى الآن مائة مسعودية ، وكان صرف الافلورى قبل وصول الرجبية مائة مسعودية وعشر مساعيد ، فلما سمع بوصول الرجبية نزل الصرف درهما درهما ، الى أن بلغ مائة مسعودى »(١٦٣) . وهذه اشارة واضحة عن ان وصول ركب الرجبية من مصر وبلاد الشام كان يؤثر فى سعر صرف الدراهم المحلية بسبب كثرة ما كان يجلبه الزوار معهم من هذهالنقود الأجنبية .

ومن المرجح أن تكون جدة قد عرفت مثل غيرها من المدن المملوكية الدوكات الفضية ، والذى تم ضربه فى البندقية ، الا أن التعامل بهذه العملة كان قليلا لعدم اقبال الناس عليه مثلما حدث فى مصر والشام ، واصرارهم على التعامل بعملة فلورنسة الذهبية ، وما ذلك الا بسبب أن قاعدة المعاملات فى الشرق العربى كانت غالبة ، أو هى قاعدة المعاملات فى الغرب الأوربى(١٦٤) . كان هذا فى دولة المماليك الأولى أو البحرية ، لكن فى دولة المماليك الثانية أو الجراكسة يبدو أنه شاع استعمالها بحيث قبلها الناس فى المعاملات ، بدليل ما تذكره المصادر عنها من أنها « فضة عليها شخوص من ضروب الفرنج ، تعامل الناس بها من سنة ثمانى عشر وثمانى مائة بالعدد والوزن ...»(١٦٥) .

ومما لا شك فيه أن جدة قد عرفت فى ذلك العصر الدوكات الذهبية ، وهى عملة بندقية سكتها مدينة البندقية عام ٦٩٤هـ/١٢٩٤م . والتى أصبحت فيما بعد من أهم العملات التى تدفقت على بلاد السلطنة المملوكية ، بسبب شدة ارتباط النشاط التجارى بالبنادقة ، والذين كانوا يتوافدون على مصر والشام ويحصلون على متاجر الشرق الأقصى ، والتى كانت جدة من أهم معابرها فى ذلك العصر . فضلا عن تفوق هذه العملة على غيرها من العملات ، الى جانب أنه فى الوقت الذى أتمت فيه البندقية سك عملتها الذهبية هذه ، كانت مقادير الذهب التى

تتدفق على العالم الاسلامى آخذه فى النقصان ، مما أفقده مكان الصدارة أمام ث العملة ثابتة الوزن والعيار[١٦٦] .

وفيما يتعلق بعملية المناداة التى كانت تتم فى الأسواق والأماكن العامة الأخرى فى ذلك العصر ، لمنع الناس من التعامل بعملة معينة ، أو تغيير قيتها ، فان المصادر التى بين أيدينا لم تشر الى ذلك صراحة ، الا أننا نستطيع القول أن جدة لم تختلف فى ذلك عن غيرها من المدن المملوكية الأخرى فى مصر والشام، وذلك لسببين أساسيين ، أولهما أن أحد أهم أسواق جدة فى ذلك العصر وحتى العصر الحديث كان يسمى « سوق الندا » ، ومن الواضح أن « الندا » هى تحريف لكلمة « النداء » بما يرجح أن هذا السوق هو الذى كانت تتم فيه عملية المناداة هذه لكثرة ما يوجد بها من الصيارفة والتجار ، هذا من جهة ، ومن جهة ثانية أنه بناء على الفتوى التى أرسلها بعض التجار الى قاضى مكة نجم الدين الطبرى ، يسألونه فيها عن رأى الدين فيما يجب أن يتم اذا بطلت عملة،وظهرت هذه العملة بسكة جديدة فى عيارها عنها فى الأولى ، فهل يتم السداد بالمبلغ المتفق عليه بالعملة القديمة ، وقد أفتى هذا القاضى بأن المشترى ملزم بالسداد بالعملة المتفق عليها حال البيع[١٦٧] . أى أن عليه أن يدفع الثمن « على حساب ما كان التعامل بها يوم العقد ، لا على حساب ما حدث بعد ذلك من تغيير » [١٦٨] . وعلى هذا الأساس ترجح وجود عملية المناداة سالفة الذكر ، لأنها كانت ضرورية فى عصر لم يعرف ما نعرفه الآن من وسائل اعلام مختلفة ، ولأنها ضرورية لاعلام الناس بأى تغيير طارىء على العملة ، لما يترتب على ذلك من تغيير فى الأسعار وفى المعاملات مثل الأجور ، وعقود الزواج،والميراث ، والاجارة الخاصة بلدور، والأوراق الخاصة بالدين «مسطور الدين»،وتقدر ريع الأوقاف والمنصرف عليها وخلافه[١٦٩] . وليس هذا فحسب ، بل ان عملية « المناداة » كانت على جانب كبير من الأهمية فى ذلك العصر ، وذلك فى افساح المجال للمعاملات الجديدة لكى تحل محل المعاملات القديمة وتسيطر على حركة التعامل فى الأسواق فضلا عن مدلولها السياسى وبخاصة عند تولى سلطان جديد[١٧٠] .

كما نستنتج من هذه الفتوى ظاهرة هامة فى العصر المملوكى ، وهى ظاهرة تهافت الناس كبيرهم وصغيرهم على اثبات تصرفاتهم المختلفة ، والمتعلقة بوجه

خاص بعمليات البيع والشراء ، وذلك على يد أحد الموثقين المختصين بكتابة مثل هذه الأمور ، والذى كان يشترط فيه أن يكون على دراية بالفقه وأحكامه[١٧١] ثم العمل على توثيقها بالاشهاد عليها أمام القاضى الشافعى ، بما يجعل من عقد البيع محررا رسميا موثقا له قوة تنفيذية،وتصبح وثيقة البيع سندا شرعيا مقبولا فى كل ظرف وحال ، وهكذا يكون الغرض من الاشهاد تأييد واجازة العقد حتى لا يكون هناك مجال الى فسخه•وقد كان على القاضى الموثق أن يقرأ عقد البيع ويبحث فيه من جميع النواحى ، ويتأكد من صياغة العقد تؤدى المعانى التى يردها كل من المشترى والبائع من غير لبس ولا غموض،وأنها جائزة شرعا،وعند ذلك يحكم بصحة العقد ولزومه حكما صحيحا شرعيا ، ثم يأمر بتسجيله ليكون مشهرا وحجة على المتعاقدين والغير[١٧٢] •

ويتضح أيضا من هذه الفتوى أنه جرت العادة بتحديد نوع النقود ، وهل هى من الذهب أم من الفضة ، ونوع العملة المستخدمة ، كأساس يمكن الرجوع اليه عند تغيير العملة أو عيارها • كذلك يتضح أنه فى حالة نشوب أى نزاع بين التجار لأسباب قد تتعلق بوجود السلعة أو سعرها ، أو نحو ذلك فانه كان يتم الرجوع الى السلطات المحلية الممثلة فى قاضى جدة أو مفتى مكة،وهذه السلطات هى المسئولة عن فض المنازعات أيا كان نوعها•ومثل هذا الحكم الذى كانت تصدره كان نهائيا لا يقبل النقض أو الاستئناف • كما تشير الفتوى صراحة الى اختلاف قيمة العملة ، والذى قد يستغله بعض الصيارفة لتحقيق مكاسب طائلة من وراء جمع النقود التى تنادى الدولة بمنع تداولها،أو تلك التى تنادى بتداولها بأسعار أقل من سعرها،وليس أدل على صحة هذا الاستنتاج من تلك الاشارات التى كثرت فى المصادر المعاصرة عن «الدراهم الجدد»،«الدراهم العتق» أو «الفلوس الجدد» أو «الفلوس العتق»[١٧٣] •ثم يقوم هؤلاء الصيارفة بانتهاز الفرصة لبيعها مرة ثانية بثمن مرتفع عندما يسمح بتداولها • وبطبيعة الحال تكون النتيجة أن يخسر الكثير من الناس ويربح هؤلاء الصيارفة والذين كانوا بالدرجة الأولى من كبار التجار[١٧٤] •

وتنبغى الاشارة الى أن عمليات السمسرة كانت قليلة بسبب تكوين مجتمع جدة التجارى فى ذلك العصر ، والذى ضم أعدادا من الحضارمة ، واليمنيين ، والمغاربة ، والمصريين ، والحجازيين ، والكارمية ، والتكاررة ، والهنود ، وقد جرت العادة أن يكون لأبناء كل طائفة منهم وكلاء فى البلاد التى أتوا منها أصلا،

أو يتاجرون معها ، ينوبون عنهم فى عمليات البيع والشراء ، وفى تصريف السلع التى يتاجرون فيها • كما يبدو أنه لم تكن هناك حاجة للاعتماد على الصيارفة فى عمليات تمويل البيع والشراء فى المعاملات التجارية ، واصدار الصكوك والسفاتج اذ أن معظم المعاملات تجرى نقدا وعدا فى حينها ، سواء بالنسبة لتجار الجملة أم التجزئة • وان كانت هناك بعض عمليات البيع بالأجل والمقايضة ولكنها كانت قليلة ، ولم تشكل جزءا كبيرا من عمليات البيع والشراء•ومن المرجح أنه لم تكن هناك محاولة لانكار مثل تلك الديون من قبل التجار لأنه كان يتم توثيقها وكما سبق أن أشرنا ، فضلا عن أنه عادة ما كان يتم سداد ولو بعد حين أو مع شىء من الصبر • هذا فى الوقت الذى احتفظ فيه التجار بدفاتر يسجلون فيها عمليات البيع والشراء التى تتم لديهم ، فكانت لهم دفاتر أسبوعية ، ودفاتر سنوية ، وربما دفاتر يومية ، يرصدون فيها كل معاملاتهم ، والقليل منهم من كان يستخدم كاتبا لتسجيل حركةالبيع والشراء والمعاملاتاليومية والأسبوعية والسنوية(١٧٥)•

كما أننا لم نعثر على اشارات ولو بسيطة تدل على وجود نظام الشركات الذى كان سائدا فى بقية دولة سلاطين المماليك ، والذى عرف بنظام المضاربة أو القرامن ، وهو نوع من أنواع الشركات وفيها يدفع شخص مالا لآخر ليتاجر فيه ، ويتضمن عقد الشركة بينهما نصا على أن يكون الربح بينهما حسب الاتفاق، والخسارة يتحملها صاحب رأس المال • وقد يكون الربح النصف أو الثلث أو الربع للتاجر ، ويعتبر رأس المال هنا أمانة لدى التاجر الذى هو فى نفس الوقت وكيل صاحب رأس المال ، وعقد الوكالة غير ملزم ، فيستطيع أحدهما أن ينسحب من الشركة بعد حصوله على حقوقه • ولا نستبعد وجود نوع آخر من المعاملات التجارية ، والذى كان يتوافق تماما مع طبيعة تكون مجتمع جدة التجارى ، وهو ما عرف باسم الشركات الأخوية ، والتعاقد هنا يضم أعضاء الأسرة الواحدة الراغبين فى الاشتراك برءوس أموالهم فى التجارة ، كما ضمت هذه الشركات فى بعض الأحيان من له علاقة بالأسرة عن طريق النسب والزواج • وينقسم الافراد الى قسمين ، قسم يشترك برءوس الأموال ، والقسم الثانى يشترك بجهده • وعادة ما ينص فى عقد المضاربة من هذا النوع بأن يكون ربع الربح للعاملين ، وثلاثة أرباعه لأصحاب رءوس الأموال،وهذا النوع هو الذى تحدث عنهالمقريزى وتطور بمرور الوقت الى أن أصبح من حق الشريك العامل أن يبقى نصيبه من

الربح ليصير مبلغا ضخما يضيفه لرأس المال ، فيصبح حينئذ مشتركا فى الشركة برأس مال ، ويصير له وظيفتان وربحان[١٧٥] . وفى تصورنا أن هذا النوع من الشركات كان موجودا لأنه يتفق مع تكوين مجتمع جدة التجارى بما يضم من طوائف مختلفة كانت تجمعهم صلة القربى أحيانا ، أو الأصل الواحد أحيانا أخرى . هذا من جهة، ومن جهة ثانية أنه يتفق وطبيعة أهل الحجاز بوجه عام، فهم لا يقبلون بشكل كبير الا على عملين أساسيين هما التجارة ، والرعى ، والتجارة هى أهم ما يشغل تفكير غالبية السكان فى مدينة من مدن الحجاز بما فيهم العلماء أو الطبقة المثقفة ، فكل فرد يعمل جاهدا على أن يستغل أى قدر من رأس المال الذى يجمعه فى التجارة لما فيها من مزايا ، لدرجة أنه قد يعيش على الكفاف لكى يحقق هدفه هذا[١٧٧] .

وجدير بالذكر أن كتب الفقهاء المعاصرين وضعت لعمليات البيع والشراء التى تجرى بين التجار فى أسواق جدة وغيرها من مدن السلطنة المملوكية شروطا تسير على منوالها ، من ذلك ما جاء فى أحد المصادر المعاصرة من قول : « فينبغى للتاجر ألا يعامل فى البيع أربعة ، الصبى والمجنون والعبد والأعمى»، فبيع هؤلاء والتعامل معهم باطل فى نظر الاسلام[١٧٨] . كما نجد فى مصادر ذلك العصر الكثير من النصائح التى تم توجيهها للتجار للمحافظة على رءوس أموالهم ، وتكوين الثروة ، نذكر على سبيل المثال ما جاء فى أحد المصادر من نصيحة بأن يكون دخل التاجر أكثر من انفاقه ، فمن زاد انفاقه على دخله ذهب رأس ماله ، وألا يكون انفاقه مساويا لدخله ، والا فلن يبق معه فضل لنوائب الدهر ، وألا يدخل فى مشاريع تكون الريبة والشك فيها ظاهرة ، وألا يورط نفسه فى بضاعة يكون اقبال العامة عليها ضعيفا ، كبيع الجواهر مثلا ، مما لا يحتاج اليه الا الملوك وأهل الثروات العظيمة ، وأخيرا أن يكون التاجر سريعا فى بيع تجارته بطيئا فى بيع عقاره فهو أدعى لحفظ المال . ومما لا شك فيه أن أمثال النصائح كانت مستمدة من واقع التجربة العملية التى تتضح من قول تاجر لابنه « يا بنى ، اعلم أن رأس المال خير من الربح ، وبحفظ الأصول تثمر الفروع ، وكل من خسر فى طلب الربح كان اجتهاده، وأكثر ما يستهلك الأموال الطمع ومسامرة الأوانى..»[١٧٩] .

وأخيرا يجب أن نذكر أن نظام الاحتكار التجارى الذى اتبعه سلاطين المماليك الجراكسة ، والذى يفسر حاجة هؤلاء السلاطين الى المال لكثرة الحملات

الحربيةمن جانب ، ولتعويض الخسائر المادية التى حلت بهم بسبب اختلال النظام الاقطاعى فى مصر والشام من جانب آخر ، هذا النظام كان له تأثيره فى أحوال جدة الاقتصادية،حيث بلغت سياسة الاحتكار هذه أشدهافىعهد السلطان الأشرف برسباى[١٨٠] ثم أتى بعده من السلاطين • ومع أن هؤلاء السلاطين كانوا يرسلون مندوبيهم الى جدة للشراء من التجار القادمين اليها فى الموسم الهندى بوجه خاص،الا أن درجة الخطورة تتضح من أن السلاطين كانوا يحرمون على التجار الذين يفدون اليها شراء متجر الشرق وبخاصة التوابل الا بعد أن أن يكتفى السلطان ، وبهذا حرموا كثيرا من التجار وبخاصة من الكارمية من الأرباح التى كانوا يجنونها من تصدير سلعهم الى الغرب الأوربى بعد أن احتكر السلاطين عملية تصدير سلع الشرق الأقصى وبخاصة من التوابل[١٨١] •

علاقات جدة بأهم المراكز التجارية الدولية ، طرق التجارة وأهم السلع :

أولا : الطرق البرية :

ارتبطت جدة بعدد كبير من الطرق البرية التى تصلها شبه الجزيرة العربية أو بخارجها مثل العراق وبلاد الشام ومصر • والجدير بالذكر أن هذه الطرق كانت معروفة ومسلوكة منذ أزمان قديمة ، وانتقل عبرها التجار والحجاج • ويعتبر الطريق البرى بين مكة المركرمة من أهم الطرق وأكثرها صعوبة ، ولم تكن أهمية هذا الطريق نابعة من كثرة من يترددون عليه من الحجاج فقط ، بل أيضا لأن كثير من التجار كانوا يسلكونه عقب انتهاء مواسم الحج محملين بكثير من السلع التى كانت ترد الى مكة فى هذه المواسم ، ولنأخذ مثالا واحدا على كثرة السلع التى تمر بهذا الطريق مما يرويه لنا مؤرخ مكة ابن فهد فى ذكره لحوادث سنة ٨٠٠هـ/١٣٩٧م حيث يقول : « فيها — فى المحرم — سافر التجار من مكة الى جدة فى قافلتين ، كل قافلة أزيد من ألف جمل ،وصحبهم السيد حسن — أمير — مكة وحاطهم بالحراسة حتى ركبوا الى بلادهم » ، كما يؤكد على أن أمير مكة كان يعنى عناية تامة بتأمين هذا الطريق ، عن طريق تخصيص عدد من الخيالة لهذا الغرض ، الى جانب قامه بارضاء الأشراف ومصالحتهم بمبالغ كبيرة حتى لا يتعرضوا لقوافل التجار[١٨٣]• هذا عن بعض القوافل التى كانت تخرج من مكة فى طريقها الى جدة •

أما القوافل التى كانت تخرج من جدة قاصدة مكة المكرمة ، فقد كانت بمثابة قوافل يومية وبخاصة فى الأربعة أشهر التى تسبق موسم الحج من كل عام ، وفى الموسم الهندى ، أى موسم وصول متاجر الشرق الأقصى وهى التى سبق أن أشرنا اليها • وفى الأيام العادية كانت تخرج القوافل منجدة فى طريقها الى مكة لعدة مرات فى الاسبوع ، حيث تخرج من جدة ومعها البضائع والمؤن المختلفة عندما تصل أعداد كبيرة من السفن الى جدة ، وعندئذ تخرج مثل هذه القوافل فى الليل من عند باب مكة أحد أبواب مدينة جدة القديمة بعد غروب الشمس ، وغالبا ما كانت تقطع المسافة فى ليلتين ، وتستريح الجمال فى منتصف الطريق بالنهار تفاديا لحرارة الجو الشديدة • والى جانب قوافل الجمال هذه كانت هناك قوافل صغيرة للحمير تخرج من جدة يوميا ، وتبدأ رحلتها من جدة ليلا وعادة ما كانت تستغرق رحلتها الى مكة المكرمة ما بين خمسة عشر أو ستة عشر ساعة ، حيث تصل مكة المكرمة ضحوة اليوم التالى مباشرة(١٨٣) •

وهناك طريق برى آخر كان يربط بين جدة والمدينة المنورة تقطعه القوافل ، الا أن الحركة فيه كانت أقل منها على طريق جدة/مكة ، فضلا عن قلة أعداد القوافل التى تسير فيه بالنسبة لطريق مكة • والغالب على القوافل التى تسير فيه تلك القوافل التى تخرج من جدة لزيارة المدينة المنورة ومسجد الرسول صلى الله عليه وسلم ، والتى لم تكن مرتبطة بمواعيد محددة ، حيث يشارك أهل جدة بكل فئاتهم فيها • الى جانب بعض القوافل الكبيرة التى تخرج من جدة متجهة الى المدينة المنورة محملة ببضائع الشرق الأقصى القادمة من الهند وغيرها ، وغالبا ما يصحب مثل هذه القوافل أعداد كبيرة من الحجاج الراغبين فى زيارة المسجد النبوى الشريف قبل أداء مناسك الحج • والقافلة من هذا النوع عادة ما كانت تتكون من ما بين أربعين الى مائة جمل يقودها أفراد من قبيلة حرب ، فضلا عن أنه كانت هناك قوافل أخرى تخرج من ميناء ينبع بعد أن ترسل اليه البضائع من جدة بطريق البحر ، ثم تتجه من ينبع الى المدينة المنورة(١٨٤) • وهنا تجدر الاشارة الى أن المدينة المنورة كانت تربطها بوادى الرافدين طريق برية ، امتد من المدينة المنورة فى اتجاه شمال شرقى مارا بعدد من الأماكن أهمها تيماء ثم دومة الجندل «الجدف حاليا» ، ثم الى وادى الرافدين،وهى من الطرق التجارية الهامة القديمة •(١٨٥) •

أما بلاد السرين التى كانت تقع الى الجنوب الشرقى من مدينة جدة على ساحل البحر الأحمر ، فتشير بعض المصادر الى أنها ارتبطت بجدة عن طريق برى قدرت المسافة بينهما بثلاثة مراحل ، وعبر هذا الطريق كانت تصل جدة منتجات هذه البلاد وبخاصة من الحبوب والفواكه والخضروات ، الى جانب الزبيب الأحمر والأسود، والكثير من اللوز، والسمن والعسل وقصب السكر(١٨٦) .

وعن عمان وحضرموت فقد اتصلت بهما جدة عن طريق مكة بطريق برى كان يمر على الساحل ، فبعد أن تصل السفن التجارية المحملة بالسلع الى جدة تحملها القوافل التى تسير بحذاء الساحل حتى تصل الى حضرموت ثم الى عمان(١٨٧) . وهذا الطريق هو الذى كان يسلكه الحجاج أيضا فى ذهابهم الى مكة المكرمة وعودتهم ، وهو الذى اشتهر فى المصادر المعاصرة باسم طريق حضرموت(١٨٨) . وعبر هذا الطريق كانت متاجر هذه البلاد تصل الى جدة ، فمن حضرموت كنت تصلها القرفة التى يتم تصديرها الى غرب أوربا ، ومن ظفار كذلك ، الى جنب اللوز ، والفلفل الأحمر ، واللؤلؤ ، والأحجار الثمينة ، ، والكراوية(١٨٩) . ومما تجب الاشارة اليه أن هذا الطريق كما يمثل جزءا من الطريق التجارى البرى القديم الذى عرف باسم طريق الطيوب ، والذى كان يبدأ من قتبان وحضرموت الى بلاد اليمن ، ثم يسير محاذيا لساحل البحر الأحمر (١٩٠) .

كذلك اتصلت جدة باقليم البحرين عبر مكة التى كانت تعتبر محطة هامة تتفرع عندها الطرق التجارية ، ارتبطت بطريق برى ، يبدأ من مكة الى نجد ومنها يتجه الى البحرين ، وتشير بعض المصادر الى أن المسافة بين اليمامة والبحرين كانت تقطعها القوافل عادة فى مسيرة عشرة أيام ، وهذا الطريق كان يسلكه التجار والحجاج باستمرار ، وهو من أقدم الطرق التى ربطت بين شرق شبه الجزيرة العربية وغربها ، وربما تم جلب الفوط الجميلة التى كان يتم صنعها فى الاحساء الى جدة عبر هذا الطريق ، وكذلك البرود القطرية ، والثياب البحرينية الشهيرة ، فضلا عن أن جدة كانت ترسل لسكان هذه المناطق الكثير من السلع التى تصلها من مصر وبلاد الشام وغيرها وأهمها السلع الغذائية وبعض المنسوجات القطنية والحريرية والصوفية وغيرها(١٩١) .

كما كانت علاقة جدة باليمن وثيقة لقرب المسافة بينهما من جهة ، ومن جهة ثانية لما تميز به اليمن فى ذلك العصر من منتجات زراعية وصناعية فاقت

جميع أقاليم شبه الجزيرة العربية ، فمن الفواكه تشير بعض المصادر الى عنب اليمن ذى الأشكال المختلفة والمتعددة ، وكذلك الرمان ، والسفرجل ، والمشمش والتفاح ، والخوخ ، والكمثرى ، والجوز واللوز وغير ذلك[١٩٢] ومن النباتات الطبيعية التى تستخدم فى صناعة الأدوية والأصباغ ، وكذلك التوابل والأفادية ، مما كان ينقل الى الخارج • ويشير المقدسى الى كثيرة خيرات اليمن وتجاراته فى قوله : « واليمن معدن العصائب والعقيق والأدم والرقيق •• يخرج آلات الصيادلة والعطر كله حتى المسك والزعفران والبقم والساج والسأسم والعاج واللؤلؤ والديباج واليواقيت والأبنوس والنارجيل والقند والكندر وغير ذلك ••»[١٩٣] كما اشتهرت اليمن بانتاج العسل الفاخر الجامد الذى لا يقطع الا بالسكين ، وكان يصل منه مكة وجدة فى أوانى تسمى القصب، واشتهرت نجران بسكرها ، والذى كان يصنع على شكل قوالب مختلفة الاحجام[١٩٤] • كذلك اشتهرت اليمن ببعض الصناعات المعدنية ، مثل السيوف والحلى اليمانية ، الى جانب بعض أنواع الثياب الفاخرة ، والتى كانت تصدر لكثير من الأماكن لجودتها ، وحصلت جدة على نصيب وافر منها[١٩٥] •

هذا الى جانب مركز اليمن التجارى الهام ، وموقعها من الجزيرة العربية بوجه عام ولجدة بوجه خاص ، حيث كانت مقصد كثير من التجار ، وقام أهلها بحمل منتجات بلادهم الى جدة التى أصبحت فى العصر المملوكى من أهم مراكز توزيع هذه المنتجات فى شبه الجزيرة العربية[١٩٦] • بل وتشير بعض المصادر المعاصرة الى أن الكثير من تجار اليمن اتخذوا جدة مركزا لهم ، ومنها سافروا للتجارة الى مكة المكرمة ، ومصر ، وبلاد الشام وغيرها[١٩٧] • ليس هذا فحسب ، بل كانت بلاد اليمن نفسها على جانب كبير من الأهمية لحصول جدة على منتجات أفريقيا مثل الصمغ ، والعاج ، والرقيق ، والتبر ، ذلك كان لجدة نفس الأهمية لبلاد اليمن للحصول منها على منتجات المغرب العربى ومصر وبلاد الشام ، بل والغرب الأوربى كذلك[١٩٨] • لذا فقد ارتبطت جدة بعدن التى أهم المراكز التجارية فى اليمن بطريق برى عبر مكة المكرمة ، هذا الطريق كان مأمونا وتنتقل من خلاله السلع الخفيفة ، أما السلع الثقيلة فتأخذ الطريق البحرى الى جدة ، وقد اشتهر هذا الطريق باسم طريق تهامة والذى تبلغ مسافته ٤٦٧ ميلا[١٩٩] ولميناء عدن أهمية خاصة بالنسبة لميناء جدة فهى المدخل

الجنوبى للبحر الأحمر ، لذا أعتبرت من أكبر محطات تبادل المتاجر بين الشرق والغرب ، فضلا عن أنه فى عدن وقبل أن تحل جدة محلها فى النجارة العالمية هذه ، كانت ترسو علاوة على سفن الصين والهند سفن الحبشة والخليج الفارسى وشرق أفريقيا ، ويتوافر فى أسواقها الحديد والسكر والنحاس والزئبق والمرجان والملابس الصوفية والقطنية والحريرية ، والعقاقير والتوابل والأرز وجوز الهند واللبان وخشب السند وعود الند والراوند والمسك ، وكلها كانت من السلع الضرورية فى تجارة جدة الداخلية والخارجية(٢٠٠) • وتشير بعض المصادر الى وجود طريق برى آخر يربط بين جدة وصعدة فى اليمن ، « ويبلغ السائر من جدة جنوبا على شاطىء البحر اليمن ومدينة صعدة، والمسافة الى هناك خمسون فرسخا » وان كانت فى الحقيقة أكبر من ذلك(٢٠١) •

كما ارتبطت جدة بالعراق بعدد من الطرق البرية القديمة عبر مكة المكرمة من أشهرها الطريق الذى يبدأ من مكة الى الكوفة ثم منها الى بغداد(٢٠٢) • وهناك طريق آخر يتجه من مكة الى العراق ينتهى عند مدينة البصرة ، ويلتقى بطريق الكوفة السابق عند معدن النقرة • هذا الطريق من الطرق البرية القديمة وكان تجار العراق يجلبون عبر هذه الطريق الخيول والجلود وغيرها من منتجات العراق فى مواسم الحج ، ويعودون بالجلود المدبوغة ، والعقيق من اليمن ، والمنسوجات اليمنية ، والعطور والبخور ، واللبان ، والمر ، وعادة ما تنشط الحركة على هذه الطرق فى موسم الحج من كل عام(٢٠٣) • وعبر طريق البصرة السابق ذكره كان تجار العراق يحملون فى طريق عودتهم كثير من السلع الواردة الى جدة من سواحل أفريقيا الشرقية ، مثل الصبر ، وبعض العقاقير ، والرقيق الأسود من الحبشة والسودان ، وكذلك العاج ، والعنبر الداكن ، والتوابل ، والتبر(٢٠٤) • ويبدو أن معظم هذه البضائع كان يجلبها تجار عراقيون يسافرون الى هذه البلاد عن طريق جدة ، وبخاصة من أهل البصرة ، والذن أشتهروا بحبهم للأسفار البعيدة(٢٠٥) • ويوضح بعض المعاصرين أهمية الطرق البرية التى كانت تربط الحجاز بالعراق بوجه عام ، وأثر حركة التبادل التجارى على أهل مكة وجدة بوجه خاص من قولهم عن حجاج العراق ومعظمهم من التجار كذلك « وحاج العراق أبونا نكسب منه الذهب ••• »(٢٠٦) وهنا تنبغى الاشارة الى أن هذه الطرق طوال العصر

العباسى وعصر سلاطين المماليك كل عناية ورعاية ، كان من أبرزها تحديد المسافات بين كل محلة وأخرى بالأميال ، وانشاء كثير من الخانات على طول هذه الطريق لينزل بها التجار بدوابهم ومتاجرهم ، فضلا عن حفر كثير من الآبار لتوفر للمسافرين على هذه الطرق حاجتهم من المياه العذبة لهم ولدوابهم(٢٠٧) .

ومن الطرق البرية التى ربطت جدة بخارج شبه الجزيرة العربية أيضا ، الطريق البرى الذى يبدأ من مكة الى القاهرة ، هذا الطريق هو طريق الحاج المصرى ،والذى كان يبدأ من مكة الى رابغ ثم الى بدر ، ومنها الى الدهناء ، ثم الى ينبع ، فالمغيرة ، فالحوراء ، فالوجه ، فعيون القصب ثم الى عقبة أيلة على الطرف الشرقى للبحر الأحمر ، وأيلة رغم صغرها كمدينة وميناء فى نفس الوقت قد خدمت التجارة فترة طويلة ، وسكنها كثير من التجار ، وعندما يتفرع الطريق الى فرعين أحدهما يتجه شمالا الى بلاد الشام ويمر شرقى الأردن ثم الى دمشق مباشرة ، والتى تعتبر مركزا لتجميع العديد من طرق القوافل الداخلية فى بلاد الشام ، فعند دمشق تلتقى وعندها تتفرق ، وتشير بعض المصادر أن تجار دمشق كانوا يحملون الكثير من متاجر الشرق الأقصى وبخاصة التوابل ، وأنهم كانوا يأتون بكثير من منتجات بلاد الشام والغرب الأوربى وآسيا الصغرى الى بلاد الحجاز عبر هذا الطريق(٢٠٨) واننا نرجح أن يكون هذا الطريق عبارة عن جزء من الطريق البرى القديم،والذى كان يربط جنوب شبه الجزيرة العربية ببلاد الشام ، والذى كان يتفرع عند البتراء الى فرعين أحدهما الى تدمر والآخر الى غزة(٢٠٩) أما الفرع الثانى الذى كان يتفرع عند أيلة ويتجه غربا عبر صحراء سيناء ليصل الى القاهرة ، والرحلة عبر طريق الحاج المصرى هذا من مكة الى القاهرة كانت تستغرق حوالى أربعين يوما(٢١٠) تنبغى الاشارة الى أن هذا الطريق بفرعيه الى بلاد الشام والقاهرة قد لقى عناية فائقة من قبل السلطات المملوكية ، رغم ما تكلفته من جهد ومال وحراسة التجار والقوافل التجارية من عبث قطاع الطرق وبخاصة بعد أن تمكنت من طرد البقايا الصليبية ببلاد الشام كما شهد هذا الطريق ازدهارا ملحوظا منذ النصف الثانى للقرن السابع الهجرى ، الثالث عشر للميلاد بعد غزو المغول لغرب آسيا وتعطل الطريق التجارى البرى من وسط آسيا ، فضلا عن بعد هذا الطريق عن ميادين الحرب بين المغول والمماليك ، وفيما بعد بين العثمانيين

الأوربيين ، ثم بينهم وبين التركمان وامارات آسيا الصغرى ، وبينهم وبين المماليك ثم الصفويين فى مطلع القرن العاشر الهجرى ، السادس عشر للميلاد (٢١١) وعادة ما كانت السلع الخفيفة هى التى تنقل عبر هذا الطريق ، أما السلع الثقيلة فتأخذ الطريق البحرى من جدة الى الطور ، ومنها برا بطرق القوافل الى القاهرة ، أو الى دمشق (٢١٢) •

ثانيـا : الطرق البحـرية :

كانت لجدة فى العصر المملوكى أهمية كبيرة فى النشاط التجارى ، اذ أنها لم تكن مرفأ مكة المكرمة التجارى فحسب ، بل مرفأ الحجاز بأسره ، فضلا عن أنها غدت الميناء الأول لسلطنة المماليك على البحر الأحمر بعد أن استطاعت أن تحل محل عدن فى التجارة العالمية (٢١٣) وبذلك أصبحت نقطة تجمع لكثير من الطرق الملاحية البحرية التى ربطتها بالعديد من المراكز التجارية الهامة ، والتى كان من أهمها موانىء مصر البحرية المطلة على البحر الأحمر ، وموانىء الساحل الشرقى لأفريقيا ، وموانىء الهند والصين وغيرها •

أما عن الموانىء المصرية التى كانت لها علاقات مع جدة ، وارتبطت معها بخطوط ملاحية فى ذلك العصر ، فيأتى ميناء عيذاب فى مقدمتها • ونقدر المسافة بين عيذاب وجدة بحوالى ٦٩ ميلا حسبما تشير بعض المراجع الحديثة (٢١٤) وان كان الرحالة المغربى التجيبى الذى زارها عام ٦٩٦هـ/١٢٩٦م يقول : « وبين عيذاب المذكورة وجدة المحروسة نحو من مائتى ميل فيما ذكر لنا أهل المعرفة بهذا الشأن ، ويقطع المسافرون هذه المسافة فى الغالب فى يومين وليلة، أو ما يقرب من ذلك ••• » (٢١٥) وكانت عيذاب مركز تجمع حجاج مصر والمغرب ووسط وغرب أفريقيا ، الذين يصلون الى قوص بعد رحلة نيلية من القاهرة تستغرق ثمانية عشر يوما ، ثم يتوجهون منها الى عيذاب بالقوافل ، ومن عيذاب يستقلون الجلاب ، وهى مراكب مخصصة لنقل الحجاج الى جدة • وقد ظل هؤلاء الحجاج يتوجهون الى الحجاز عن طريق عيذاب الى أن بطل استعمال هذا الطريق ٧٦٦هـ/١٣٦٥ م ، حيث كثرت بها عصابات قطاع الطرق ، فقلت قيمتها وشهرتها الى أن اندثرت فى القرن العاشر الهجرى ، السادس عشر للميلاد ، وتحول عنها طريق الحجاج والقوافل الى السويس ، فالعقبة فالساحل

الشرقى للبحر الأحمر فجدة[٢١٦] . ومما يؤسف له حقا أن المصادر التى بين أيدينا لم تشر صراحة الى المبادلات التجارية بين عيذاب وجدة ، الا أننا نرجح أن يكون هؤلاء الحجاج ومعظمهم من التجار كانوا ينقلون الى جدة منتجات بلادهم ، وبخاصة حجاج المغرب وبلاد التكرور ، والذين كانت بلادهم أرخص أسعارا من الحجاز ومصر ، مما شجع الكثير منهم على جلب الكثير من السلع المختلفة لبيعها وتحقيق هدفين فى وقت واحد ، وهما الحصول على أرباح عالية وأداء فريضة الحج[٢١٧] . كما لا نستبعد أن تكون عيذاب قد صدرت الى جدة كثيرا من منتجات الساحل الافريقى ، مثل الذهب والنحاس والرقيق والعاج ، والذى كان يلقى رواجا كبيرا فى بلاد الهند المنتجة للعاج ، لأنه كان يتفوق على العاج الهندى ، ويتفق مع ذوق ومتطلبات المواطن الهندى فى ذلك العصر[٢١٨] .

كما أننا نرجح أن تكون عيذاب قد صدرت الى جدة — وقبل أن تتدهور — الكثير من اللؤلؤ لانها حسبما تذكر بعض المصادر كانت من المناطق الهامة لاستخراجه . « وفى بحر عيذاب مغاص على اللؤلؤ فى جزائر على مقربة منها ، وأوان الغوص عليه فى هذا التاريخ المقيدة فيه هذه الأحرف ، وهو شهر يونيو العجمى والشهر الذى يتلوه ، ويستخرج منه جوهر نفيس ، له قيمة سنية ، يذهب الغائصون عليه الى تلك الجزائر فى الزوارق يقيمون فيها الايام فيعودون بما قسم الله لكل منهم حظه من الرزق »[٢١٩] وربما تم تصدير الزمرد من عيذاب الى جدة والذى ذكر عنه فى المصادر المعاصرة أنه « يحمل منها الى سائر الدنيا ، ومعادنه فى جبال هناك ، وزمردها أحسن أصناف الزمرد الأخضر السلقى الكثير المائية ، يسقى المسموم منه فيبرأ »[٢٢٠] . كما كانت عيذاب تصدر الغلال المصرية الى ميناء جدة ثم منها الى مكة المكرمة وبقية بلاد الحجاز ، كذلك كانت جمال البجة المشهورة تنقل من عيذاب الى جدة بواسطة السفن ، استجابة لاحتياجات امارة مكة ، حيث تساق اليها مباشرة بمجرد وصولها الى ميناء جدة ، رغم أن مخاليف مكة تشتهر بتربية الابل ، وتملك ثروة هائلة منها ،الا أننا نرى أنها تستورد جمال البجة عن طريق عيذاب ، والظاهر أن جمال البجة هذه كانت تصدر الى مكة بقصد الذبح فقط تلبية لحاجة سوقها أيام موسم الحج[٢٢١] .

كما ارتبطت جدة بالسويس بطريق ملاحى يبلغ طوله ٧٩٩ ميلا ، ومن

المعروف أن السويس قد حلت محل القلزم فى تجارة البحر الأحمر منذ القرن السدس الهجرى ، الثانى عشر للميلاد ، وفى العصر المملوكى كانت تصل السويس سفن التجارة الصغيرة من جدة محملة بالتوابل والعطور والعقاقير والأحجاز الكريمة والعنبر والمسك ، ثم تحمل على ظهور الجمال عبر الصحراء الى القاهرة ، ثم بالنيل الى الاسكندرية حيث تصدر الى الغرب الأوربى(٢٢٢) وتشير بعض المصادر المعاصرة الى أن السفن كانت تقطع المسافة بين جدة والسويس فى سبعة أيام(٢٢٣) . كما تشير بعض المراجع الى أنه منذ القرن التاسع الهجرى ، الخامس عشر للميلاد كانت السويس أهم موانىء مصر التى يخرج منها الحجاج قاصدين جدة ، وبخاصة حجاج مصر وشمال أفريقيا أو المغاربة ، ومعهم منتجات بلادهم ، واستمر هذا الوضع الى قرب نهاية العصر المملوكى عندما تم تحويل السويس الى ميناء مصر الحربى الأول على البحر الأحمر ، وبنيت به ترسانات السفن الحربية والتجارية القاصدة الى المياه الشرقية ، لمواجهة الخطر البرتغالى الذى أخذ يهدد تجارة سلطنة المماليك مع الشرق الأقصى(٢٢٤) وقبل هذا التحول كان ميناء السويس من أهم الموانى المصرية التى يتم عن طريقها تصدير كميات كبيرة من الغلال الى الحجاز وبخاصة من القمح، اذ جرت عادة سلاطين وأمراء المماليك فى مصر على ارسال الميرة الى مكة باستمرار عن طريق جدة ، فضلا عن ارسال مقادير كبيرة من الأقوات كلما أصاب الحجاز قحط وندر به الطعام ، ومما يجدر ذكره أن الكميات الكبيرة من الغلال التى كان يتم تصديرها الى جدة كانت تترك أحيانا آثار واضحة على الاقتصاد المصرى ، من ذلك ما تذكره المصادر المعاصرة عام ٨٢٢هـ/١٤١٩م من أن أحد الأسباب الأساسية لغلاء أسعار الغلال فى مصر فى شهر شعبان من هذه السنة ، كان بسبب « كثرة ما حمل من الغلال الى الحجاز ، لشدة الغلاء به »(٢٢٥) بل ظل اعتماد الحجاز كبيرا طوال العصر المملوكى على ما يرد من مصر من مواد غذائية ، ويؤكد هذه الحقيقة الرحالة الايطالى لودوفيكو دى فرتيما الذى زار الحجاز عام ٩١٠هـ/١٥٠٣م ، عندما ذكر أن الجزء الأكبر من المواد الغذائية التى يستهلكها أهل مكة ، كان يؤتى بها من مصر بحرا(٢٢٦) . أما عن صادرات جدة الى السويس ، فيمكننا القول أنها بالاضافة الى سلع الشرق الأقصى القادمة من الهند والصين وغيرها ، فان جدة كانت تصدر اليها نفس الحاصلات

التى اعتادت القوافل حملها من حاصلات بلاد العرب ، كالزيت والبنح والقرظ ، والصوف والوبر والشعر والجلد المدبوغ ، كما كانت تصدر الى مصر الخيول وخشب القس ، والبلسم ، واللبان[٣٢٧] . كما كنت تستورد أيضا زيت السيرج من مصر وهو الذى كان يستخدم فى الاضاة فى ذلك العصر ، وكان يتم استخراجه من السمسم الذى تكثر زراعته فى مصر[٣٢٨] ومن مصر أيضا كان يصلها نوع من القاشانى لكسوة جدران المنازل من الداخل ، ومآذن المساجد ، ومعظمه من لون موحد وعليه كتابات بيضاء على أرضية زرقاء ، وعجينة هشة ورسوم متقنة[٣٢٩] الى جانب الملابس الكتانية ، والتى شاع استعمالها بين الطبقات الوسطى والفقيرة ، ويتقنه النساجون فى مصر حتى يبدو وكأنه الحرير ، ويباع بأسعار معقولة[٣٣٠] بالاضافة الى الدقيق والعليق والأرز والتى يكثر عليهم الطلب فى مواسم الحج والعمرة من كل عام[٣٣١] .

ولما صارت السويس مرفأ مصر الحربى على البحر الأحمر ، استقر رأى السلطات المملوكية على أن يحل ميناء الطور محلها فى التجارة . والواقع أن ميناء الطور هذا لم يكن غريبا عن التجار اذ كانوا يطرقونه كثيرا متجنبين موانىء الساحل الغربى للبحر الأحمر بسبب ما بها من شعاب مرجانية وصخور تتحطم عليها السفن ، لهذا لم يكن الميناء جديدا يوم تقرر جعله ميناء مصر التجارى على البحر الأحمر ، بل صار بمرور الزمن ميناء التجار المفضل . وميناء الطور كان يقع جنوب غربى شبه جزيرة سيناء بين فرعى بحر القلزم « البحر الأحمر » ، وتحيط به عدة قرى بالقرب من جبل فاران « فيران » ، وتميز هذا الميناء بوجود مستودعات ضخمة وجمرك خاص بواردات الهند القادمة اليه عن طريق جدة ، والتى كانت تنقل الى القاهرة بواسطة القوافل ، وكانت السفن تصل من جدة وعليها التجرة الهندية مرتين فى العام ، وفى كل مرة ينشط العمل فى ميناء الطور[٣٣٢] . ويوضح لنا الرحالة الألمانى فيلكس فابرى أثناء رحلته التى قام بها لزيارة سانت كاترين بسيناء قادما اليها من القدس عام ١٤٨٣م ، أن سفن الهند كانت تفرغ حمولتها فى جدة فى الموسم الهندى الشهير ، ثم تحملها سفن صغيرة الى ميناء الطور ، حيث تنقلها القوافل ذات المواعيد الثابتة والمحددة الى القاهرة ، ثم تتجه بالنيل الى الاسكندرية حيث يكون فى انتظارها أبناء المدن التجارية الأجانب من

ايطاليا وفرنسا وأسبانيا المسيحية وغيرها ، كما يرتب زوار الاماكن المقدسة المسيحية فى القدس وسيناء من أبناء الغرب الأوربى مواعيد رحيلهم الى القاهرة مع مواعيد تحرك القوافل من الطور ، لضمان العودة الى أوربا على سفن البندقية ، وأن السلطات المملوكية كانت تبذل جهدا كبيرا لحراسة التجار والقوافل والمسافرين عبر هذا الطريق(٢٣٣) • وظلت الطور على هذا النحو من الأهمية والازدهار حتى نهاية العصر المملوكى ، عندما انتشر الأسطول البرتغالى فى مياه الهند ، وسد مدخل البحر الأحمر بالاستيلاء على جزيرة سوقطرى ، فبدأت الطور تنهار منذ السنوات الأولى للقرن العاشر الهجرى ، السادس عشر للميلاد ، الى أن أصبحت قرية مهجورة ، وندرت القوافل الواردة اليها برا وبحرا(٢٣٤) •

وينبغى أن نشير الى أن الطور كانت تصدر الى جدة كثيرا من المواد الغذائية والتى تحتاج اليها المدينة ، بل ومدن الحجاز الأخرى ، وأهمها القمح والدقيق والأرز والسكر ، الى جانب سلع الغرب الأوربى المتجهة الى الشرق الأقصى لتقوم جدة بدورها بتصديرها الى الهند والصين وغيرها من بلدان الشرق الأقصى(٢٣٥) والتى كان من أهمها الجلود والفراء ، والجوارى من شرق أوربا ، والعسل ، والأصواف والأقمشة الصوفية ، وبعض الأدوات المنزلية والأخشاب ، والجوخ وغيرها من السلع(٢٣٦) • ومن المرجح أن تكون قائمة الصادرات اشتملت على كثير من المنتجات المصرية ، والتى كانت تلقى اقبالا ورواجا فى أسواق اليمن وبلدان الشرق الأقصى كذلك فى ذلك العصر •

ومن الخطوط الملاحية التى كانت تربط جدة بالساحل الغربى للبحر الأحمر ذلك الخط الملاحى الذى ربطها بالسودان وأهم موانيه فى ذلك العصر وهى سواكن ، والتى تبعد عن جدة حوالى مائتى ميل ، وعادة ما كانت ترفأ اليها سفن جدة المتجهة من عيذاب فى طريقها الى جدة(٢٣٧) • وينبغى أن نشير الى أنه منذ أواخر القرن السابع الهجرى ، الثالث عشر للميلاد كانت علاقة الحجاز بوجه عام مع الساحل الشرقى لافريقيا متينة جدا ، اذ يذكر الرحالة المغربى ابن بطوطه أن سلطان جزيرة سواكن حين وصوله اليها عام ٧٣٣هـ/١٣٣٢م ، كان هو الشريف زيد بن أبى نمى أحد أفراد الأسرة الحاكمة فى مكة فى ذلك الحين(٢٣٨) • وان كان يتم تصدير الجمال من جدة الى سواكن وكذلك الخيول ،

وأن نسبة لا يستهان بها من حاجة أهل مكة وجدة من الحبوب كان يتم جلبها من بلاد السودان عن طريق سواكن « وحبوبهم الجرجور وهو نوع من الذرة كبير الحب يجلب منها أيضا الى مكة المكرمة » ، وأن عددا كبيرا من تجار مكة قد دأب على السفر الى جزيرة سواكن للتجارة ، وهؤلاء التجار كانوا يجلبون من سواكن الرقيق ، وريش النعام ، والعاج ، والذهب ، والمر والقرفة والبخور ، كما كانوا يجلبون الجمل البشارية الى جدة حيث تباع فيها بأسعار مرتفعة جدا والتى ربما تم استخدامها فى أغراض أخرى غير الذبح ، مثل سباق الهجن وفى حمل الركاب والمسافرين من جدة الى مكة وغيرها من مدن الحجاز[٢٣٩] . وقد كان لما يتم جلبه من سواكن من الذرة ، أثره الواضح فى تخفيف الأزمات الاقتصادية التى كانت تعانيها بلاد الحجاز بسبب القحط وعدم سقوط الامطار ، مثال ذلك ما يشير اليه مؤرخ مكة تقى الدين الفاسى وهو معاصر ، من أن الغلاء الذى وقع فى أسعار الحبوب وبخاصة فى الذرة عام ٨٠٥هـ/١٤٠٢م لم ينته الا بوصول الجلاب من سواكن وعليها مقادير كبيرة من الذرة[٢٤٠] كذلك ساهمت سواكن فى نقل تجارة بلاد الحبشة والنوبة الى بلاد الحجاز ، حيث كانت تصلها بحرا سفن الحبشة وبرا قوافل النوبة محملة بالرقيق والشمع والعسل[٢٤١] كذلك كان يصل منها الى جدة وبلاد الحجاز بعض منتجات وسط أفريقيا والساحل الشرقى لافريقيا ، مثل الخرز والنحاس وبعض الاقمشة القطنية[٢٤٢] يضاف الى هذا أن سواكن كانت من أهم مصادر جدة للحصول على كثير من الاغنام وبخاصة قبل موسم الحج ، والتى تحمل الى مكة ليتم ذبحها ، كذلك كانت تصدر الى جدة أفضل أنواع القرب لحفظ المياه[٢٤٣] .

كما ارتبطت جدة بخط ملاحى مع بلاد الحبشة لقرب المسافة بينهما ، هذا من جهة ومن جهة أخرى أن أهالى زيلع بوجه خاص وهى أهم موانىء الحبشة ، اشتهروا بحبهم للتجارة ، فأقاموا الكثير من العلاقات الاقتصادية مع المراكز التجارية الهامة فى ذلك العصر ومنها جدة ، وصدروا اليها الثياب المنسوبة اليها الزيلعية التى لا نظير لها[٢٤٤] . كما كان تجار جدة والحجاز يسافرون بمراكبهم من جدة الى زيلع وبربرة ومعهم كثير من منتجات شبه الجزيرة العربية ، ومصر والشرق الاقصى ، وقد شجعهم على ذلك أن الطريق الى هذه البلاد كان من أكثر الطرق الملاحية قربا ، وأقلها خطورة من بعض الطرق الملاحية

الأخرى ، وأن التجارة فى البحر الاحمر كانت مستمرة طوال العـام ، ولم تكن مرتبطة بمواسم معينة للاتجار ، فضلا عن أن بلاد الحجاز كانت تعتمد الى حد كبير على ما يأتيها من حبوب بلاد الحبشة وبخاصة من الذرة والقمح والدخن والتى كانت تصلها عن طريق ميناء زيلع[٢٤٥] •

ومن الموانىء الهامة التى تقع داخل حدود تنزانيا الآن ميناء كلوة ، التى نالت شهرة كبيرة رغم حداثة عهدها ، حيث يرجع تاريخها الى القرن الرابع الهجرى ، العاشر للميلاد ، أو القرن الخامس الهجرى ، الحادى عشر للميلاد • الا أنها تحولت فى بداية القرن السادس الهجرى ، الثانى عشر للميلاد من سلسلة مستوطنات تجارية بسيطة الى أن أصبحت المركز التجارى الرئيسى على الساحل الأفريقى ، وقد استطاعت كلوة السيطرة على تجارة الذهب الذى كانت تحصل عليه بمبادلته بأقمشة مصنعة بها ، وأصبحت هى المركز الرئيسى لهذه التجارة فى أفريقيا ، وكانت سفالة المصدر الرئيسى للذهب فى كلوة[٢٤٦] كما يتضح ممـا ذكره الرحالة المغربى ابن بطوطة الذى زارها فى أعقاب زيارته لمقدشو عاصمة الصومال حاليا ، أن أحد العوامل الأساسية فى قيام علاقات متينة بينها وبين جدة وجود أسرة عربية حاكمة بها من الأشراف ، حيث كان يحكم كلوة عندما زارها أحد الأشراف ويدعى أبو المظفر حسين ، وكان كثير الغـزو على أرض الزنوج يغير عليهم ، ويأخذ الغنائم ، وأن أهم ما كان يتم تصديره منها الى جدة الرقيق والعاج والذهب[٢٤٧] كما أننا نرجح أن كلوة كانت تصدر الى جدة الكثير من المسابح الزجاجية ، حيث كانت صناعة المسابح من الأصداف البحرية من أبرز الصناعات فى كلوة ، بالاضافة الى الفضة واللؤلؤ والبخور والعطور[٢٤٨] • الى جانب منتجات القارة الأفريقية ، حيث كانت تنتهى عندها خطوط كثير من القوافل المتصلة بداخل القارة . خصوصا وأن منتجات أفريقيا كانت مطلوبة فى بلدان الشرق الأقصى مثل الهند والصين وسيلان وغيرها ، والتى كانت لها صلات قوية بجدة باعتبارها الميناء الاول لدولة سلاطين المماليك على البحـر الاحمر ، فضلا عن أن المسافة تبلغ الضعف لمن يرحل من الهند الى شرق أفريقيا، ثم الى البحر الاحمر بعكس من يرحل من الهند الى جدة مباشرة • وكانت هذه المنتجات تتمثل فى الذهب ، والحديد ، والعاج ، والرقيق ، وغير ذلك[٢٤٩] •

يضاف الى هذا أن جدة بحكم موقعها الجغرافى قد أتيح لها أن تصلها كثير من

أنواع المتاجر القادمة من الشرق الأقصـى ، ومن أوربا ، ومن شـبه الجزيرة العربية ، ومن مصر وبلاد المغرب ، وبلاد الشام وغيرها ، مما قد اتاح لها فرصة تصدير العديد من هذه السلع المختلفـة أو مبادلتها بانتاج بعض المنـاطق الأخرى ومنها كلوة[٢٥٠] وقد أكد هذه الحقيقة كثير من المصادر المعاصرة ، حيث جاء فيها أن أهل جدة « لهم مواسم قبل وقت الحج مشـهورة بالبركة تنفق فيها البضائع المجلوبة والأمتعة ، وليس بعد مكة من مدن الحجاز أكثر من أهلها مالا »[٢٥١] كما جاء فيها أيضا : « وهى فرصة لأهل مكة وبينهما أربعـون ميلا وهى مدينة كبيرة عامرة تجارتها كثيرة وأهلها مياسير ذوو أموال واسعة وأحوال حسنة ومرابح ظاهرة لها موسم قبل وقت الحجيج مشهور البركة تنفق فيـه البضائع المجلوبة والامتعة المنتجة والذخائر النفيسة .. »[٢٥٢] .

ومن المراكز التجارية الهامة التى ارتبطت بها جدة بخط ملاحى هام كانت مدينة عدن فى اليمن ، والتى حظيت بمالم تحظ به كثير من الموانى[٢٥٣] ذلك أن موقعها على مدخل خليج بربرة والذى أطلق عليها فيما بعد اسم خليج عدن ، كان يعتبر الحد الفاصل بين سير عابرات المحيط الضخمة المحملة بالتوابل ، والأعشاب الطبية،والحراير ، واللبان الجاوى،وصمغ اللك ، واخشاب الصندل، وغيرها من السلع ، والتى تخشى شعاب البحر الاحمـر المرجانية ، وسـفن البحر الاحمر الاصغر حجما والتى كانت تحمل البضائع المصرية والأوربية مثل النحاس ، والزئبق ، والصبغة الحمراء ، والمرجان ، والمنسـوجات الصـوفية والحريرية وغيرها ، وتلتقى هذه وتلك فى عدن لتبادل السلع وظلت عدن مجمع تجارات عالمى المحيط الهندى والبحر المتوسط ، الى أن حلت جدة محلها فى هذا المضمار منذ بداية النصف الثانى للقرن التاسـع الهجرى ، الخـامس عشر الميلادى[٢٥٤] وعلى هذا الاساس كان الطريق الملاحى الذى يربط بين جـدة وعدن واحدا من أهم الطرق التجارية ، فعن طريقه كانت تأتى سفن تجـار اليمن وكذلك سفن تجار الكارم بمتاجر الشرق الأقصى الى جدة ، وتعود محملة ببضائع بلاد الشام ومصر والمغرب الأوربى لتصريفها فى العديد من البلدان[٢٥٥] وهنا تنبغى الاشارة الى أن أهمية عدن التجارية كانت آخذة فى التدهـور ، وظهر ذلك بوضوح فى القرن التاسع الهجرى ، الخامس عشر للميلاد ، بسبب تعسف حكام عدن فى فرض الضرائب واستعمال القسوة مع التجارة[٢٥٦] وتدهور

أحوال الأمن فى بلاد اليمن بوجه عام وعدن بوجه خـاص ، وسـوء معـاملة السلطات اليمنية للتجار وأصحاب السفن ، فى نفس الوقت الذى كانت تسعى فيه دولة سلاطين المماليك لاحـلال جدة محـل عدن وجعلهـا أعظم مراسى الدنيا[٢٥٧] .

والى أن يتحقق ذلك لجدة كان لابد من قيام نوع من العلاقات بين جدة وعدن ، ذلك لأن عدن وكما قلنا كانت مدخل البحر الاحمر الجنوبى ، ومن أكبر محطات تبادل المتاجر والسلع بين الشرق الأقصى ومصر ، كما ظلت فترة طويلة لا يتعداها تجار الصين والهند الى البحر الاحمر ، بل تنقل سلعهم على سفن أخرى الى جدة ثم الى القلزم والسويس والطور . وترسو بعدن علاوة على ذلك سفن الحبشة والخليج العربى وشرق أفريقيا ، وتجار عدن كانوا يسافرون الى الشام ومصر وأثيوبيا والهند والصومال ، ومدن وموانى الخليج العربى[٢٥٨] كما أن اسهام جدة فى التجارة الدولية فى هذه الفترة فقد كان عن طريق عدن التى كانت محط رحال التجار ، وأهم موانىء العـالم بسبب ما كان يرد اليها من المراكب الواصلة من الحجاز والهند والصين والحبشة ، وعن طريق عدن أيضا تتجه البضائع الهندية والصينية وغيرها الى جدة ، وحتى السلع الخفيفة التى تنقل من عدن ومن الشام الى مكة ، كان كثير منها يمر بجدة ، بل ان كثيرا من تجار اليمن بوجه عام وعدن بوجه خاص كانوا يتوافدون على مدن الحجاز عن طريق جدة وخصوصا فى مواسم العمرة والحج ، ومعهم متاجر الشرق الأقصى المختلفة ، وكان أغلبهم يعود بعد الموسم مباشرة من جدة الى عدن ومدن اليمن المختلفة حاملين معهم بعض السلع الواردة اليها من مصر والشام[٢٥٩] .

وقد حفظت لنا بعض المصادر بعض أنواع السلع كانت تأتى الى جـدة من عدن ، نذكر منها على سبيل المثال المسك ، وجوز الهند والبهار وخشب الصبار والأبنوس والعاج والخزف الصينى ، وواضح أنها كلها من منتجـات الشرق الأقصى . كما نسمع عن تصدير عدن التوابل كالفلفل والقرنفـل والبخـور الى جدة ، الى جانب القـرفة أو الدارصينى والتى كانت من بين السـلع التى دخلت فى صناعة العقاقير الطبية،وكانت تزرع فى اليمن ويتم تصديرها الى جدة عن طريق عدن ، ومنها الى مصر فأوربا حيث اشتد الطلب عليها ، ولا نعرف مدى جودتها بمقارنتها بالقرفة التى كانت تصل من سيلان والتى كانت لها شـهرتها

ومن الأعشاب الطبية التى كانت تصل جدة عن طريق عدن الخلنجان ، والزنجبيل والهند شعيرة ، والراوند ، والمن والبلسم ، والكافور ، وعرق الكافور ، والعود الهندى ، والحبهان ، وجوزة الطيب ، والزعفران ، والتوتيا[٢٦٠] .

كذلك كان يتوافر فى سواق عدن الحديد والنحاس والزئبق والمرجان والملابس الصوفية والقطنية والحريرية ، والسكر والأرز وجوز الهند واللبان الجاوى وخشب السند وعود الند مما أتاح فرصة طيبة لتجار عدن لتصدير مثل هذه السلع ، التى كانت تلقى رواجا اما فى بلاد الحجاز نفسها ، أو فى مصر ، أو عليها طلب كبير فى بلاد الغرب الأوربى فى ذلك العصر . هذا بالاضافة الى أن تجار عدن بما لهم من تجارة واسعة مع بلاد الهند قد توفر لديهم خشب الساج الذى استخدم فى بناء السفن والمنازل فى جدة ، والحديد الخام والسيوف المصنوعة فى الهند ، الى جنب قرون وحيد القرن والتى كانت سلعة نادرة وثمينة وكان الطلب عليها كبيرا ، وقد استخدمت فى صنع العقود ومواد الزينة ، بالاضافة الى المواد العطرية والروائح ، بجانب الموسلين الفاخر والأقمشة القطنية والنيلة والأصباغ ، وقد حمل تجار عدن هذه السلع وغيرها الى جدة ، كما حملها تجار جدة من عدن الى شتى مدن الحجاز وبخاصة فى مواسم الحج والتى كانت بمثابة أسواق عالمية يأتى اليها المسلمون من شتى بقاع الأرض ، ويقبلون على شراء مثل هذه السلع[٢٦١] .

ونظرا لحاجة أهالى مدينة جدة الملحة للحبال المصنوعة من ليف شجر جوز الهند المستخدمة فى صناعة السفن عوضا عن المسامير الحديد ، وحيث أن هذه الأشجار لا تنمو فى الحجاز ، لذا فقد قام أهالى اليمن بوجه عام وتجار عدن بوجه خاص بتصدير هذه الحبال الى جدة ، وقد كانت مدينة ظفار على ساحل البحر الهندى لها شهرتها فى صناعة هذه الحبال ، ومن المرجح أنه كان يتم جلب زيت جوز الهند من هذه البلاد الى جدة بالاضافة الى جوز الهند نفسه[٢٦٢] .

وينبغى أن نشير الى أن صادرات مصر كانت تصل الى جدة ومنها تحملها ركاب أهل اليمن فى طريق عودتهم الى عدن محملة بالواصل من ديار مصر من الحنطة ، والدقيق ، والسكر ، والارز ، والصابون ، وزيت الزيتون ، والزيت الحار ، والزيتون المملح وكل ما يتعلق بالنقل ، وعسل النحل ، بالاضافة الى

منتجات الغرب الأوربى من الأقمشة الصوفية وخلافه[٢٦٣] الى جانب منتجات بلاد المغرب ووسط وغرب أفريقيا • وعلى هذا الاساس يمكننا القول أنه بالرغم من السياسة التى اتبعها سلاطين المماليك لاحلال مدينة جدة محـل عدن فى التجارة المعالية والظروف التى ساعدت على ذلك ، فان العلاقات التجارية بين عدن وجدة ظلت قائمة ، وان كانت قد شهدت تحولا ملموسا منذ النصف الثانى للقرن التاسع الهجرى ، الخامس عشر الميلادى ، فبعد أن كانت عدن تموين جدة بكل واردات الشرق الأقصى تقريبا ، تقلصت هذه العلاقة الى حد كبير بسبب توجه هذه الواردات مباشرة الى جدة ، بحيث اقتصرت العلاقة على منتجـات بعض بلاد اليمن أو الساحل الشرقى لافريقيا القريب من عدن •

واذا ما تركنا عدن وجنوب شبه الجزيرة العربية ، وتوجهنا الى الخليج العربى نجد هناك سيران على ساحل ايران جنوبى شيراز ، والتى كانت حتى أواخر العصور الوسطى من أكبر أسواق الخليج العربى ، أن أستولى عليها أمير قيس أو قيش وحول عنها التجارة الى بلاده ، فأخذت سـيراف فى الانهيـار تماما أواخر القرن التاسع الهجرى ، الخامس عشر للميلاد[٢٦٤] وينبغى أن نذكر أن العلاقات بين جدة وسيراف قديمة ترجع الى ما قبل العصر المملوكى بكثير ، وأن جدة ارتبطت بها بطريق بحرى مشهور ، حيث يذكر السيرافى فى القرن الرابع الهجرى ، العاشر للميلاد أن مراكب أهل سيراف كانت تعبر البحر الاحمر متجهة الى جدة وتفرغ حمولتها من البضائع ، حيث يتم نقلهـا الى مصر فى مراكب البحر الاحمر المعدة لهذا الغرض[٢٦٥] • كما يذكر هايد أن بحارة سيراف كانوا يبحرون على طول الساحل الشرقى والجنوبى لبلاد العـرب ، بل كانوا كذلك يتجاوزون عدن ، ويصلون الى جدة فى معظم الأحيان حيث ينقلون شحناتهم الى سفن أخرى أقدر على مواجهة أخطار الملاحة فى القسم الشـمالى من البحـر الأحمر[٢٦٦] ولقرب سيراف من أسواق البلاد العربية فقد تركزت فيها منتجات كثير من هذه البلاد أكثر من أى مركز تجارى آخر على الخليج العربى ، كمـا كانت تصلها سفن التجارة من الصين والهند ، الى جنب تجارة شرق البحـر المتوسط ، وبما أن جدة كانت مركزا لتلقى تجارة الشرق والغرب على السواء ، وكان لكل من جدة وسيراف دورهما كوسيط تجارى ، لذا فاننـا نرجح قيـام مبادلات تجارية على نطاق لا بأس به ، وأن لم نعثر فيما تيسر لنـا الإطلاع

عليه من مصادر ومراجع ما يوضحه ، أو يبين نوع السلع المتبادلة بينها باستثناء متاجر الشرق الأقصى ومنتجات البلاد العربية .

أما عن علاقة جدة بسيلان « سرنديب » فتنبغى الاشارة الى أن هـذه العلاقة قد شهدت منذ بداية العصر المملوكى تطورا ملحوظا وازدهارا كبيرا ، وذلك واضح تماما منذ عهد السلطان المنصور قلاوون ، ويرجع السبب فى هذا حرص هذا السلطان على تشجيع التجارة الخارجية لدول سلاطين المماليك بشتى الطرق ، وترحيبه بالتجار من كل الانحاء ، مما كان له أثره الواضح لدى ملك سيلان الذى أرسل سفارة الى عاصمة السلطنة فى القاهرة يقول فيها : « أنه ترك مصاحبة صاحب اليمن مرة واحدة فى محبة السلطان ... » وهذه العبارة فى حد ذاتها مؤشرا واضحا على ازدهار العلاقة بين جدة وسيلان وبداية ازدهار جدة كميناء لسلطنة المماليك على البحر الاحمر وكما سبق وأشرنا[٢٦٧] .

وعن جزيرة سيلان يقول القزوينى أنها جزيرة عظيمة بين الصين والهند ، ويجلب منها الأشياء العجيبة . وبها الصندل والقرفة والدارصينى والقرنفل والبقم وسائر العقاقير ، وقد يوجد بها من العقاقير مالا يوجد فى غيرها ، وقيل ان بها معادن الجوهر ، وأنها جزيرة كثيرة الخير[٢٦٨] ولفلفل سيلان سمعة طيبة حيث كانت تزرع منه كميات كبيرة بها ، ويصدر الى جدة ومنهـا الى مصر فى طريقه الى غرب أوربا بواسطة تجار البندقية حتى احتل البرتغاليون منـاطق انتاجه ، فصارت لشبونة مركز تصديره الى أوربا ، وقل ما يحمل منه الى جدة وذلك فى مطلع القرن العاشر الهجرى ، السـادس عشر للميـلاد[٢٦٩] . ومن صادرات سيلان الى جدة كذلك كانت الجواهر واللؤلؤ ، والقماش من البـز وغيره ، والرماح ؛ ومن سيلان أيضا كانت تأتى أفضل أنواع الياقوت بعد أن يرسل الى مصانع شطفه وتهذيبه فى قاليقوط ، والذى كان يكثر عليه الطلب فى أسواق الشرق والغرب على السواء ، كما يرد منهـا نوع من العنبـر يعـرف باسم Vezin والذى يعرفه العرب باسم برسيلا ، ويصل هذا العنبر بعـد ذلك الى أوربا عن طريقين أحدهما البحر الاحمر عن طريق المحيط الهنـدى ، ومركزه فى عدن وجدة الى أن احتلت جدة مركز عدن وكما سبقت الاشارة الى ذلك ، والطريق الثانى وهو الخليج العربى حيث كانت تزخر به أسـواق

بغداد والبصرة • ومن العطور النفاذة الذكية الرائحة التى كانت تصل جدة من سيلان كان المسك ، وهو انتاج حيوانى يؤخذ من الحيوان المعروف باسم قط الزباء وهو نوع من الظباء ، وقد كانت سيلان واحدة من أهم المناطق التى تصدره الى جدة ومنها الى مصر وكثير من مناطق المشرق العربى والمغرب ، ثم يأخذ طريقه بعد ذلك الى الغرب الأوربى(٢٧٠) وباعتبار أن جدة كانت واحـــدة من موانىء سلطنة المماليك فى ذلك العصر ، فاننا لا نستبعد أنها قامت بتصدير بعض منتجات مصر الى سيلان ، بل وربما بعض منتجات الغرب الأوربى التى يحضرها أبناء المدن التجارية الأوربية الى مصر ، حيث يتم شحنها الى جدة فى مواسم التجارة الشهيرة التى كانت تعقد بها ، وحملها تجار سيلان فى طريق عودتهم الى بلادهم مع ما حملوه من سلع أخرى كان يتم جلبها الى جدة فى هــذه المواســم •

وعن الخط الملاحى الذى يربط بين جدة والصين والعلاقة بينهما،فانه تجدر الاشارة الى أنه ليس لدينا ما يفيد وجود علاقات تجرية مبــاشرة بين جــدة والصين قبل القرن التاسع الهجرى ، الخامس عشر للميــلاد ، حيث لم تكن الملاحة الصينية قد وصلت الى ساحل جدة بعد • ودليلنــا على هذا ما تذكره بعض المصادر المعاصرة عن سنة ٨٣٥هـ/١٤٣١م ، ففى شهر ذى الحجة من هذه السنة « قدم الخبر من مكة المشرفة بأن عدة زنوك — نوع من السفن التجارية — قدمت من الصين الى سواحل الهند ، وأرسى منها اثنان بساحل عدن ، فلم تنفق بها بضائعهم من الصينى والحرير والمسك وغير ذلك لاختلال حال اليمــن ، فكتب كبير هذين الزنكين الى الشريف بركات بن حسن بن عجلان أمير مكة والى سعد الدين ابراهيم بن المرة ناظر جدة ، يستأذنهم فى القدوم الى جدة ، فستأذنا السلطان فى ذلك ، ورغباه فى كثرة ما يتحصل فى قدومهــم من المــال ، فكتب بقدومهم الى جدة واكرامهم » ، وهذه اشارة واضحة وصريحة الى أول صلة تجارية بين جدة والصين فى عهد السلطان الاشرف برسباى(٢٧١) ونستطيع أن نقول أنه بوصول هذه السفن كان ذلك فاتحة لعلاقات بكثير من موانىء الصين الهامة فى ذلك العصر ، اذ نسمع بعد ذلك بعامين أى فى عام ٨٣٧هـ/١٤٣٣م عن وصول بعض مراكب من الصين وعليها بعثة من أهل مدن الصين مكونة من سبعة أشخاص ، توجهت هذه البعثة الى جــدة ومنهــا الى مكة المكرمة لزيارتها ،

وربما كان هدف هذه البعثة هو التعرف على هذه الأسواق وامكاناتها الاقتصادية وحاجتها من السلع المختلفة التى يمكن أن تقوم الصين بتوريدها اليها[٢٧٢] . وبعدها توطدت علاقات جدة مع أهم موانىء الصين وبخاصــة مع خانغــو « كانتون » . وخانغو من أهم مراكز التجارة فى الصين ، وتزخر أسواقهــا بالحرير والمسك والعود والسروج السمور والدارصينى «القرفة» والأبنوس وخشب الصندل والكافور والخيزران ومختلف أنواع الأفادية ، وذكرها معظم مؤرخى المسلمين كمرفأ للسفن«ومجتمع تجارات العرب..» كذلك نرجح أنه كان لجدة علاقات تجارية مع ميناء زيتون ، وهى المدينة الصينية « تشوان — تشو » ويقال أنها « تسو تونج » من موانىء اقليم فوكن ، ولا يرد اســمها الا فى المصادر العربية المتأخرة . وقد كان لزيتون اتصالات وثيقة بكثير من الموانىء العربية فى اليمن ومصر والشام ، وترسو فى مينائها سفن الصين بشكلها المعروف بالتوابل وعود الند والصبار والأبنوس وخشب الصندل من الهند الصــينية ، والمسك من التبت والحرير الخام من الصين نفسها . وفى طريقها للبحر الأحمر تمر بالهند لتحمل اللآلىء والجواهر والأحجار الكريمــة والفلفــل والحــرير والأفادية[٢٧٣] . وعند وصول هذه السفن الى جدة فانها كانت أيضا تحمل الحرير بكميات كبيرة ، اذ كانت الصين هى المنتج الأساسى للحرير الجيد الذى لايعادله حرير آخر . لا يساورنا شك فى أن هذه الســفن قد حملت أيضــا بالاضــافة الى السلع السابقة البورسلين ، لأنه كما برع الصينيون فى نسج الحرير برعوا أيضا فى صناعة البورسلين ، وصار البورسلين الصينى أغلى وأقيم وأجمــل من مثيله فى أى دولة . وكان يمثل هو والحرير سلع التصدير الأساسية للصين وجدير بالذكر أن كانتون كانت الميناء الرئيسى لتصدير تلك السلعة أى البورسلين فضلا عن أن أكبر أسواقها كانت سوق البورسلين[٢٧٤] . وعن هذا البورسلين ووصفه تحدث القزوينى قائلا : « وبها الغضائر الصينى التى لها خواص ، وهى بيضاء اللون شفافة ، وغير شفافة ، لا يصل الى بلادنا — يقصد العراق — منه شىء ، والذى يباع فى بلادنا على أنه صينى معمول فى بلاد الهنــد ، بمدينة يقال لها كولم ، والصينى أصلب منه وأصبر على النار ، وخزف الصين أبيض ، قالوا : يترشح السم منه ، وخزف كولم أدكن ... »[٢٧٥] كما كان يأتى الى جدة الكافور وعرق الكافور ، وكانت الأنواع التى تصل منــه من

الصين تعد من أفضل الأنواع ، كذلك كان يأتى الراوند والذى يعد أحد السلع الأساسية فى صناعة العقاقير ، وكان الراوند الصينى من أجود الأنواع ويفيد فى أمراض المعدة والكبد والكلى ، ولونه أخضر ، لين المجس ، ويعرفه العرب من قديم الزمان ، ويرد بكثرة من الصين ، ويجمعه الصينيون من صحراء بلاد التتار . وكذلك مادة التوتيا والزعفران وهى من المواد المستخدمة فى الطب كذلك ، والتوتيا كانت تستخدم بعد تنقيتها فى تحضير سوائل لعلاج أمراض العيون ، بالاضافة الى العطور والبخور ، وأشهر أسواقها ميناء زيتون(٢٧٦) . وينبغى أن نشير الى أنه كان بامكان أهل الصين عند وصولهم الى جدة أن يقايضوا كمية قليلة من الحرير والبورسلين بكميات كبيرة من العاج والذهب وغيرهما من السلع ، أو بعبارة أخرى أن جدة قامت بتصدير بعض سلع أفريقيا الواردة اليها الى الصين فى مقابل الحصول على منتجات الصين(٢٧٧) . ومنها أيضا بعض منتجات مصر ، وبلاد الشام والجزيرة العربية ، وربما الكثير من السلع الأوربية .

وفيما يتعلق بعلاقة جدة ببلاد الهند فانه يمكننا القول أن جدة كانت تربطها علاقات وثيقة ببلاد الهند ، حيث كان لكثير من الموانىء الهندية دور فعال فى حركة التجارة العالمية طوال العصور الوسطى ، بوجه عام وفى عصر سلاطين المماليك بوجه خاص ، فهى فضلا عن كونها موانىء تصدير فى المقام الأول ؛ الا أنها كانت أيضا موانىء استيراد . يضاف الى هذا أن ملوك الهند الاسلامية ، حرصوا أن تكون لهم علاقات وطيدة مع بلاد الحجاز ، كما اجتذبت تجارة التوابل والأحجار الكريمة أفواجا مستمرة من التجار المسلمين الى سواحل الهند الغربية بوجه خاص(٢٧٨) .

ورغم كثرة الموانىء التى كانت لها علاقات تجارية وتربطها خطوط ملاحية مع جدة ، مثل سورات ، وبومباى ، وجوا ، والديبل ، وكوشين ، وقاليقوط الا أننا سنشير الى أهم هذه الموانىء وأبرزها ، والتى كانت لها علاقات واضحة مع جدة فى العصر الذى نتناوله بالبحث ، ألا وهى ميناء قاليقوط « كاليكوت » على الساحل الغربى للهند وهو ساحل الملابار ، والتى كانت لها شهرتها العالمية فى تجارة التوابل ، حيث كانت التوابل الواصلة منها الى جدة تشكل باستمرار أكثر من ثلث حمولة السفن القادمة من قاليقوط(٢٧٩) . ومن الواضح أن هذا

الميناء كان مفضلا عند كثير من تجار جدة ، اذ أنه من الثبت أنه عقب استيلاء البرتغاليين على هذا الميناء ٩٢٠هـ/١٥١٤م ، فقد سمح القائد البرتغالى ألبوكيرك لعدد كبير من التجار أن يخرجوا على متن احدى السفن ومعهم زوجتهم وأولادهم ، وأمتعتهم وغادروها الى جدة[٢٨٠] . ولقد استمدت قاليقوط شهرتها من تجارة التوابل بسبب ضخامة انتاج اقليم الملابار والذى يسميه الرحالة المغربى ابن بطوطة بلاد الفلفل لكثرة ما ينتج فيه من الفلفل[٢٨١] وتشير بعض المراجع الى أن علاقة جدة بقاليقوط ترجع الى عام ٨٢٨هـ/١٤٢٤م عندما خرج أحد تجار قاليقوط بسفينته ومر على ميناء عدن دون أن يرسو فيها متوجها الى جدة ، حيث لقى كل ترحاب بها ، وفى العام التالى عاد ومعه أربعة عشرة سفينة ، ثم حذا حذوه كثير من التجار وربابنة السفن ، بحيث أنه فى عام ٨٣٠هـ/ ١٤٢٦م وصل الى جدة أكثر من أربعين سفينة من قاليقوط وعليها الكثير من منتجات بلاد الهند وبخاصة التوابل[٢٨٢] .

ومن منتجات الهند التى لقيت اقبالا شديدا الفولاذ الذى تصنع منه السيوف ، والذى اشتد عليه الطلب فى كثير من الأسواق العربية ، وبعض أنوع المنسوجات القطنية كالعبك[٢٨٣] . كما كان الزنجبيل الواصل من الهند من أكثر التوابل شيوعا واستعمالا فى الحجاز ، ولا يقل أهمية عن الفلفل والبهار ، كما كان الراوند يمثل أحد السلع الأساسية ، أضف اليه الكافور والعود الهندى والزعفران والكركم والهال « الحبهان » ، وجوزة الطيب وهى من السلع التى استخدمت كثيرا فى الطب وفى الطعام ، كذلك كانت العطور الهندية والبخور ، ومن أنواعها عود الند والمسك وخشب الصندل والعنبر واللادن والمصطكى[٢٨٤] كما كان خشب الساج من السلع الهامة التى ترد من الهند وكان يستخدم بصفة أساسية فى صناعة السفن وبناء المنازل ، وكذلك كانت الفضة والماس ، والبللور ، وقرون وحيد القرن من السلع الهامة أيضا ، بالاضافة الى المرجان والذى يبدو ضمن سلع الهند التى هيمنت على تجارتها سلطنة المماليك ، فقد جاء فى حوادث سنة ٨٨١هـ/١٤٧٧م فى عهد السلطان الأشرف قايتباى أنه ورد مرسوم من السلطان الى أمير مكة مضمونه « أن الواصل الى مكة من المرجان وغيره مما هو من بضائع الهند لا يترك شىء منه يذهب به الى اليمن ، حتى لا تدخل المراكب الهندية الى اليمن ... »[٢٨٥] . ومن الهند كذلك

كان يتم جلب العقيق الى جدة ، والذى كان تم به ترصيع السيوف والخناجر والعقود ، وينقل منه الى أسواق القاهرة ومنها الى الاسكندرية ليباع للأوربيين الذين يقبلون عليه كثيرا[٢٨٦] كما كان يرد من الهند أيضا عرق الكافور ، وثمرة كثيرة الاستخدام فى الطب ذات نواة من نوع فواكه الخوخ والبرقوق وهى الهند شعيرة المعروفة باسم الاهليلج ، وهى تفيد فى علاج أمراض المعدة والأمعاء والبصر ، وأكثر أماكن نموها ساحل الملابار ، وخاصة منطقة كولام ، والى جانب استخدامها فى الطب كانت تستخدم فى الصبغات[٢٨٧] ومن الهند كذلك كان يتم جلب الأقادية والتى يقول عنها أحد المحدثين : « ان الأقادية التى أخذت قيمتها تزداد شيئا فشيئا كعنصر جوهرى الاهمية لفن الطبخ الأوربى لم يكن فى الامكان الحصول عليها الا من الهند وأندونيسيا ، ولابد لها من المرور من خلال فارس أو مصر ، فهذه التجارة لا يستغنى عنها »[٢٨٨] . كذلك كان يرد منها الى جدة جوز الهند والسكر والشمع والسنباذج « حجر الجلخ » ، والأزر والحرير[٢٨٩] .

وتجدر الاشارة الى أن أهتمام أهالى جدة بالاتجار مع الهند قد فاق غيره، ذلك لأنهم أدركوا ان الاشتغال بالتجارة الهندية أكثر أمنا وأكثر ربحا ، فقد كانت تصلها السفن من موانىء الهند وأهمها قاليقوط تقريبا فى شهر مايو من كل عام وقبل موسم الحج ، كذلك كان يصلها أعداد كبيرة من تجار القاهرة وبلاد الشام فى ذلك الموسم الهندى لشراء كثير من السلع الهندية . وعادة ما كان التجار فى جدة يخزنون البضائع فى مستودعاتهم عدة أشهر الى أن يحين وقت الحج ، وخلال هذه الفترة ترتفع الاسعار شيئا فشيئا ، وغالبا ما كانوا يحققون أرباحا تصل ما بين ٣٠٪ ، ٤٠٪ وعندما يرسلون بعضا من هذه السلع الى مكة لكى تباع فى موسم الحج فانهم يحققون ربحا أكثر بلا شك[٢٩٠] .

أما عن صادرات جدة الى الهند بوجه عام وقاليقوط بوجه خاص فيأتى فى مقدمتها الخيول العربية ، حيث كان عليها طلب كبير للحاجة اليها فى الجيوش والاحتفالات[٢٩١] . هذا الى جانب سلع أوربا المختلفة التى كانت تصل الى جدة عن طريق مصر وبلاد الشام ، وكان يمكن للزائر لأسواق قاليقوط أن يرى حوانيت خاصة لهذه السلع تبيع النبيذ الوارد من كريت والأصواف وغيرها[٢٩٢] . كما كانت سفن قاليقوط تحمل فى عودتها من جدة الدقيق من مصر

والذرة والشعير وزيت السمسم والقماش من حرير وموسلين وأصواف[٢٩٣] . يضاف الى هذا أنه كان فى موسم الحج تصل جدة عن طريق مكة مقادير كبيرة من التمور العراقية ، والتى تعتبر واحدة من السلع الهامة التى كان يتم تصديرها الى الهند ، حيث تحملها السفن الهندية فى طريق عودتها ، والتى كانت تلقى رواجا كبيرا من مسلمى الهند بوجه خاص [٢٩٤] الى جانب منتجات شبه الجزيرة العربية مثل اللبان ، واللؤلؤ ، والتمور وغيرها ، فضلا عن منتجات الساحل الأفريقى التى كانت تصل جدة مثل الذهب والنحاس والرقيق والعاج ، على الرغم من أن الهند تعتبر منطقة انتاج للعاج ، الا أن العاج الأفريقى تفوق على مثيله الهندى[٢٩٥] بالاضافة الى الزعفران ، وماء الورد ، والجوخ ، والتفتاه ، وأنواع أخرى من السلع ورد ذكرها عند أحد البرتغاليين فى القرن العاشر الهجرى ، السادس عشر للميلاد[٢٩٦] . هذا وقد سبق أن أشرنا فى حديثنا عن أسواق جدة أن أعداد كبيرة من مسلمى الهند استوطنوا جدة فى ذلك العصر ، بل ربما فى فترة تسبق ذلك العصر ، وكانوا سببا فى ازدياد العلاقات بين جدة والهند ، وهم الذين تخصصوا فى بيع المنتجات الهندية التى لاقت اقبالا كبيرا سواء من بقية سكان جدة ومن الحجاز أم من زوار المدينة . مما ساعد على كثرة تدفق السلع الهندية ، بل وانتظام قوافل السفن الهندية بين البلدين الى قرب نهاية العصر المملوكى ، عندما وصل البرتغاليين الى المياه الشرقية وحينئذ تبدلت الأحوال .

الجمارك فى جدة :

أن المصادر التى بن أيدينا عن الاجراءات الجمركية التى كانت تتبع فى ميناء جدة عند وصول السفن التجارية محملة بالبضائع اليها ، الا أنه فى ضوء ما أوردته هذه المصادر من اشارات عابرة ، وكذلك التطورات السياسية الدولية التى أدت الى ازدهار جدة واحلالها محل ميناء عدن فى التجارة الدولية نستطيع أن نفرق بين مرحلتين متمايزتين فى طريقة فرض وتحصيل الرسوم الجمركية ، وهما المرحلة الأولى والتى تبدأ بخضوع بلاد الحجاز لحكم سلاطين المماليك حتى عشرينات القرن التاسع الهجرى ، الخامس عشر للميلاد ، ثم المرحلة الثانية وهى التى تلت هذه الفترة الى نهاية العصر المملوكى عام ٩٢٣هـ/ ١٥١٧م ، وهى التى غدت فيها جدة كمنطقة تجارية هامة تمر بها تجارة الشرق

والغرب ، أو بعبارة أخرى الميناء المملوكى الأول على البحر الأحمر ، والذى ترد اليه تجارة الهند والصين وجنوب شرقى آسيا ويتم نقلها الى مصر وبلاد الشام ليعاد تصديرها الى الغرب الأوربى ، ويتم منه تصدير سلع أوربا بعد وصولها الى الاسكندرية ونقلها الى القاهرة ثم موانىء مصر على البحر الأحمر لتشحن الى جدة ومنها تأخذ طريقها الى بلدان الشرق الأقصى .

أما المرحلة الأولى فيمكننا القول أنها اتسمت بالعفوائية والتعسف والتخبط أحيانا فى فرض الرسوم الجمركية وطريقة تحصيلها . اذ من المعروف أن جدة فى هذه الحالة كانت تتبع مباشرة أمير مكة ، وهو الذى يقرر مقدار ما يجب أن يدفعه التجار عند وصولهم اليها من مبالغ ، والتى كان من شأنها أن تؤمن طريقهم الى مكة المكرمة ، وتحقق لهم الحماية والأمان والسلامة سواء أقاموا بجدة أو انتقلوا الى غيرها من مدن الحجاز المختلفة[٢٩٧] . هذا من جهة ، ومن جهة ثانية اعتبر أمير مكة أن ما يتم تحصيله من أموال فى جدة مصدرا أساسيا وحيويا بالنسبة له ، ينفق منه على جنده وأتباعه[٢٩٨] . كما يقوم هو بنفسه أو من ينيبه عنه تحصيلها ، ولم تكن هذه المبالغ قاصرة على ما تم فرضه على ما يصل جدة من بضائع ، بل كان يتم تحصيله عما يصل اليها من مأكولات أيضا ، بل وعما يصل مع الحجاج من أموال ، وبخاصة حجاج مصر والشمال الأفريقى وبلاد التكرور الذين يصلون اليها بحرا . ولقد بلغ مجموع هذه المبالغ فى عام واحد على سبيل المثال وهو عام ٧٦٤هـ/١٣٦٢م « مائة ألف درهم وستون ألف درهم »[٢٩٩] .

ولم تكن عملية تحصيل الرسوم الجمركية فى جدة قاصرة على من يعينه أمير مكة لتحصيلها ، هذه المبالغ وهى التى عرفت باسم « المكوس » أو « الجبا » ،اذ يستفاد مما ذكرته بعض المصادر المعاصرة أن الأشراف الحسينين أيضا كانوا يفرضون رسوما على التجار يتم تحصيلها بمعرفتهم ، وأنها خضعت لأهواء هؤلاء الأشراف الى أن كان عام ٨٠٦هـ/١٤٠٣م حيث قام أمير مكة بتعيين الفقيه جابر بن عبد الله الحراشى ، وفوض اليه الأمر فى جميع ما يصل الى جدة من الشام ومصر واليمن والهند ، « وقرر لبنى حسن الرسوم التى يتناولونها الآن ، وجعلها لهم فى ثلاث حالات ، وأبطل رسومهم السابقة . وكانت تؤخذ من التاجر مع الجبا ، فلم يجعل لهم على التجار سبيل ، فأراح

التجار من مطالبتهم[٣٠٠] » ويبدو أنه منذ ذلك العام أصبح أمير مكة يقـوم بتحصيل هذه الرسوم بمعرفته له وللأشراف الحسنيين المرافقين له،والتى تم فرضها حتى على المراكب التى تصل الى جدة لكى تتزود منها بالماء أو الطعام ، والدليل على هذا أنه فى المحرم من عام ٨١٨هـ/١٤١٥م « ورد الى جدة القاضى مفلح بما فى صحبته من المراكب والطراريد والمؤلفات والجلاب ، فاستقوا من جدة بمعاونة رميثة وأخذ منهم الزلة ومضوا الى ينبع ... » ، كذلك ما حدث فى شهر صفر سنة تسع عشر وثمانمائة،عندما وصلت المراكب الكارمية والجلاب الينبعية الى جدة ، فاخذ منها أمير مكة « زلة له ولخواصه ثلاث عشر ألف مثقال ومئتا مثقال ، ومكنهم السقية من جدة ومضوا الى ينبع ... »[٣٠١] بل وقـد لا نغالى اذا قلت أنه فى هذه الفترة وبسبب تعدد الصراعات والخلافات بيـن الأشراف الحسنيين كثيرا ما تعرضت مراكب التجار للعسف والجور فى فرض الرسوم الجمركية عليها ، والعنف فى تحصيلها[٣٠٢] .

وأمام الشكوى المتكررة من كثرة ما تحمله التجار فى تلك الفترة كان لابد من اجراءات رادعة لأمراء مكة وأشرافها ، أو على الأقل لفت أنظارهم وتحذيرهم من مغبة ما يمكن أن ينجم عن هذا التعسف ، فقد أشـارت بعض المصـادر المعاصرة أنه فى عام ٨٢٣هـ/١٤٢٠م أيام السلطان المملوكى المؤيد المحمودى أن أرسل يعتب على أمير مكة الشريف حسن بن عجلان كثرة الأموال التى يتحملها التجار ، بحيث أنها لم تسلم منها المتاجر السلطانية « ففى الرابع عشر من صفر فى هذه السنة ، وصل كتاب من الملك المؤيد صاحب مصر نصره الله ، الى الشريف يتضمن عتبه عليه فى أمور منها ، أخذه الموجب من المتاجر السلطانية..» حين مرت عدة مراكب للتجار الكارمية بجدة فى طريقها الى ينبـع فأمـرهم شريف مكة بانزالها فى جدة « فصالحوه فى ذلك بألفى افرنتى »[٣٠٣] . هـذا الى جانب ما قام به الملك الناصر صاحب اليمن عام ٨٢١هـ/١٤١٨م من محاولة منع وصول مراكب تجار اليمن الى جدة فى موسم الحج وتحويلها الى ينبع ، وذلك لكثرة ما تحمله تجار اليمن من شريف مكة ، الذى أخذ « يحدث عـلى التجار كل عام حادثة ، وكلما تضجروا من واحدة أتبعها بثانية وثالثـة ، حتى تواصلت بشكواه الألسنة » . بل أن الناصر أمر بشحن « المراكب بالمقاتلة صينة

لها عن التنهج » وليعلم أمير مكة « أن العدل هدى وعمارة ، وأن الجور خراب وخسارة »[٣٠٤] .

ومع هذا ينبغى أن نذكر أنه كانت بعض الاعفاءات الجمركية ، الا أنه فيما يبدو لنا أنها كانت نادرة أو قليلة خلال هذه الفترة ، لعل من أشهرها الاعفاءات الخاصة بركب الحاج المصرى خصوصا اذا كان السلطان حاضرا ، مثال ذلك ما حدث عام ٧١٩هـ/١٣٢٠م عندما شرع السلطان الناصر محمد بن قلاوون فى الحج وتم تزويد الركب بكل ما تحتاج اليه طوال فترة الحج ، وضمن هـذه الاستعدادات تم تجهيز أربع سفن فى البحر الأحمر ، تحمل مائة وثلاثين ألف أردب من الشعير لتوفير احتياجات دواب القافلة من العليق ، واتجهت سفينتان الى ينبع والأخريان الى جدة . ولم نسمع عن تعرض أحد لهما ، أو محـاولة فرض أية رسوم جمركية عليهما[٣٠٥] كذلك ذكرت كثير من المصادر المعاصرة أن الأحمال الخاصة بالمتجر السلطانى التى تصل الى جدة كانت معفاه من فرض رسوم جمركية عليها الا ما ندر منها[٣٠٦] .

كانت هذه أهم السمات التى اتسمت بها الفترة الأولى التى أشرنا اليها فى بداية الحديث ، والتى اختصت بموضوع الجمارك فى جدة وطريقة تحصيلها أما الفترة الثانية ، ففى الحقيقة أنها فترة كانت لها سماتها الخاصة بها ، والتى وضح فيها قيام سلطنة المماليك بمراقبة الحركة التجارية المزدهرة فى جدة ، ثم اخضاع النشاط التجارى الخارجى لها لاشراف مباشر من قبل السلطات الحاكمة فى عاصمة السلطنة بمصر ، وهو ما تجلى فيما حدث فى عشرينات القرن التاسع الهجرى ، الخامس عشر الميلاد ، عندما أرسل السلطان المؤيد شيخ المحمودى حملة قوامها مائة من فرسان المماليك ، ومعهم أحد الكتاب لأخذ مكس المراكب الواردة الى جدة من بلاد الهند[٣٠٧] ومنذ ذلك الحين استقرت فى ميناء جدة حامية عسكرية مملوكية ، ثم أنشئت لجدة عدة وظائف للاشراف على التجـارة الخارجية ، وتنظيم تحصيل الرسوم الجمركية بها . ويشير ابن اياس الى ذلك فى حديثه عن عام ٨٢٩هـ/١٤٢٥م اذ يقول « وكانت جدة تحت حكم أمير مكة ، فأول من تحدث فى أمر جدة ونزع يد أمير مكة المشرفة فيها : قرقماس الشعبانى فى دولة الملك الأشرف برسباى ... »[٣٠٨] .

أما عن الوظائف التى استحدثت لجدة فيأتى فى مقدمتها وظيفة « ناظر

جدة » أو « ناظر الخاص بجدة » حسبما يذكر مؤرخ مكة ابن فهد ذلك ، ففى حديثه عن شهر رمضان عام ٨٤١هـ/١٤٣٧م أيام الأشرف برسباى يقول : « وفيها فى شهر رمضان قدم مباشرو جدة سعد الدين ابراهيم بن المره ، وهو ناظرخاص جدة على عادته ، والتاجر بدر الدين حسن بن شمس الدين محمد ابن المزلق الشامى ، عوضا عن الأمير المجرد الى جدة ... »(٣٠٩) والمعروف أن ناظر الخاص كان ينظر فى خاص أموال السلطان ، وهى من الوظائف السلطانية ، أى أن السلطان هو الذى يعينه ولا يعين من قبل أمير مكة وكما كان الحال من قبل ، وبعد اصدار السلطان قرار تعيينه ، يخلع عليه ويتوجه الى جدة صحبة القوة العسكرية المتجددة ليكون بها عادة فى الموسم الهندى ، والذى يبدأ عادة من شهر جمادى الأولى الى أواخر شهر رجب من كل عام وقد يمتد الى شعبان ، فيقوم بتحصيل الرسوم الجمركية من التجار بمساعدة جماعة من المواطنين كانوا غالبا ما يصحبونه من مصر وهم الذين أشارت اليهم المصادر المعاصرة بأسم الأعوان(٣١٠) كذلك من المعروف أن هذه الوظيفة كانت من الوظائف المدنية الجليلة ، وكان يتطلب فيمن يتولاها أن يكون عارفا بأمور الحساب والتحصيل ، وهناك فى المصادر المعاصرة من الاشارات ما يؤكد أن وظيفة ناظر جدة كان لا يتولاها الا من له دربة ودراية بالأعمال الجمركية ، فان اياس يذكر ذلك صراحة أنه عندما تحولت جده الى نيابة وتم اختيار ناظر خاص لها ، هو سعد الدين ابراهيم بن المره فان هذا الاختيار لأنه « شخص من المكاسة »(٣١١) . وهو بهذا يؤكد أنها كانت وظيفة مدنية وكما سبق أن أشرنا ، يختار من يتولاها من الموظفين المدنيين ، الا أنها تحولت فيما بعد الى وظيفة عسكرية يتولاها أحد أمراء المماليك ، وقد تم هذا التحول اعتبارا من عام ٨٣٦هـ/ ١٤٣٢م ، حيث تذكر المصادر المعاصرة أنه فى شهر جمادى الأولى من هذه السنة عزل سعد الدين ابراهيم بن المرة ، وأخلع على الأمير أسنبغا الطيارى أحد أمراء العشرات واستقر فى نظر جدة عوضا عن ابن المره(٣١٢) .

ومن الوظائف التى عرفتها جدة فى هذه الفترة من العصر المملوكى ، وظيفة « شاد جدة » أو وظيفة « شاد ديوان جدة »(٣١٣) والمعروف ان شاد الديوان هو متولى وظيفة استخلاص مايتقرر على الطوائف والأفراد من المعاملات المالية، من حيث التحصيل والصرف ، وهى الوظيفة التاسعة عشرة فى سلك الوظائف

العسكرية فى الدولة المملوكية ، والشاد يطلق على متولى الوظيفة المضـافة الى اللفظ ، كذلك أطلق « شاد » على الشخص الذى يقوم بالتفتيش على الدواوين ويراجع حساباتها[٣١٤] وجدير بالذكر أنه منذ عام ٨٣٨هـ/١٤٣٤م واضـح أن متوليها كان أحد أمراء المماليك اذ تذكر بعض المصادر أنه فى شهر صفر من هذه السنة « خلع على نكار الخاصكى ، واستقر شاد جدة ٠٠ » ، أى أن هذا الأمير المملوكى كان من طبقة الخاصكية المقربة جدا من السلاطين والمخصوصة بهم[٣١٥] وربما كان هذا بسبب حرص السلاطين على أن تكون كل صـغيرة وكبيرة فى جمارك جدة فى يدى أتباعهم المخلصين لهم • وكان يتحتم أيضا على من تولى هذه الوظيفة التواجد فى جدة فى الموسم الهندى ، وكذلك فى مواسم العمرة والحج ، حيث تصل مواكب المعتمرين والحجاج وكذلك قوافل التجار من شتى الأنحـاء[٣١٦] •

كما نسمع عن وظيفة « مباشر ديوان جدة » ، والمعروف أن المبـاشر وجمعها مباشرون ، هم الموظفون الاداريون الذين يتولون الوظائف المختلفـة المتعلقة بديوان جدة فى ذلك العصر[٣١٧] • كذلك كان من الوظائف التى عرفتها جدة فى هذه الفترة ، وربما منذ فترة سابقة عليها وظيفة « الجابى » ، أى الذى يتولى مهمة جباية أى تحصيل الرسوم الجمركية ، وكذلك وظيفة الصيرفى، وقد يجمع شخص واحد وظيفتى الجابى والصيرفى فى آن واحد • بل من المرجح أيضا أن يكون « شاد جدة » قد جمع بين وظيفته هذه ووظيفة الجباية أو ربما خضعت له مباشرة ، اذ تشير المصادر المعاصرة الى أنه حدث فى شهر جمادى الآخرة من عام ٨٥٤هـ/١٤٥٠م أيام السلطان جقمق أن هرب « شاد جدة » تمراز من بكتمر المعروف بالمصارع فى مركب اشتراه بألف دينار ، وأخذ من العشور ما جمعه بجدة خمسين ألف دينار أشرفى ، وبلغ ذلك السلطان فعظم كربه ، وقد حاول هذا الموظف اللجوء الى الحبشة والى الهند ، الا أن التجار بهذه البلاد حثوا حكامهم على عدم التعاون معه حرصا على أموالهم التى بجدة وخشية أن ينتقم منهم « الشاد » الجديد الذى عينه السلطان محـل هـذا الهـارب[٣١٨] •

كذلك نسمع عن بعض الموظفين الآخرين وهم الذين ذكرتهم المصـادر المعاصرة تحت اسم « شهود القبان » ، وهم من الكتبة وكانت مهمتهم وكما

يتضح من اسمهم مراقبة « القبان » أى الميزان الذى كان يتم به وزن بعض أنواع المتاجر والسلع . كما نسمع عن موظف سلطانى يقوم بتحديد ما تريد الحكومة المركزية فى القاهرة شراءه للمتجر السلطانى ، وغالبا ما يكون هذا الشخص على دراية واسعة بالأعمال التجارية . بالاضافة الى بعض الموظفين والذين كانت مهمتهم اشرافية على التجارة ، وهم الذين ذكرتهم المصادر تحت اسم « مباشرى الختم » ، هذه الوظيفة من الوظائف التى استحدثها المماليك لضمان استيفاء الضرائب النوعية على السلع الصادرة والواردة، ورسوم الجمارك وغير ذلك ، ولمنع غش السلع . وكان القائمون بها يتولون ختم الحمولات من البضائع كدليل على استيفائها المكوس المطلوبة ، وهم فى عملهم هذا أشبه بموظفى الجمارك فى عصرنا الحالى وهناك خاتم آخر كان يتم وضعه للدلالة على مصدر كل سلعة ، وتحديد جودتها وكدليل على أنها مرت على رقيب قام بفحصها[٣١٩] .

وربما كان من الوظائف التى استحدثت بجدة أيضا وظيفة المشرف على « المراكب الكارمية » والذى كان ينوب عن رئيس التجار الكارمية فى مصر ، والمعروف أنه كان أكثر الكارمية غنى ومقاما ، ويلى هذه الوظيفة على قدر ما يقدم من خدمات للسلطان وللدولة[٣٢٠] خصوصا وأن الكارمية كانوا قد احتكروا تجارة البحر الأحمر والمحيط الهندى ، وبصورة خاصة تجارة التوابل التى كانت تلقى رواجا فى البلدان الأوربية . وكانت جدة وغيرها من موانىء الحجاز من أهم مراكز هذه التجارة فى البحر الأحمر ، وقد ترك ارتياد تجار الكارم ميناء جدة وما جلبوه معهم من مختلف السلع الرائجة أكبر الأثر فى دفع ذلك الميناء نحو حركة تجارية مزدهرة أدت الى ارتفاع موارده المالية ارتفاعا هائلا[٣٢١] .

أما عن الرسوم الجمركية التى كان يتم تحصيلها فى ميناء جدة ، فان أهمها ما عرف باسم « المكوس » أو « العشور » باعتبار أنها تمثل ١٠٪ من قيمة ما يحمله التجار معهم من بضائع ويرى بعض الباحثين أن هذه المكوس أو العشور كانت تتفاوت تبعا للعلاقة مع دولة التجار ، وأنه فى عهد السلطان الأشرف برسباى مثلا كانت تتضاعف هذه المكوس اذا حدث ومرت مراكب التجار بميناء عدن ، بل أن السلطات المملوكية كانت تصادرها أحيانا[٣٢٢] الا أننا نستطيع القول — اعتمادا على ما أوردته المصادر المعاصرة — أن ذلك لم يحدث على الاطلاق ، فقد أورد مؤرخ مكة ابن فهد فى حوادث سنة ٨٣٨هـ/١٤٣٤م أيام برسباى النص التالى : « فيها كتب السلطان صاحب مصر بألا يؤخذ من

التجار الواردين الى جدة من الهنود سوى العشر فقط ، وأن يؤخذ من التجار الشاميين والمصريين — اذا وردوا جدة ببضائع اليمن — عشران ، وأن من قدم الى جدة من التجار اليمنيين ببضاعة تؤخذ بضاعته بأجمعها للسلطان ، من غير ثمن يدفع له عنها ، وسبب ذلك أن تجار الهند فى هذه السنين صاروا عندما يعبرون من باب المندب يجورون عن بندر عدن حتى يرسوا بساحل جدة فأقفرت عدن من التجار . واتضع حال ملك اليمن لقلة متحصله ، وصارت جدة هى بندر التجار ويحصل لسلطان مصر من عشر التجار مال كثير . وصار نظر جدة وظيفة سلطانية فنه يؤخذ من التجار الواردين من الهند عشور بضائعهم ويؤخذ من العشور رسوم تقررت للنظار والشاد وشهود القبان والصيرفى وصار يحمل من قبل سلطان مصر مرجان ونحاس وغير ذلك مما يحمل من الأصناف الى بلاد الهند ، يطرح على التجار ، وتشبه به فى ذلك غير واحد من أهل الدولة فضاق التجار بذلك ذرعا ، ونزل جماعة منهم فى السنة الماضية الى عدن ، فتنكر السلطان بمصر عليهم ، لما فاته من أخذ عشورهم ، وجعل عقوبتهم أن من اشترى بضاعة من عدن وجاء بها الى جدة — ان كان من الشاميين أو المصريين — أن يضاعف عليه العشر بعشرين ، وان كان من أهل اليمن أن تؤخذ بضاعته بأسرها . فمن لطف الله تعالى بعباده أنه لم يعمل بشىء من هذا الحادث »(٣٢٣).

ويزيد المقريزى عبارة أخرى على نفس النص الذى أورده حرفيا فيقول : « فمن لطف الله بعباده أنه لم يعمل بشىء من هذا الحادث ، لكن ترتئت هذه المراسيم تجاه الحجر الأسود ، فراجع الشريف بركات بن عجلان أمير مكة فى أمرها السلطان ، حتى عفا عن التجار وأبطل ما رسم به »(٣٢٤) . بل انه يؤكد على أنه طوال عصر برسباى فان المكوس التى كان يتم تحصيلها فى جدة لم تزد مطلقا عن ١٠٪ من مجموع أموال التجار الواردين اليها ، وأن هذا العشر كان « يؤخذ صنفا لا مالا من كل عشرة واحد »(٣٢٥) .

واذا كان قد تم تحصيل مبالغ أخرى فقد كانت مبالغ اضافية هى ما عرفت فى ذلك العصر باسم « الرسوم » ، ومع هذا فان الأشرف برسباى الذى عرف عنه جمعه للمال بكل وسيلة واحتكاره لكثير من السلع ، قد أصدر عام ٨٣٨هـ/ ١٤٣٤م مرسوما بالغاء هذه الرسوم والتى كان يتم تحصيلها مع العشور ، وهى التى كانت قد «تقررت للناظر والشاد وشهود القبان،والصيرفى،ونحو ذلك من

الأعوان وغيرهم »[٣٢٦] وقد نهج نهجه من أتى بعده من السلاطين ، ففى عام ٨٤٣هـ/١٤٣٩م أيام السلطان جمق ، صدر مرسوم ينظم أحد العشــور من من التجار الواردين الى جدة بحرا « وأن يبطل ما كان يؤخذ سوى العشر من رسوم المباشرين ونحوهم ، فكان هذا من جميل ما صنع »[٣٢٧] بل انه بالرغم من حالة الانهيار الاقتصادى التى أخذت تظهر فى تلك الفترة على أحوال دولة سلاطين المماليك فى مصر ، وفى الوقت الذى شهدت فيه الموانىء المصرية والشامية زيادة فى الرسوم الجمركية المفروضة على السلع المختلفة باعتبارها من أهـم الموارد المالية ، الا أن السلطات المملوكيــة حرصت على ألا تزيــد الرســوم الجمركية ، التى كانت تفرض على المتاجر القادمة من الشرق الأقصى ، وظلت هذه الرسوم تفرض بواقع ١٠٪ من قيمة السلع الواردة[٣٢٨] .

وينبغى أن نشير الى حقيقة هامة ، وهى أنه اذا كان سلاطين المماليك منذ عهد برسباى قد جعلوا هذه العشور من حقوق الدولة ، فليس معنى هذا أنهم حرموا أمير مكة منها نهائيا ، بل انهم أرادوا الاستعانة بمتحصل ميناء جـدة فى الانفاق على المجهود الحربى الذى كان عليهم أن يوجهوه ضد محــاولات الغرب الأوربى ، المتمثلة فى الحصار الاقتصادى الذى تم فرضه ضد سلطنة المماليك بقصد اضعافها ، حتى يتسنى لهم العودة الى احتلال بلدان الشرق الأدنى مرة أخرى ، ثم ما تلا ذلك من محاولات البرتغاليين الوصول الى البحــار الشرقية وضرب قوة المسلمين ممثلة فى المماليك ، وهى قوة تعتمد اقتصــاديا وبالدرجة الأولى على كونها الوسيط التجارى بين الشرق والغرب . ومع هذا تشير المصادر المعاصرة الى انه تم اقتسام متحصل بندر جــدة بين أمير مكة والسلطة المركزية بنسب مختلفة ، ففى عام ٨٣٢هـ/١٤٢٩م صدر مرســوم سلطانى « بالانعام على صاحب مكة السيد بركات بن عجلان بثلث المتحصل من عشور تجار الهند الواصلين الى جدة »[٣٢٩] . كذلك نسمع أنــه فى عام ٨٤٠هـ/١٤٣٧م صدر مرسوم بأن يأخذ أمير مكة نصف الأموال التى تحصل على البضائع الواردة من الهند ، والتى عرفت بالهندى تمييزا لها عن رســوم التجارة المكية البرية التى عرفت بالعدنى ، وهى من حقوق أمير مكة ، وكل من الهندى والعدنى ضرائب جمركية على الواردات[٣٣٠] .

كما كان لظهور البرتغاليين فى البحار الشرقية ، وتعبثهم فى البحر الأحمر ،

أثره الواضح فى أحوال جدة ، وفى ارتفاع الرسوم الجمركية ، فمنذ عام ٩١٨هـ/ ١٥١٢م عندما تولى الأمير حسين الكردى نيابة جدة ، وقيامه ببناء سور وأبراج حول المدينة فانه « جار على التجار فى أمر العشر » ، ولم نسمع بعدها عن الرسوم الجمركية شيئا ، اذ أن كل ما أشارت اليه المصادر منذ عام ٩٢٠هـ/ ١٥١٤م هو أن « بندر جدة خراب بسبب تعبث انفرنج على التجار فى بحر الهند فلم تدخل المراكب بالبضائع الى بندر جدة نحو من ست سنين ، وكذلك جهة دمياط »(٣٣١) •

الاجــراءات الجمركيــة :

واذا كانت المصادر التى بين ايدينا لم توضح لنا الاجراءات الجمركية التى كانت تتبع فى ميناء جدة ، فاننا اعتمادا على ما كان متبعا فى معظم الموانىء التى خضعت لحكم سلاطين المماليك ، نستطيع القول أن السفن التجارية خضعت لنظام دقيق فى جمرك جدة واجراءات حكومية عدة ، ومن المحتمل أن تكون ادارة الجمارك قد منحت للتجار القادمين اليها وبخاصة تجار الهند والصين باعتبارهم غرباء عن البلاد مخازن حكومية كبيرة ، وتتولى هيئة الجمرك حراسة السلع الموجودة بها نظير رسم معين يدفعه التجار للسلطات ، وللتجر الحرية فى أن يترك بضاعته ويحملها معه أينما شاء • ولدى وصول السفن الى جدة يصعد عليها عمال السلطان ويبدءون فى مباشرة أعمالهم وهى على ثلاث مراحل ، أولها معرفة جنسية السفينة ، وعمل احصاء بعدد المسافرين عليها ، وكتابة قائمة بأسمائهم والسلع التى يحملونها ، ثم تبليغ كل هذه المعلومات للجهات المسئولة فى جمرك جدة • وثانيهما أنه بعد أن تدخل السفينة الميناء ترفع عنها أشرعتها ودفتها وتحفظ لدى السلطات المحلية لحين التحقق من بياناتها ، ودفع ما عليها من رسوم ، ثم السماح للربان والركاب بالنزول للميناء • ثم تأتى المرحلة الثالثة والتى تبدأ فيها جباية الرسوم المقررة ، ومن المؤكد أن ميناء جدة اختلف عن بقية موانىء السلطنة المملوكية فى عدم جباية جزية الرأسى والتى كان يدفعها التجار من غير المسلمين لأنهم كانوا ممنوعين من دخول جدة • ومن المرجح أنه كان يتم تحصيل رسم دخول والذى كان يقدر بحوالى ٢٪ من قيمة السلع المحمولة على السفينة(٣٣٢) •

وينبغى أن نذكر أنه فى عصر سلاطين المماليك كان يتم تحصيل ضرائب على شكل زكاة من التجار المسلمين ، وربما حدث ذلك أيضا فى جدة ، وهى فى الواقع ليست زكاة بل هى ضرائب وتأخذ صفة الزكاة الواجبة على كل مسلم ، ومثل هذه الاموال لم تكن من ابتكار المماليك بقدر ما كانت موروثـة من عصـور سالفة(٣٣٣) ومثل هذه الأموال كانت تعتبر مكوسـا غير شرعية . منها مقـرر المراكب ، وهو ما يؤخذ عن كل مركب وزكاة الدولة ، وهو ما يؤخذ عن الرجل من زكاة ماله ولو عدم ، واذا مات يؤخذ من ورثته(٣٣٤) كذلك قامت السلطات المحلية بتحصيل زكاة معلومة من متجر الكارمية كلما حال عليه الحـول ، ولم يحدد المؤرخون المعاصرون قيمة هذه الزكاة ومنهم القلقشندى الذى قال « أنها تجرى مجرى سائر متحصـل الاسـكندرية »(٣٣٥) . ثم يتم انزال السـلع وتفتيشها لتقدير الجمارك عليها ، والتى بلغت ١٠٪ فى معظم الأحوال وكما سبق أن أشرنا . ومن المرجح أن ما يعرف باسم اقرار الحيزة قد حل محله عمليـة استحلاف التجار والركاب بأنه ليس عندهم الا ما وجد معهـم ، وهو ما كان متبعا فى كل موانىء وجمارك المدن التى خضعت لحكم سلاطين المماليك(٣٣٦) .

كذلك لا ندرى هل وجد فى محرك ميناء جدة ما كان متبعا فى الموانىء الأخرى من وجود موظفين أجانب يمثلون جماعات التجار الهنود والصينيين وتعينهم حكوماتهم بموافقة السلطان المملوكى ، ويقتصر نشاطهم على دائرة الجمرك ، يراعون أن مواطنيهم التجار لا يدفعون فى السلعة أكثر من ثمنها ومرة واحدة ، ويمسكون سجلات للمبيعات والمشتريات لمواطنيهم لمقارنتها بسجل السلطات المحلية ، ويعملون أحيانا كضامنين للتجار من مواطنيهم الذين يتركون المدينة وعليهم ديون للجمارك ، أو لهم أو عليهم أموال للتجار الوطنيين ، مثلما كان الحال فى معظم موانىء مصر والشام والتى كان يتردد عليها تجار من بلدان مختلفة . يضاف الى هذا أنه اذا قد نسب لعمال الجمارك اذ ذاك التشدد فى جمع الرسوم وتحصيلها ، أو دقة التفتيش أو التحقق من شخصية الوافدين وبخاصة منذ أواخر القرن العاشر الهجرى ، السادس عشر للميلاد ، فهذا يرجع لحالة الحرب بين سلطنة المماليك والبرتغاليين فى المياه الهندية ، وليس هذا الا حرصا من الدولة على مصالحها وأمنها(٣٣٧) ومع هذا فانه بمقدورنا أن نؤكد على أن المعاملة التى كان يلقاها التجار فى ميناء جدة طوال هذ الفترة التى نتحدث عنها كانت أفضل بكثير ، من تلك التى كانوا يلقونها

فى كثير من الموانىء الأخرى مثل عدن ، ولنضرب بعض الأمثلة على ذلك مما ورد فى المصادر المعاصرة ، حيث يذكر لنا مؤرخ مكة ابن فهد فى حوادث سنة ٨٣٢ هـ/ ١٤٢٩م عبارة « المراكب المجورة عن عدن من الهند ... » وفى لفظة «المجورة» خير دليل على هروب هذه المراكب من الرسو فى عدن[٣٣٨] وما حدث عام ٨٣٥هـ/ ١٤٣١م عندما وفدت سفينة من سفن الصين الى سواحل عدن ، وأرسل ربانها الى جدة يستأذن فى القدوم اليها ، لبيع ما تحمله سفينته من متاجر بها لهو خير دليل على تفضيل هذا الربان الرسو فى جدة على الرسو فى عدن[٣٣٩] .

واذا كنا قد أشرنا فى الصفحات السابقة عن الاعفاءات الجمركية التى شهدتها الفترة الأولى من حياة مدينة جدة ، فهنا يجب أن نذكر أن المصادر لم تشر الى ذلك الا نادرا ، كأن ذلك كان شيئا مألوفا أن يحدث ، ومع هذا نستطيع أن نؤكد أن جميع ما كان يتم جلبه الى جدة فى هذه الفترة للمهم الشريف أى ركب أمير الحاج المصرى ، من سائر الأصناف برا وبحرا من مأكولات وأصناف أخرى وقرب للمياه أو مشروبات سكرية،وغير ذلك كان لا يتعرض اليه أحد من أهل المكس مطلقا بوجه من الوجوه[٣٤٠] .

أما عن موضوع الاعتداء على سفن التجارة فى البحر الأحمر ، فقد كان مما أولته دولة سلاطين المماليك اهتماما خاصا،لدرء خطر تهجم القراصنة واعتداءاتهم على الركاب ، ونهب السفن وما عليها من سلع،لذا قام بالحراسة فى البحر الأحمر أسطول حربى مملوكى ، كما أن بعض سفن الصين وغيرها كانت تأتى فى حراسة سفن حربية،أو عليها بعض المحاربين المزودين بالأسلحة للدفاع عنها وعن الركاب والبضائع[٣٤١] .

النشاط الزراعى والرعوى :

قبل الحديث عن النشاط الزراعى والرعوى فى جدة فى العصر المملوكى ، يجب أن نشير الى أن المعلومات التى وصلتنا من خلال المصادر والمراجع التى أتيح لنا فرصة الاطلاع عليها معلومات قليلة جدا ، الا أننا سنحاول من خلال هذه المعلومات أن نلقى بعض الضوء عن ذلك النشاط وأول ما يسترعى انتباه الباحث فى هذا المجال هو عامل المناخ وأثره فى الحياة الزراعية والرعوية لا فى

جدة فحسب بل فى اقليم الحجاز ككل • هذا المناخ الذى يميل بشكل ملحوظ الى الجفاف ، والذى يسيطر على أغلب منطقة الحجاز بوجه عام وعلى جدة بوجه خاص وقد يبدو هذا غريبا اذا أدخلنا فى اعتبارنا أن اقليم الحجز يحيط به مسطح مائى وهو البحر الأحمر فى الغرب • وهو امتداد مائى يبدو للوهلة الأولى أنه كفيل بما ينتج عنه من بخر ، أن يجعل المنطقة أميل الى الرطوبة النسبية للمطر • ولكن بعض العوامل الطبيعية حالت دون هذه النتيجة المفترضة ، ومن ثم أدت الى الجفاف الذى أصبح السمة المناخية الغالبة على هذه المنطقة • وذلك راجع الى أن البحر الأحمر فى الغرب لا يشكل فى حقيقة الأمر الا سطحا ضيقا اذا قيس ببعض البحار الداخلية مثل البحر الأبيض المتوسط أو البحر الأسود،أو المسطحات المائية الهائلة مثل المحيطات ، ومن هنا فان أثره من حيث الرطوبة غير كاف لكسر حدة الامتداد الصحراوى الجاف • كما أن رياح السموم الحارقة تستوعب أغلب هذا البخر وتحول دون تحوله الى أمطار ومن ثم تقضى على أثره ، وقد نتج عن هذا أن منطقة الحجز أصبحت بادية صحراوية قد لا يصيبها المطـر لفترات طويلة(٣٤٢) •

هذه الحقيقة المناخية هى التى جعلت الرحالة الذين زاروا هذه البلاد أو المؤرخين والجغرافيين الذين تحدثوا عنها يصفونها بالفقر حينا وعدم الخصوبة أحيانا أخرى،فقد وصفها أحد الرحالة الفرس بقوله:«بلاد العرب قليلة الخصب، ويسكن أهلها الصحراء ويملكون الدواب والمواشى ويقيمون فى الخيام» • وفى وصفه لمدينة جدة يقول : «وليس فى جدة شجر ولا زرع،وكل ما يلزمها يحضرونه اليها من القرى • وبينها وبن مكة اثنا عشر فرسخا»(٣٤٣) • كما أن هذه الظاهرة المناخية تفسر لنا السر فى كثرة عدد صهاريج المياه بمدينة جدة ، حيث كانت جدة منذ القدم تعتمد على هذه الصهاريج لحفظ الماء فى أيام المطر ، وتخزينه الى وقت الحاجة فقد ورد فى احدى الرحلات المغربية التى تمت للمدينة عام٥٨٨هـ/١١٨٣م أنه « بخارج هذه البلدة مصانع — أى صهاريج للماء — قديمة تدل على قدم اختطاطها ويذكر أنها كانت من مدن الفرس وبها جباب منقورة فى الحجر الصلد يتصل بعضها ببعض ، تفوق الاحصاء كثرة وهى داخل البلد وخارجه ، حتى أنهم يزعمون أن التى خارج البلد ثلاث مئة وستون جبا ، ومثل ذلك داخل البـلد ، وعاينا نحن جملة كثيرة لا يأخذها الاحصاء » • بما يرجح أن أهل جدة استغلوا

هذه الصهاريج والآبار كثيرة المياه فى الزراعة والرعى[٣٤٤] • كما قال عنها رحالة مغربى آخر زار المدينة عام ٧٣٠هـ/١٣٢٩م « وصلت جدة ، وهى بلدة قديمة على ساحل البحر يقال انها من عمارة الفرس ، وبخارجها مصانع قديمة ، وبها جباب للماء منقورة فى الحجر الصلد يتصل بعضها ببعض تفوت الاحصاء كثرة ، وكانت هذه السنة قليلة المطر ، وكان الماء يجلب الى جدة على مسيرة يوم ••• »[٣٤٥] كذلك ذكر الحضراوى : « أن الله تعالى جعل سقيا أهلها من ماء السماء وبركاتها، وليس بها بئر ولا نهر عزب المطر » لذا فقد حرص أهلها على اتخاذ العديد من الصهاريج خارج المدينة فى مجرى السيول المنحدرة من الأودية والجبل[٣٤٦] وقد سبق أن أشرنا الى قول ابن المجاور الذى زارها حوالى عام ٦٢١هـ/١٢٢٠م من أنه كان يوجد فى جدة خمسمائة صهريج بباطن البلد وبظاهر البلد مثلها ، أى أن عدد الصهاريج بها قد بلغ ألف صهريج زعمه ، منها صهاريج عامة يستفيد منها ومن مائها عامة الناس ومنها صهاريج خاصة[٣٤٧] •

كما أن هذه الحقيقة المناخية ربما فسرت لنا نظام « الحمى » أو الأحماء الخاص بالمراعى ، ويقصد بها المواضع التى فيها كلاء وتحمى من الناس أن يرعوا فيها[٣٤٨] أو حسبما يذكر السمهودى مؤرخ المدينة المنورة أنه « موضع من الموات يمنع التعرض له ليتوفر فيه الكلأ ، فترعاه مواشى مخصوصة »[٣٤٩] • أى أنه ملكية يستغلها رئيس احدى القبائل للاستفادة منه له ولقبيلته • ويوضح لنا الامام الشافعى بداية ظهور هذا النظام وكيفيته بقوله : « كان الرجل العزيز من العرب اذا انتجع بلدا مخصبا أوفى بكلب على جبل ان كان به ، أو نشز ان لم يكن به جبل ، ثم استعواه ووقف له من يسمع منتهى صوته بالعواء فحيث بلغ صوته حماء من كل ناحية فيرعى مع العامة فيما سواه ويمنع هذا من غيره لضعفاء سائمته وما أراد قرنه معها فيرعى معا • » ، أى أن نظام الحمى هذا يمثل عملية تحويل الأراضى المشاع الى ملكية خاصة عن طريق القوة والسطوة والسيطرة والجاه[٣٥٠] •

أما عن نشاط البدو فى المناطق التابعة لجدة والقريبة منها ، فينبغى أن نذكر أن الرحالة المغربى ابن جبير قد أشار اليهم اشارة عابرة عندما قال : «وأكثر سكان هذه البلدة مع ما يليها من الصحراء والجبال أشراف علويون ، حسنيون وحسينييون وجعفريون ، رضى الله عن سلفهم الكريم • وهم فى شظف من العيش بحال

يتصدع له الجماد اشفاقا ، ويستخدمون أنفسهم فى كل مهنة من المهن : من اكراء جمال ان كانت لهم،أو بيع لبن أو ماء الى غير ذلك من تمر يلتقطونه أو حطب يحطبونه وربما تناول ذلك نساؤهم الشريفات بأنفسهن،فسبحان المقدر لما يشاء ...»(٣٥١) . وفى العصر المملوكى كانت قبائل الأشراف هذه قد تفرعت عنها فروع منها آل أبى نمى ، وآل على ، وآل عبد الكريم ، والأدارسة حسبما يذكر لنا ذلك أحد مؤرخى مكة المعاصرين ، وان لم يزد على ذلك(٣٥٢) .ومن فروعهم أيضا آل بركات، وآل خليفة وكانوا يسكنون وادى فاطمة ، وكذلك عنهم آل حراز بين جدة وبحرة(٣٥٣) .

كما نستطيع أن نميز بين عدة قبائل أخرى غير الأشراف ، ففى المنطقة القريبة من جدة والتى تعرف بالسيل كانت تقيم بعض القبائل البدوية ، منها قبيلة عتيبة وقبيلة هذيل ، ويذكر لنا بعض الرحالة أن قبيلة عتيبة هذه كانت من أغنى القبائل ، فهى تملك كثيرا من الجمال والنياق والغنم والمعز ، بل لديها عدد كبير من الخيول النجدية الشهيرة . كذلك يذكر أن بعض القبائل الأخرى كانت تزرع البرسيم والنخيل مثل قبيلة لحيان التى كانت تعتمد فى زراعتها هذه على مياه العيون والآبار المتوفرة فى بعض الوديان القريبة من جدة(٣٥٤) ويحدثنا الادريسى عن بعض هذه الأودية وكثرتها فى وصفه للمنطقة الواقعة بين جدة ومكة ، والقبائل العربية التى نزلتها فيقول أن المسافر بينهما اذا خرج « عن مكة فى كل جهة تلقاه أودية هناك جارية وعيون مطردة وآبار غدقة وحوائط كثيرة ومزارع متصلة .. » ، وفى موضع آخر يتحدث عن قبيلة جهينة التى كانت تسكن المنطقة التى كانت تعرف ببطن مر « هو منزل فيه عين ماء فى مسيل رمل وحوله نخيلات يأوى اليه قوم من العرب . ومن بطن مر الى عسفان ثلاثة وثلاثون ميلا وعسفان حصن بينه وبين البحر نحو من عشرة أميال وبه آبار ماء عذبة ويسكنه قوم من جهينة »(٣٥٥) .

ومن القبائل العربية التى ورد ذكرها كثيرا فى مصادر العصر المملوكى كانت قبيلة حرب(٣٥٦) ، وجدير بالملاحظة أن موطن هذه القبيلة الكبيرة فى بلاد الحجاز حيث تمتد مساكنها من جنوبى ينبع الى القنفدة على محاذاة الساحل وحول المنطقة الجبلية الممتدة من المدينة المنورة الى مكة المكرمة الى قرب جبل أبانيل ، وقد قسمهم بعض الباحثين الى ستة بطون ، منها بنو على ، حيث تقيم بعض

أفخاذهم فى الحجاز ، وبنو سالم وهم من أكبر أقسام حرب ، منهم من يقيم بالحجاز كالأحامدة بين المدينة المنورة وينبع ، ومنهم صبح فى جبل صبح وبدر ، ومنهم الحمران بين مكة المكرمة وجدة ، وبنو جابر بين مكة وجدة ، وبشر فى وادى فاطمة[٣٥٧] ومن قبيلة حرب أيضا بطن كبيرهم زبيد ، وهم غير زبيد اليمن ، كانوا يسكنون المنطقة الساحلية من جنوب جدة الى ينبع ، وكانت فيهم امارة حرب[٣٥٨] كما عاشت جماعات منهم الى الشرق من جدة فى أكواخ مبنية من جريد النخل وسعف النخيل ، وهؤلاء كانوا يمدون جدة بما تحتاجه من الحليب والزبد والتمور[٣٥٩] .

وتجدر الاشارة الى أن المناطق التى عاشت فيها هذه القبائل كانت تعتبر من أهم المناطق التى زودت مدينة جدة بالمادة اللازمة لصناعة الخسف ، والتى كانت تعتمد على أوراق شجر النخيل التى تجفف وتشذب بحيث تتحول الى قطع مستطيلة من السعف ، تصنع منها البسط التى كانت تسمى الخسف التكرونى ، كما كان يصنع منها الزنابيل وهى الأوعية الكبيرة التى توضع فيها الحبوب من الأرز والحنطة والدخن والشعير ، حيث تتصدر حوانيت باعة البذور ، كما كان يصنع من هذا السعف الزنابيل الصغيرة التى تحمل فيها متطلبات العائلة اليومية ، من خضار وحبوب ولحم وما اليها[٣٦٠] ونظرا لكثرة ما تملكه القبائل البدوية هذه من أعداد كبيرة من أشجار النخيل ، فانهم كانوا يقومون بتعبئة التمور بعد اكتمال نضجها فى سلال كبيرة ضاغطين عليها لتقليل حجمها ، مكونين منها كعكات مستديرة ، يبلغ وزن الواحدة منها حوالى مائتى رطل ، ثم يقومون بارسال هذه التمور الى مكة المكرمة وجدة . ومنهم من يقوم ببيع هذه التمور التى تسمى بالعجوة أيضا فى سوق جدة بنفسه ، ويقوم بتقطيعها بسكين كبير ، وهذه العجوة كانت تشكل جزءا أساسيا فى الوجبات اليومية لكثير من طبقات مجتمع مدينة جدة وحتى فترة زمنية وجيزة مضت[٣٦١] كما تشير بعض المراجع الى أن بعض هؤلاء البدو كانوا يسكنون فيما وراء باب مكة ، أحد أبواب مدينة جدة القديمة ، وأن حرفتهم الاساسية هى تأجير ما لديهم من ابل لكل من يريد السفر الى مكة أو الى المدينة المنورة ، وأن هؤلاء البدو كانوا يعيشون فى خيام أو أكواخ عديدة على جانبى الطريق المؤدى الى مكة . كما أن بعض هؤلاء البدو كانوا يقومون بجمع الحطب من مسافة ليست بعيدة

عن جدة فى المناطق الجبلية القريبة منها • وأن قبيلة حرب كانت تحتكر عملية نقل المعتمرين والحجاج من جدة الى مكة منذ أمد طويل ، كما أن بعض البدو من قبيلة لحيان وهم بطن من هذيل كانوا ينزلون فى البادية على جانبى الطريق الممتدة من جدة الى مكة ، وكانوا يرتزقون من خدمة المعتمرين والحجاج بتقديم الماء والاطعام لهم(٣٦٢) •

وجدير بالذكر أن أشجار النخيل بالنسبة لهؤلاء البدو قد اكتسبت أهمية خاصة ، فهى التى تحمل التمر ، أكثر الفواكه شيوعا وتنوعا فى الانتفـاع به لديهم ، بل ان من مظاهر هذه الاهمية أن ثروة القبيلة أو الفرد فيها كانت تقاس بمقدار ما يملك من نخيل الى جانب الجمال • ولقد اهتم هؤلاء البدو بزراعة أنواع مختلفة من النخيل تحمل أنواعا مختلفة من التمر • كذلك كان الجمـل بالنسبة لهؤلاء البدو رمز الحياة ، فالبدوى يشرب لبن الناقة أى أنثى الجمل ، ويأكل لحم الجمل ويغطى نفسه برداء مصنع من جلده ، ويصنع خيمته من وبره ، ويستخد مبعره وقودا فى أغراض الطهى أو التدفئة ، كما أن الجمل هو الوسيلة الاساسية للمواصلات ، بل الوسيلة الوحيدة للمواصلات البعيدة ، بل يمكننا انقول أن الجمل كان يمثل العملة الصعبة — ان جاز لنا هذا القول — فى المعاملات فهو المهر الذى يدفع لأهل العروس ، والدية التى يتقاضاها أهل القتيل • ثم يأتى الحمار فى مرتبة أدنى من الجمل ثم الحصان الذى يعتبر دابة ترف لأهل البادية ، وأخيرا الأغنام والماعز والكلاب اللازمة للحراسة(٣٦٣) •

واذا كان الرعى يشكل المورد الاساسى لهؤلاء البدو ، فانه بأية حال من الأحوال لم يكن موردهم الوحيد ، فقد أشرنا الى زراعتهم لأنواع مختلفة من النخيل ، حصلوا منها على التمر الذى يعتبر الغذاء الاساسى لهم ولدوابهم ، ومورد رزق لهم فى نفس الوقت ، كما انتفع بعضهم بمرور قوافل الحجاج فى أراضيهم ، وقدموا اليهم ما يحتاجون من خدمات لقاء مبالغ دفعـوها لهم • فضلا عن أن هؤلاء البدو لمتاخمتهم مدينة جدة قد قاموا بنوع من التبادل التجارى مع المدينة ، حملوا اليها بعض نتاج البادية من الاغنام أو وبر الجمل الذى يصلح لبعض أنواع النسيج ، وحصلوا منها على بعض السلع التى يحتاج اليها أهـل البادية ، بل أنهم شاركوا فى الاحداث السياسية بنصـيب كبير وبخاصـة فى

الصراعات التى قامت بين الأشراف الحسنيين من أمراء مكة طوال ذاك العصر[٣٦٤] .

واذا كانت مدينة جدة كما وصفها الرحالة والجغرافيين والمؤرخين المعاصرين فقيرة فى الزراعة وتعتمد على مياه الامطار والعيون مثلها مثل بقية اقليم الحجاز ، فانه تضافرت عدة عوامل لتعوضها عن هذا الفقر قبيل هذا العصر الذى نتحدث عنه ، اذ يذكر الرحالة ابن جبير أنه « قد جلب الله اليها من المغاربة ذوى الأبصار بالفلاحة والزراعة فأحدثوا فيها بساتين ومزارع ، فكانوا أحد الاسباب فى خصب هذه الجهات ، وذلك بفضل الله عز وجل ، وكريم اعتنائه بحرمه الكريم ، وبلده الأمين »[٣٦٥] والظاهر أن المغاربة انتشروا فى بقعة عريضة حول جدة ومكة المكرمة سواء للتجارة أم للزراعة ، وأنهم وصلوا فى انتشارهم الى حلى بنى يعقوب ، فقد جاء فى رسالة من وثائق الجنيزا كتبها ابن الى أمه يخبرها بوصوله الى قوص فى مصر ، وأنه سأل عن أولاد عمه فأخبره رجل أنهم فى عافية فى بلد يقال له حلية[٣٦٦] وقد ذكر ياقوت أن حلية هى حلى بنى يعقوب[٣٦٧] .

وهكذا رأينا أنه توفر لجدة العنصر البشرى الضرورى لقيام الزراعة بما اديه من خبرة فى هذا المجال ، أما عن المناطق الزراعية أو الاراضى الصالحة للزراعة فيمكننا القول أنها كانت كثيرة أيضا ، حيث كانت المناطق المتاخمة لها خصبة وصالحة للزراعة ، أى أنها كانت بمثابة الظهير الزراعى الذى تستمد منه جدة كل احتياجاتها . من هذه المناطق منطقة الوديان الموجودة بين جدة ومكة، ولعل أشهرها كان وادى مر الذى كان يقع على طريق حجاج مصر والشام ، على مسيرة يوم واحد أو أقل من مكة[٣٦٨] وبمقاييس عصرنا الذى نعيشه الآن فانه يقع على مسافة أربع وعشرين كيلو مترا شمال مكة المكرمة على طريق الجارة المؤدية الى المدينة المنورة[٣٦٩] ووادى مر هذا هو الذى كان يعرف تحت اسم « مر الظهران » ، ويطلق عليه الآن اسم « وادى فاطمة » والذى يعد من أعظم أودية الحجاز وأهمها[٣٧٠] . وقد أجمع المؤرخون والرحالة والجغرافيون المسلمون طيلة العصر المملوكى بل والعصر الذى قبله على خصوبة هذا الوادى ، وأهميته الفائقة كأحد مصادر الفواكه والخضروات والحبوب

لأهل جدة ومكة المكرمة ، كما أشادوا بكثرة نخيله وقراه العديدة ووفرة عيون مائه التى كانت أساس الزراعة فيه(٣٧١) .

فمن الأمثلة العديدة على عيون الماء التى ورد ذكرها فى المصادر المعاصرة بهذا الوادى كانت عين سروعة ، وهى عين بمر الظهران شمال الحديبية ، اندثرت فيما اندثر من عيون مر الظهران فى سبعينيات القرن الرابع الهجرى ، العشرين للميلاد ، وقد سمى الوادى الذى تجرى فيه باسمها ، بل هى أقدم عيون مر الظهران . كذلك كانت « الخضراء » من وادى مر احدى العيون التى زرعت حولها منطقة فسيحة سميت باسمها وأمدت جدة بكثير من منتجاتها الزراعية سواء من الحبوب أم الفواكه والخضروات(٣٧٢) .

كذلك من الأمثلة العديدة على القرى الكثيرة بهذا الوادى قريــة « أبى عروة » وهى قرية بها نخل كثير ومزارع وتسقى من عين عذبة ، وينزلها الحاج الشامى ذهابا وايابا(٣٧٣) وقرية « بجير » ، وهى قرية لطيفة من أعمال هدة بنى جابر يسكنها عرب من القحطانية ، فيها نخيل وعين ماء عذبة . ومن قرى هذا الوادى أيضا تشير بعض المصدر الى قرية البرقة ، « وهى قرية حســنة بين خيف بنى شديد وأبو عروة ، بها نخيل ومزارع خضرة نضرة ، وبها حصــن كبير أو قصر يسكنه أمير مكة »(٣٧٤) .

ومن الأماكن القريبة من جدة والتى كانت بمثابة الظهير الزراعى لها ، تلك المنطقة المعروفة بساحل تهامة بين جدة وحلى بنى يعقوب ، حيث بهــا بعض الأودية التى تتوفر فيها زراعة الذرة والسمسم . من هذه الأوديــة ، وادى دوقة ، وهو من الأودية الخصبة التى تجود فيها زراعة كثير من أنواع الحبوب مثل الذرة والسمسم وغيرها ، ولا تزال هــذه المنطقــة تعــرف الى اليــوم « بالسرير » . وربما تكون هذه اللفظة تصحيف للسرين ، وهى عبارة عن تل رملى يقع فى طرفه الغربى ميناء طبيعى لا يزال يستعمل حتى الآن من قبل خفر السواحل وبعض صيادى الأسماك وكمــا يــذكر ذلك أحــد المؤرخيــن المحدثين(٣٧٥) .

وتعتبر السرين فرضة أو ميناء السروات التى يصفها المقدسى « بأنها معدن الحبوب والخيرات والتمور ... والعسل الكثير ... »(٣٧٦) وقد أسهمت السرين

مساهمة كبيرة فى تزويد جدة ومكة بكثير من احتياجاتهما من المواد الغذائيـة وبخاصة من الحبوب ، فعن طريق هذا الميناء كانت كثير من خيرات بلاد السروات تأخذ طريقها الى جدة ثم مكة ، كما كانت تجلب اليها مختلف أنواع الحبوب من كثير من مدن اليمن(٣٧٧) .

ومن المناطق الزراعية التى أمدت جدة ببعض احتياجاتها أيضا تأتى منطقة « القرين » ، والتى يتضح من بعض المصـادر المعـاصرة أنها كانت عامـرة بالبساتين وأشجار النخيل ، وذلك لوفرة المياه اللازمة للزراعة ، حيث أنه كان بها بئر طيبة الماء عذبة ، وهى تقع فى منتصف الطريق بين جدة ومكة المكرمة ، وأنه عندما كان يقل الماء فى منطقة « حدة » فان أهل حدة كانوا يستقون منهـا . كذلك كانت منطقة « حدة » من المناطق الزراعية الهامة لأهل مدينة جدة ، وقيل انما سميت « حدة » بهذا الاسم لأنها آخر حدود وادى نخلة ، وان كان هناك رأى آخر بأنها آخر حدود وادى الصفراء(٣٧٨) .

كذلك كانت المنطقة السهلية القريبة من جدة والتى بها عدد كبير من القرى تمد جدة باحتياجاتها من الانتاج الزراعى ، وربما اشتغل المغاربة فى هذه القرى بالزراعة والذين سبق أن أشار اليهم ابن جبير . هذه المنطقة كانت تبعد حوالى ستة فراسخ عن جدة فى سهل غير بعيد عن « بحرة » ، وبحرة هذه كانت من أهم المناطق الزراعية الشهيرة فى تلك المنطقة الساحلية السهلية ، والتى زودت جدة ومكة بكثير من منتجاتها الزراعية فى تلك الفترة ، بل وحتى بدايـة العصر الحديث . وقد اشتهرت بحرة بأنها مزرعة كبيرة يجلب منها فواكه كثيرة وبخاصة البطيخ ، كما أنها كانت تقع فى وهدة من الأرض تجتمع فيها مياه السـيول مما جعلها من المناطق الزراعية الهامة(٣٧٩) .

أما عن الحاصلات الزراعية فى جدة واقليم الحجاز بوجه عام ، فقد كانت أهم الحاصلات التى تزرع ، هى البر والشعير والذرة ، والفواكه وأهمها العنب والبطيخ ، والرطب ، والموز ، ولما كانت أشجار النخيل تزرع متفرقة ، وتترك بينها مساحات خالية ، فكان ذلك فرصة لقيام زراعات محصولية أخرى ، وتلك حقيقة مازالت قائمة فى زراعات النخيل ، وأهم ما كان يزرع فى تلك المساحات الشعير ، وكان عليه اعتماد أهل جدة بعد التمر ، وكان محصوله يسد جانبا كبيرا من احتياجاتهم من الحبوب(٣٨٠) كما تجدر الاشارة الى أن وسائل الزراعة والاساليب

المستخدمة فيها لم تختلف عما كان سائدا فى كثير من بلدان المشرق العربى ، بدليل أن الرحالة الذين زاروها لم يذكروا شيئا عن ذلك لانهم لم يجدوا شيئا غير مألوف لهم حسب اعتقادنا • الا أننا يجب أن نشير الى طريقة توزيع المياه فى القرى والمناطق الزراعية حيث وردت فى المصادر كلمة « وجبة » بمعنى الحصة أو النصيب فى توزيع المياه اللازمة للرى • حيث جرى العرف فى ذلك الزمان والى الآن ، أن يوزع الماء بين مستحقيه بالوجبة أو الحصة ، وكانت كل وجبة أو حصة تستغرق عدة ساعات ، ومعنى هذا أنه كلما زادت ساعات الوجبة كما دل ذلك على مدى ثراء مالك الأرض وسعة أرضه ، والعكس صحيح • ولقد أورد مؤرخ مكة تقى الدين الفاسى مثلا لهذا النظام فى ترجمته لمحمد بن عمر بن على ابن ابراهيم الحلى ، نسبة الى البلدة المعروفة بحلى بنى يعقوب ، وهو الذى توفى سنة ٧٨٢هـ/١٣٨٠م ، وكان أحد التجار المعتبرين ، وملك عقارا طائلا بخيف بنى شديد وغيره ، وأن الذى ملكه فى الخيف من الماء أربعة وثمانون ساعة ، وأنه كان يشترى الساعة بخمسة آلاف درهم ، كذلك ملك فى البرقة نحو خمسين ساعة ماء ، ومعنى هذا أن صاحب هذه الترجمة كان كثير المال والأراضى الزراعية بحيث أنه كان يشترى هذا القدر الكبير من الساعات لرى مزارعه(٣٨١) •

كذلك من المؤسف حقا أنه لم تصلنا أية اشارات فى المصادر المعاصرة عن المعاملات العديدة المتعلقة بالزرع والزراعة ، خصوصا وأن بلاد الحجاز بوجه عام اختلفت عن بقية دولة سلاطين المماليك سواء فى مصر أم الشام من حيث نظام الاقطاع الزراعى الذى ساد هذه البلاد • ذلك أن شبه الجزيرة العربية بوجه عام عرفت قبل الاسلام الكثير من الانواع العديدة من المعاملات التى اتصلت بالزرع والزراعة ، والتى لم تشر المصادر المعاصرة اليها من قريب أو بعيد ، وهى معاملات كانت على جانب كبير من التنظيم والتقنين • ومن بين هذه المعاملات ، على سبيل المثال ، المحاقلة ، أى استئجار الأرض نظير مبلغ معلوم أو ما يقوم مقامه من المحصول • الى جانب المزارعة وهى الاتفاق على أن يزرع شخص أرض شخص آخر لقاء نسبة معلومة من الثمر أو الحصاد يتفق عليها ، على أن تكون البذور من مالك الأرض الزراعية ، بالاضافة الى المخابرة وهى على نمط المزارعة ولكن تكون البذور على الزارع ، وفى بعض أنواع

الايجار المتعلق بالأرض المزروعة مدة معينة تكون هناك شروط من بينهـا مثلا أن يكون للمالك حق اطال العقد اذا أظهر المستأجر تباطؤ أو تكاسلا أو اهمالا فى استغلال الأرض • كذلك كانت هناك المعاملة على القصارة وهى ما تبقى فى السنابل من الحب بعد التذرية فيكون هنك اتفاق يجعل هذه القصارة من نصيب الذارى أحيانا ومن نصيب صاحب الزرع فى أحيان أخرى • وهناك معـاملة المساقاة وهى الاتفاق بين طرفين على قيام أحدهما بتوصيل الماء الى أرض الآخر ، مقابل تعهد يقدمه الطرف المستفيد من الماء الى صاحب الماء بجزء من المحصول أو أى شىء آخر ، وربما دخل نظام الوجبة الذى سبقت الاشارة اليه فى هذا النظام[٣٨٢] • كذلك ما يتعلق بالحاصلات الطبيعية التى كانت تنمو وسط الأعشاب وفى الأحراش والغابات ، وأهمها نباتات الطيوب والتوابل ، والتى كانت تلقى اقبالا شديدا فى استخداماتها محليا أو تصديرها الى كثير من مناطق الطلب عليها وبخاصة الى الغرب الأوربى لم نعثر فى مصادرنا المعاصرة على ما يوضح ذلك • مع هذا يبقى الأمل فى أن تكشف لنا الأيام عن كثير من هـذه الأمور التى هى فى حاجة الى جهود الكثير من المتخصصين والمخلصين من أبنـاء هـذه الأمـة •

النشاط الصناعى فى جدة ، أهم الصناعات ومقوماتها : —

فى تاريخ بلادنا العربية جوانب كثيرة تحتـاج من الباحثين الى تكثف الجهود للكشف عنها ، وبخاصة أن الجهود التى بذلت تركزت ومازالت تركز على الجانب السياسى ، دون التركيز على الجوانب الحضارية بوجه عام والاقتصادية بوجه خاص • وقد يكون هنك بعض العذر لسهولة الدراسـات التى تتعـلق بالجوانب السياسية ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى للفكرة الشائعة عن نظرة العرب بوجه عام الى العمل اليدوى ، وهى أنهم برغم حاجتهم الى السلع المصنعة ذاتها ، ورغم تغنيهم بها فى أشعارهم ، الا أنهم كانوا يعتبرون ممارسة العمل فى صنع هذه السلعة أمرا متدنيا فى قيمته كمهنة يحترفونها ، وعلى حد قول أحد الباحثين ، أنه لا يليق بالعربى الحر أن يكون صانعا لأن الصناعة من حرف العبيد والخدم والأعاجم والمستضعفين من الناس[٣٨٣] وهى فكرة يبدو أنه كان لها تأثيرها فى صرف أنظار الكثيرين عن البحث فى هذا المجال ، فضلا عن أنهـا تخالف الواقع فى مدينة جدة •

وبالرغم من ندرة المعلومات وتشتتها فى المصادر المعاصرة من جهـة ، ومن جهة أخرى لعدم اهتمام كثير من مؤرخى هذ الفترة بافراد ولو بضع صفحات عنهـا ربما بسبب صغر حجم المدينة آنذك ، أو لأنها أشياء قد تكون مألوفة للمعاصرين ، الا أننا سوف نلقى بعضا من الضوء على أهم الصناعات التى أهتم بها أبناء مدينة جدة فى ذلك العصر ، والتى أدت دورا هاما فى الحياة الاقتصادية آنذاك • وهى صناعة بناء السفن ، وصناعة دباغة الجلود ، وصناعة الحلوى ، وصناعة الحصير والسعف ، وأعمال النجارة الدقيقة والخراطة ، وأعمال الجص ، والصناعات الفخـارية ، وصناعة المسـابح من اليسر ، وغيرها من الصناعات الأخـرى •

صـناعة بنـاء السـفن :

من المعروف أن شبه الجزيرة العربية لا تنتج أى نوع من الأخشاب الصلبة الطويلة التى تصلح لبناء السفن ، ومع هذا فقد عرف عرب شبه الجزيرة بوجه عام صناعة بناء السفن منذ قديم الأزمان ، واستخدموها فى الطرق البحـرية المختلفة وبخاصة فى التنقل بين الموانىء المتقابلة على البحر الأحمر وبين مصر وشبه الجزيرة ، اذ يكشف أقدم نقش عربى وجد فى مصر يرجع الى العصر البطليمى « ٣٠١ — ٣٠ ق•م » ، مدون على تابوت تاجر عربى وفد الى مصر فى القرن الثالث قبل الميلاد ، ومحفوظ فى المتحف المصرى بالقاهرة ، يكشف أن المواصلات فى هذه الفترة لم تكن قاصرة على الطرق البرية ، وانما كانت تتم كذلك بواسطة السفن من خلال الطرق البحرية عبر البحر الأحمر[٣٨٤] • وكانت هذه السفن من النوع الصغير الذى تستخدم الألياف فيه لربط الألواح الخشبية بعضها ببعض ، وظلت هذه الطريقة مستخدمة حتى العصر الذى نحن بصدده ، وكما سنتحدث عن ذلك بنوع من التفصيل فى السطور التالية[٣٨٥] واذا كانت جدة تفتقر الى أهم مادة لصناعة السفن وهى الأخشاب ، فانه قد اتيح لهـا استيراد هذه المادة عن طريق العلاقات الاقتصادية المزدهرة بينها وبين مناطق انتاجها ، ذلك أن أفضل أنواع الخشب المستخدمة فى صناعة بناء السفن كان خشب الساج أو جوز الهند ، والذى يعرف أحيانا باسم خشب النارجيل ، وقد تم الحصول عليه بسهولة من مناطق نموه من غابات جنوب الهند وبورما وسيام

وجزر الهند الشرقية ، وكلها مناطق كانت تربطها علاقات وطيدة بجدة طوال ذلك العصر ، بل ان جدة كانت تستورد هذه الأخشاب منـذ وقت مبكر عن العصر الذى نتحدث عنه ، وقد عرف هذا النوع من الأخشاب باسم الدلب(٣٨٦) .

وفى العصر المملوكى شهدت جدة ازدهارا كبيرا بحيث غدت واحدة من أهم الموانىء التى ساهمت فى التجارة العالمية بين الشرق والغـرب بنصيب وافـر ، كما أنها كانت واحدة من الموانىء الهامة التى لها علاقات تجارية مع الصـين والهند وجنوب شرق آسيا ، الى جانب علاقاتها مع موانىء للبحر الأحمر ، مما ساعد على أن تكون صناعة بناء السفن من أهم الصـناعات بهـا فى ذلك العصر(٣٨٧) . وأن يمتلك أهالى جدة الكثير من أنواع السفن التجارية والتى تعتبر من أهم مصادر رزقهم(٣٨٨) .

أما عن السفن التى كان يصنعها أهالى جدة للملاحة فى البحر الأحمر فقد تعددت بتعدد الاغراض التى استخدمت فيها ، من أشهرها ما كان يعرف بالجلاب وقد أوردت المصادر المعاصرة معلومات قيمة عن كيفية صنع هذه الجلاب ، وأن المسامير لم تدخل فى بنائها ، ويعلل ابن جبير عدم استخدام المسـامير فى تلك المراكب بكثرة الشعاب المرجانية(٣٨٩) بينما يذكر المسعودى أن السبب فى ذلك راجع الى الخوف من أن يأكل الصدأ المسامير فى مياه البحـر(٣٩٠) ويفسر بعض المؤرخين أن السر فى ذلك راجع الى الخوف من تأثر هذه المسامير بجذب جبال المغناطيس لها(٣٩١) الا أننا نستطيع القول أن أهالى جدة وغيرهم ممن بنوا سفنا للابحار فى البحر الأحمر ، قد توصلوا الى هذه الطريقة من الصناعة بحـكم تجاربهم وخبراتهم التى توارثوها عبر الأجيال ، والتى أدركوا من خلالها أنها خير وسيلة لتفادى أخطار الشعاب المرجانية والصخور الناتئة التى تملأ سـواحل البحر الأحمر ، وكذلك الدوامات المخيفـة المتواجدة فى أماكن متفـرقة منـه ، الى جانب العواصف التى تجتاحه والتى كثيرا ما كانت تؤدى الى تصـدع السفن واغراقها (٣٩٢) وتنبغى الاشارة الى أن هذه الجلاب كانت عبارة عن سفن صغيرة مسطحة عادة ما كنت تستخدم لحمل الركاب ، ويبلغ طولها ما بين سبع وعشرة أمتار ، ويعمل عليها طاقم مكون من ما بين أربعة الى ستة أشخاص وقد كثر استخدامها بين موانىء البحر الأحمر مثل عيذاب والطور والسـويس وسواكن وغيرها(٣٩٣) .

وفى حديثنا عن طريقة بناء هذه السفن فاننا سنعتمد على وصف لهـا فى بداية العصر المملوكى أورده الرحالة المغربى القاسم بن يوسف التجيبى ، والذى زار جدة عام ٦٩٦هـ/١٢٩٦ م حيث يقول : « ومراكب هذا البحر — يقصـد البحر الأحمر — بجملتها فى غاية من ضعف البنية ، وصورة انشائها أنهم يركبون الألواح بعضها على بعض ، ويصلون بينها بالجزر الماسكة لذلك على صـورة انقرقور ، ثم يخرزونها بالقنبار ، وهو ليف يكون على الرانج وهـو الجـوز الهندى ، يدفع ذلك الليف الى أن يتخبط ، ثم يدرس ، فتفتل منه حبال ، فالخشن منها للمراسى ونحوها يدعونها بالطوانيس .. والرقاق من الحبـال المذكورة لشد ألواح المراكب المذكورة دون مسمار ، وانما يخللونها بدسر من عيـدان النخيل ، وهو القنبار ، يصلح فى الماء المالح ، فاذا أصابه الماء الحلو أفسده ، فاذا أكمل ذلك بأسره جلبطوها بدهن متخذ من بعض حيتان البحر ودقـاق اللبـان »[٣٩٤] .

وفى صناعتهم لهذه السفن فانهم كانوا يراعون تزويدها ببعض ضروريات الحياة اليومية للملاحين عليها ، حيث يذكر لنا الرحالة بوركهارت أن كل المراكب من هذا النوع والتى كانت تسير فى البحر الأحمر حتى القرن الثالث عشر للهجرة التاسع عشر للميلاد ، كانت مزودة بفرن لاعداد الخبز الذى يحتاجه البحـارة عليها[٣٩٥] كما يذكر الادريسى أن ربابنة السفن هذه كان لهم فى تلك المراكب « آلات متخذة بحكمة مهندسة موضوعة فى أعلى الصارى الذى يكون فى مقدمة المركب فنجلس به الربانى ويبصر ما لاح أمامه من التروس التى تحت المـاء مخفية فيقول للماسك على المركب « خذ اليك » و « ادفع عنك » ولولا ذلك ما بحره أحد ... »[٣٩٦] ومن الملاحظ كذلك أنه بسبب تعرض هذه المراكب الدائم لأخطار الشعب المرجانية ، فقد حرص أرباب صناعة السفن على صنع هذه المراكب بطريقة توفر لها الحماية من شدة الارتطام بهذه الشعاب المرجانية بطريقة بسيطة وعملية فى نفس الوقت ، يصفها لنا الرحالة المغربى التجيبى بقوله : « وقيعان المراكب المذكورة عراض يصنعونها من قطعة واحدة ، ثم ينشئون عليها تمام المركب »[٣٩٧] أى أن هذه الطريقة كانت الطريقـة المثلى لمواجهة البحر الأحمر وصحوره المرجانية بل وكذلك المحيط الهندى ، فبينمـا كانت الخيوط الليفية تعطى مرونة أكبر للسفينة فى مواجهة التيارات المائية ،

فان القيعان بهــذه الطريقة كانت تقلل من غاطس السفينة وتجعل قاع السفينة أكثر تسطيحا ، مما يسهل التعامل مع الصخور المرجانية المنتشرة فى كل مكان . أما هيكل السفينة فيصنع من ألواح خشب الساج وخشب جوز الهند وكلاهما متين لا يتشقق ولا يتغير شكله فى الماء ، ومعظم هذه الأخشاب كانت تأتى من الهند ، وتثبت ألواح الهيكل بعضها الى بعض أفقيا بخيوط الليف كمــا سبق وأشرنا ، ثم توضع لها ضلوع لتقاوم الامواج الصاخبة ، وقد تكون هــذه الضلوع من الحصير لترد الموج حسبما يذكر التجيبى ذلك فى رحلته(٣٦٨) .

ومن المرجح أن هذه الوسيلة الأخيرة كانت متبعة فى المراكب التى تستخدم فى البحر الأحمر فقط ، أما تلك التى كانت تبحر الى المحيط الهندى ، فانها كانت من الألواح الخشبية المتلاصقة الأطراف ، حيث تغرز خيوط الليف خلال ثقوب على أبعاد معينة قرب أطراف الألواح المتجاورة ، ثم تسد ثقوبها بأجزاء من عيدان النخيل تعرف باسم الدسر أو مسامير الخشب وأحيانا من شحم الحيتان الصغيرة الموجودة فى مياه عدن بعد طنجة ، وأحيانا يستخدمون دهن ســمك القرش . أما دفة السفينة فكانت فى الجنب ، وهى النوع الوحيد الذى عرف فى العصور الوسطى ، ولكل سفينة دفتان على جانبيها وبخاصة اذا كانت من السفن التى تعبر المحيط . أما المرساة فهى حجر غليظ فى وسطه ثقب للحبال وأحيانا يستعاض عن الحجر بقطعة ضخمة من الرخام ، وتعمل للسفن المحيطية ستة مراسى . أما صوارى السفن فهى من خشب الساج وعادة ما تكون أطول من السفــن ، وينسج شراعها من أوراق جوز الهند ، أو من خوص شجر المقــل أو الدوم ، أو النسيج القطنى ، وتميزت هذه السفن كذلك بأشرعتها المثلثــة الشكل ، والتى سهلت عملية تحويل اتجاه السفينة الى الاتجاه المطلوب(٣٦٩) .

ومن المرجح أن تكون جدة قد عرفت تصــنيع ذلك النوع من الســفن التجارية الضخمة كالصنادل ، والتى لا تقــل حمــولة كل منهــا عن أربعة آلاف وثمانمائة قنطار ، ولم تختلف طريقة صناعتها عن غيرها من السفن الأخرى ، حيث تربط ألواحها أيضا بخيوط من القنب والقطن ، كذلك عرفت جدة صناعة تلك السفن التى شاع استعمالها عند الهنود والتى تسمى سامبولة ، وهى التى عرفت عند العرب باسم السنبوك ، أو السنبوق أو الصنبوق ، وهى عبارة عن سفن صغيرة كثر استعمالها عند أهل الحجاز ، ويشير مرجع حديث الى أن

جمهور المعاجم اللغوية فسروا الكلمة تفسيرا لغويا ، ولكنها فى الحقيقة كلمة لاتينية قديمة ، ولعل السبب فيما ذكره اللغويون من هذا التفسير أن هذا النوع من السفن أصبح فى العصور الوسطى عبارة عن قوارب صغيرة[٤٠٠] وان كان السنبوق يعتبر من أشهر أنواع المراكب العربية التى عرفت ليس فقط فى البحر الأحمر بل وجنوب الجزيرة العربية وخليج عمان والخليج العربى ، وهـذا النوع من المراكب يتميز بمقدمته المنخفضة ذات الشكل المنحنى والمؤخـرة العالية ، مما يضفى على السنبوق شكلا جميلا • وحمولته تتراوح ما بين عشرين طنا ومائة وخمسين طنا ، كما يبلغ طوله حوالى ثمانين قدما • وهناك نوع من السنبوق كان يطلق عليه السنبوق المخيط ، وهو مركب متشابه الطرفين، ولا يستخدم فيه الشراع المثلث ، بل الشراع المربع ، ويتم تثبيت أجزائه بربطها الى بعضها البعض بألياف النارجيل • ومعدل طول هذا النوع من خمس وعشرين الى أربعين قدما ، وله دفة صغيرة ومجاديف وصار واحد ، ويعمل عليـه طاقم من أربعة الى ثمانية أشخاص[٤٠١] •

كذلك عرفت جدة صناعة قوارب الصيد الصغيرة ، والتى يبلغ طولها حوالى ثلاثة أمتار ، والتى تتم صناعتها من ثلاثة أو أربعة ألواح خشبية يتم ربطها معا بحبال شجر جوز الهند ، ويبحر الصيادون عليها فى عرض البحر لمسافة قد تبلغ ثمانية أو عشرة أميال ، مستخدمين كتلة خشبية كمجداف أثناء صـيد الاسماك ، كما يقومون بالغوص لجمع المرجان الأسود الذى يوجد حول الشاطىء ويعرف باليسر أو الأبنوس ، والذى تصنع منه السبح ، كما يستخرجون المرجان الأحمر الذى كثر وجوده فى مياه جدة[٤٠٢] •

ويجدر بالباحث أن يشير الى أن صناعة السفن فى جدة لم تكن قاصرة على تلك الأنواع التى تربط ألواحها بالألياف والتى سبقت الاشارة اليها ، بل عرفت جدة كذلك المراكب المسماريات أو المسمرة ، وهى التى تستخدم فيها المسامير الحديدية لربط ألواحها ببعض ، والدليل على هذا تلك الاشارة التى وردت عند أحد مؤرخى مكة فى العصر المملوكى يستفاد منها وجود هذا النوع عام ٨٤٦هـ/ ١٤٤٢م أيام السلطان الأشرف برسباى ، هذا النوع جاء ذكره تحت اسـم « المراكب المسمارية »[٤٠٣] كما أنه كان من نتيجة وصول البرتغاليين الى البحار الشرقية وتعبثهم بالموانىء البحرية فى المحيط الهندى ، ومداخل البحر الأحمر

أثره الكبير فى صناعة بناء السفن فى جدة ، حيث تحولت من صناعة بناء السفن التجـارية الى أن أصبحت واحدة من دور صناعة السـفن الحربيـة الهـامة فى دولة سلاطين المماليك ، والحقيقة أننا نرجح أن يكون السلطان الأشرف قانصوه الغورى قد استغل خبرة أهالى جدة فى صناعة وبناء السفن لانشاء هذه الصناعة الحربية بها • فالمصادر المعاصرة تشير الى أنه منذ عام ٩٠٨هـ/١٥٠٢م كانت الأخبار تأتى من مكة الى عاصمة سلطنة المماليك فى القـاهرة عن نشـاط البرتغاليين فى الهند والبحر الأحمر ، وكيف انهم هددوا سواكن وغيرها من موانىء البحر الأحمر ، الأمر الذى جعل السلطان الغورى يستعد ببناء أسطول كبير فى البحر الأحمر ، فنزل بنفسه الى السويس لتفقد العمل فى بناء السفن الحربية[٤٠٤] ويعتبر عام ٩١٣هـ/١٥٠٧م البداية الحقيقية لظهور هذه الصناعة الحربية ، حيث تشير المصادر المعاصرة الى أن السلطان الغورى أمر ناظر الخاص القاضى علاء الدين بأن يتوجه « الى جدة بسبب تجهيز المراكب صحبه العسكر الذى توجه الى عدن بسبب تعبث الفرنج هناك » وأنه قضى الفترة من ربيع الأول الى شعبان ، أى ستة أشهر فى تجهيز أسطول بجدة ، وعندما أتم ما كلفه به السلطان عاد الى القاهرة فأخلع عليه السلطان[٤٠٥] • ومن بين هذه السفن الحربية هذه كانت البرشات ومفردها برشة ، والأغربة ومفردها غراب وهى بعض أنواع من السفن الحربية التى شاع استعمالها فى الأسطول المملوكى بوجه خاص وطوال العصور الوسطى بوجـه عام ، اذ يشـير أحد المؤرخين المعاصرين الى أنه فى شهر المحرم من السنة المذكورة هذه « وصلت برشتان وثلاثة أغربة من أوائل جيش الجراكسة الى بندر جزان ، فأخذوا منه طعاما وتوجهوا الى جزيرة كمران ، فهرب أهلها ، ثم ساروا الى بندر المخا ومنه الى عدن ••»[٤٠٦] والباحث لا يستبعد أن تكون هذه السفن قد تم صنعها فى جدة ، والتى تم تزويدها بالمدافع اللازمة لها وهى التى تم جلبها أو النحاس الذى تصنع منه من بلاد الدولة العثمانية حسبما يشير ابن أياس الى ذلك صراحة[٤٠٧] بل قد لا نغالى كثير اذا قلنا أن هذه الصناعة الحربية قد أدت دورا هاما فى هذه الفترة الحرجة من تاريخ دولة سلاطين المماليك فى مدافعة البرتغاليين الذين حاولوا الاستيلاء على عدن والمخا وجزيرة كمران ، وفى أنهم لم يوفقوا سـوى

فى الاستيلاء على جزيرة كمران حسبما تشير المصادر العربية صراحة الى ذلك(٤٠٨) .

وأخيرا ينبغى أن نذكر أن صناعة بناء السفن كان لها أثرها الاقتصادى الواضح فى جدة واهلها ، حيث تشير بعض المصادر الى أن جدة كان بها « مراكب كثيرة كانت تتصرف الى جهات كثيرة » ، فى موضع آخر نسمع وصفا لأحوال أهل جدة الاقتصادية وأنها مدينة كبيرة عامرة ، « تجارتها كثيرة ، وأهلها مياسير ذوو أموال واسعة وأحوال حسنة ومرابح ظاهرة ولها موسم لتبل وقت الحجيج مشهود البركة تنفق فيه البضائع المجلوبة والأمتعة المنتخبة والذخائر النفيسة وليس بعد مكة مدينة من مدائن الحجاز أكثر من أهلها مالا ولا أحسن منهم حالا ... »(٤٠٩) .

صناعة دباغة الجلود :

تعتبر صناعة دباغة الجلود من الصناعات الهامة والقديمة والتى كانت معروفة فى مدينة جدة منذ أمد طويل ، اذ مما يدل على قدم هذه الصناعة ما جاء عند ابن المجاور من أن أحد أبواب جدة كان يعرف بباب المدبغة ، وهذه اشرة صريحة الى وجود منطقة بأكملها عند أحد أبواب المدينة مخصصة لهذه الصناعة، كما أشار أيضا الى وجود أحجار كبيرة بالمدينة تشبه الرحى بما يرجح أنها كانت تستخدم لطحن نبات القرظ الذى تحتاج اليه صناعة دباغة الجلود ، وان كان ابن المجاور يرجع تأسيس مدينة جدة الى أيام الفرس(٤١٠) الا أن كل ما يهمنا هنا هو أن هذه الصناعة كانت مزدهرة فى عصر سلاطين امماليك نظرا لأنه قد توفر لها الكثير من مقومات الازدهار .

فمما ساعد على ازدهار هذه الصناعة توافر مادة الشب التى كانت تستخدم لتثبيت ألوان الجلود والصبغات . ومادة الشب هذه توفرت لمدينة جدة من خلال ما كان يتم جلبه منها من بلا العرب واليمن وباب المندب وجزيرة سوقطرى . وكذلك توافر نوع من الصبغات عرف باسم خشب البرازيل ذو اللون الأحمر ، ويرد من الهند الشرقية ويعرف باسم شجر البقم وموطنه الأصلى الملايو . وكثر جلبه كذلك من جزيرة سومطرة ، وملقا ، وكان يصل لأسواق جدة على هيئة كرات صلبة ثقيلة ،وبعد نزع قشرتها يؤخذ وتستخرج منه الصبغة بعدة

وسائل(٤١١) . الى جانب توافر الكثير من المواد التى كانت تضاف الى الجلود وتجعلها صالحة للاستعمال ، مثل الملح والذى كان يتم الحصول عليه من الملاحات القريبة من مدينة جدة ، أو من الصخور الملحية التى كان يقوم البدو بجلبها من بعض الجبال القريبة من جدة ، أو بالقرب من الطائف ، وذلك لاستخدامهـا فى اعداد الجلود للدباغة بل وفى الأطعمة كذلك(٤١٢) الى جانب بعض المواد النباتية التى تستخرج من أنواع خاصة من الأشجار ، وهى لحسن الحظ متوفرة فى جدة أو فى المناطق القريبة منها ، والتى نذكر منها على سبيل المثال الغلقة ، والغرف ، والأرطى، والعلقى ، والصرف ، والظيان ، والسلم ، والدهناء ، على أن القرظ كان أهمها على الاطلاق ، والذى كان يتم طحنه واستخدامه فى دباغة الجلود ، وهو متؤفر بكثرة ، حيث ينبت جنوب مكة على جنبى الطريق المتجهة الى اليمن، كما يوجد فى تهامة السراة وبصورة خاصة فى مناطق قلوة والمخواة ، كما يكثر فى الطائف وفى العقيق قرب المدينة المنورة ، ومن الملاحظ أنها كلها أماكن من السهل نقله منها الى مدينة جدة لارتباطها بهذه البلاد بعدة طرق برية سهلة وميسرة(٤١٣) .

ومن بين العوامل التى ساعدت على ازدهار هذه الصناعة فى جدة بوجه خاص ، وفى بلاد الجزيرة العربية بوجه عام حاجة السكان الماسة الى العديد من الأوانى والمصنوعات الجلدية ، التى كانوا يستعملونها بكثرة فى حياتهم اليومية، لحفظ الماء والعسل والزيت والسوائل الأخرى المختلفة ، كما كانوا يضعـون التمور فى جرابات من الأديم المخصص لذلك(٤١٤) هذه الأوانى الجلدية كانت أفضل أنواع الأوانى التى تلائم طبيعة ومناخ البلاد ، فى عصر لم تكن قـد عرفت فيه أدوات ووسائل الحفظ التى نعرفها اليوم . بل ان الجـلود كانت تدخل فى بناء بيوت بعضهم وألبستهم(٤١٥) لكل هذا بلغت صناعة دباغة الجلود شأوا بعيدا فى مدينة جدة بوجه خاص ، والكثير من مدن وبلدان الجزيرة العربية بوجه عام .

واذا كان قد توافر لمدينة جدة معظم المقومات الأساسية لقيـام هـذه الصناعة من مواد الصباغة وتثبيت الألوان ، والمواد التى تجعل الجلد صالحا للاستعمال ، فضلا عن القوة الشرائية ، فقد توافر لها أيضا واحدة من هم عوامل قيام هذه الصناعة ، ونقصد بها الجلود الخام اللازمة لهذه الصناعة اذ تشير

بعض المصادر الى أن سكان جدة وما يليها من الصحراء والجبال كان لديهم الكثير من الابل والأغنام(٤١٦) كما أن المنطقة المعروفة بساحل تهامة بين جدة وحلى بنى يعقوب كانت كثيرة الأودية الخصبة وكثيرة الأبقار كذلك(٤١٧) ومع هذا يمكننا القول أنه لو لم يكن لجدة الا ذلك الارتباط الوثيق بمكة المكرمة لكان فى هذا ما يكفى ، اذ من المعروف أنه كان يذبح فى مكة فى مواسم الحج أعداد هائلة من الحيوانات المختلفة ، واذا كان ذبح هذه الحيوانات الهدف منه بالدرجة الأولى هو استفادة من لحومها ، الا أنها كانت تعتبر مصدرا هاما لتوفير الجلود التى قامت عليها هذه الصناعة • هذا الى جانب ما تشير اليه بعض المصادر من أن مكة كانت تتلقى كميات هائلة من الجلود الخام التى كانت تجلب اليها من العراق وخراسان وغيرها فى مواسم الحج ، وتدبغ فى مكة ، وبما أن جدة كانت تابعة لمكة فليس من المستبعد أن تصلها حصة من هذه الجلود كذلك(٤١٨) • يضاف الى هذا ما تمتعت به جدة من موقع ممتاز جعل التجار من جميع أنحاء العالم الاسلامى يتصلون بها فى سهولة ويسر ، بما يؤكد سهولة حصولها على الجلود اللازمة لهذه الصناعة الهامة • ولا نستبعد أن تكون المدن الحجازية الأخرى والقريبة منها قد أمدتها ببعض هذه الجلود ، والتى كانت لها مساهماتها فى صناعة دباغة الجلود ، أو انتاجها ، مثل الطائف والتى اشتهرت بالأهب الطائفية ، وبأديمها الجيد الذى كان يلقى طلبا متزايدا من جهات خوارزم(٤١٩) •

أما عن المياه اللازمة والضرورية لهذه الصناعة ، فيمكننا القول أن عملية دباغة الجلود هذه قد توفرت لها المقادير اللازمة من المياه ، وبخاصة من عين الماء التى كانت تعرف بالوزيرية ، والتى كانت تصل جدة من الرغامة ، وكان ماؤها لا يصلح للشرب ولكنه صالح للغسيل ، وهذه العين كانت محل رعاية وعناية الحكام وسلاطين المماليك حتى أواخر العصر المملوكى ، وظل أهل جدة يعتمدون عليها فى كثير من الأغراض الى أن أهمل استخدامها بعد ايصال المغفور له جلالة الملك عبد العزيز للماء من وادى فاطمة(٤٢٠) بالاضافة الى المياه التى تم الحصول عليها من كثير من الآبار المنتشرة فى داخل المدينة وخارجها ، وبخاصة وأن بعض هذه الآبار كانت مياهها تصلح لمثل هذه الأغراض ، وعن هذه الآبار يذكر أحد الرحالة المغاربة أنها « منقورة فى الحجارة بخارج المدينة .

وأكثرها يمد بعضها بعضا • وهي من الكثرة بحيث لا يكاد يبلغها الحصر ، عاينا منها مالم نقدر على احصائه ولا عده ، مما يدل على أن البلد كان عظيما آهلا فيما تقادم من الزمن ••• »[٤٢١] وتذكر بعض المصادر أن عدد هذه الآبار أو الصهاريج قد بلغ ألف صهريج ، منها بداخل المدينة خمسمائة ، وبخارجها مثلها[٤٢٢] •

كانت هذه هي المقومات الأساسية التي قامت عليها صناعة دباغة الجلود في جدة في العصر المملوكي ، أما فيما يتعلق بأدوات دباغة الجلود نفسها ، وهي الآلات التي كان الدباغون يستخدمونها في هذه الصناعة ، فان المصادر التي بين أيدينا لم تسعفنا الا بالنذر اليسير ، ولم نستطع الاحاطة بكل الآلات المستعملة، لذا سنورد بعض منها • يأتي في مقدمة هذه الآلات أحجار الطواحين أو الرحى ، وهي الأحجار الضخمة التي تشبه تلك المستعملة في طحن الغلال ،والتي كانت تستخدم في طحن النباتات المستخدمة في دباغة الجلود ، أو المواد المثبتة للألوان ، أو تلك التي تضفي على الجلد بريقا أو لمعانا أو تجعله صالحا للاستخدامات المتعددة[٤٢٣] • ثم نسمع عن المحط الذي كان مستعملا لصقل الجلد الخام وتنميلقه ، وكان يصنع من الخشب عند البعض ، ومن الحديد عند البعض الآخر[٤٢٤] ثم تأتي المجلاة وبها تقشر الأوساخ المتبقية على الجلد بعد سلخه ، كما نسمع عن الأزميل ، والمنخاز الذي كان يستخدم لأغراض شتى ، كذلك نجد الاشفي ، والمبقر ، والمسرد ، والمقراض ، والمخصف وغيرها من الآلات الأخرى[٤٢٥] •

وتجدر الاشارة الى أن أهل جدة كانت لهم طريقتهم في تصنيف الجلود التي يدبغونها ، والتي كانت تتلاءم مع أذواق أهل البلاد التي يصدرونها اليها ، فعلى سبيل المثال تذكر لنا بعض المصادر أن الجلد الخفيف كان يقبل عليه أبناء العراق والشام ، بينما أبناء خوارزم ، وخراسان كانوا يفضلون الجلد الثقيل لأنهم يبطنون به الأخفاف[٤٢٦] • كذلك كان لأهل جدة بعض الاصطلاحات الخاصة بجودة الجلود ودرجات تلك الجودة ، أو الحالة التي تكون عليها ، فالنوع الفائق هو المبرأ من العيوب ، أو هو الجلد الثقيل النقي الطاهر عتابي الوجه المشتبك بعضه ببعض ، يليه الشعراني والمقفع واليابس من الدهن والخفيف والأسود ، أما النوع الأقل جودة فهو الذي فيه خدش سكين ويسمى

العوار • كما كان يتم بيع الجلود بوجه عام اما بنظام البيعة ، وكل بيعة كنت تزن مائة من ، أو يباع بالحمل ، وكل حمل بيعتين ونصف ، أى مائتين وخمسين منا ، أو يباع طاقات بالعدد(٤٢٧) •

صـــناعة الحـــلوى :

هناك من الدلائل ما يشير الى أن أهل جدة قد برعوا فى صناعة بعض أنواع من الحلوى السكرية ، التى عرفت فى ذلك العصر ، والتى نرجح أنها شاعت منذ العصر الفاطمى ، والتى اشتهرت بها بلاد كثيرة ، وكانت تلقى رواجا فى مواسم العمرة والحج بوجه خاص • اذ يذكر أحد الرحالة المغاربة ممن زاروا البلاد ، وشاهد تلك الحلوى ونالت اعجابه قوله عنهـا : « وأما الحلوى فيصنع منها أنواع غريبة من العسل والسكر المعقود على صفات شتى ، انهم يصنعون بها حكايات جميع الفواكه الرطبة واليابسة وبخاصة فى الأشهر الثلاثة : رجب ، وشعبان ، ورمضان ، •• قد صورت منها تصاوير انسانية وفاكهية وجليت فى منصات كأنها العرائس ونضدت بسائر أنواعها المنضدة الملونة ، فتلوح كأنهـا الأزاهر حسنا ، فتقيد الأبصار وتستنزل الدرهم والدينار »(٤٢٨) من هذا الوصف يتضح لنا أنه تم استخدام السكر المعقود والعسل والكثير من أنواع الفواكه الطازجة والمجففة ، وأنها صنعت على هيئة أشكال مختلفة ومتعددة ، ربما كان الهدف منها ارضاء جميع الأذواق والأعمار بحيث يقبل عليها الصغار والكبار • ولعل هذا يذكرنا بما كان يحدث فى القاهرة عاصمة السلطنة وبخاصة فى موسم شهر رمضان ، ففى هذا الشهر كان سوق الحلاويين يمتلىء بكافة أصـناف الحلوى السكرية المصنوعة على هيئة أشكال مختلفة ومتعددة ، منها ما يصنع على هيئة القطط والسباع وغيرها ، وكانت هذه الحلوى السكرية تعرف باسم العلاليق ، ومفردها علاقة ، لأنها كانت تعلق بخيوط على أبواب الحوانيت . ويتراوح وزن العلاقة ما بين ربع رطل وعشرة أرطال • وكانت أسواق القاهرة والأقاليم تمتلىء بهذه الحلوى التى يحرص الناس على شرائها لأطفـــالهم وأقاربهم ، ولعل ما كان يحدث فى جدة كان قريب الشبه من ذلك(٤٢٩) •

أما عن المقومات الأساسية لهذه الصناعة ، فواضح أنها كانت متوافرة بشكل ملحوظ ، فبالنسبة للسكر وهو عماد صناعة الحلوى هذه كان يتم جلبه بسهوله

من مصر ، بالاضافة الى الهند وغيرها من البلدان المنتجة لقصب السكر(٤٣٠) • أما عن الفواكه المختلفة والتى تم استخدامها فى صناعة هذه الحلوى ، فقد كانت متوافرة فى كثير من المناطق المجاورة لمدينة جدة مثل الطائف ، أو تم الحصول عليها من القرى الواقعة حول جدة ومكة المكرمة ، والتى قام كثير من المغاربة بزراعتها وكما سنشير فى حديثنا عن النشاط الزراعى •

صناعة الحصير :

كانت صناعة الحصير من الصناعات التى لاقت رواجا هائلا فى جدة فى ذلك العصر ، اذ تشير وثائق الجنيزا الى أنه لم يكن هنك فى جدة سكن خاص أو عام الا وبه الحصير(٤٣١) • بل أنه من العوامل التى أدت الى رواج هذه الصناعة وازدهارها فى جدة أن الحصير كان يشكل جزءا أساسيا فى كثير من المبانى فى ذلك العصر ، فقد جاء فى وصف أحد الرحالة الذين زاروها أن « أكثر بيوتها أخصاص ، وفيها فنادق مبنية بالحجارة والطين وفى أعلاها بيوت من الأخصاص كالغرف ، ولها سطوح يستراح فيها بالليل من أذى الحر ••»(٤٣٢) ويؤكد الرحالة المغربى الذى زارها فى بداية العصر المملوكى هذه الحقيقة مرة أخرى عندما يقول : « وأكثر بيوتها الآن بالأخصاص »(٤٣٣) •

وهنا ينبغى أن نشير الى حقيقة هامة ، وهى أن بناء جزء من منازل جدة باستخدام الحصير أو الأخصاص ليس معناه تدهور مستوى المعيشة كما قد يتصور البعض ، وأنما أضطر أهالى جدة فى تلك الأزمان أمام حرارة الجو والرطوبة العالية التى تشتهر بها بلادهم الى ابتكار وسيلة تعتبر من أروع وأحدث وسائل التكييف فى ذلك الزمان ، أو بعبارة أخرى أنهم توصلوا الى طريقة تكييف تتناسب مع طبيعة العصر الذى لم يكن قد عرف الكهرباء والمكيفات الحديثة ، وهى بناء الدور والمنازل وأماكن الراحة بالشكل الذى يوفر لهم اتقاء حر الصيف والرطوبة العالية ، هذا الى جانب أن مثل هذه البيوت والاستراحات المزودة بالأخصاص ، كانت من المؤكد تلقى اقبالا كبيرا من الوافدين على البلاد فى مواسم العمرة والحج والتجارة ، مما ساعد على ازدهار هذه الصناعة والدليل الذى نسوقه على صحة هذا الرأى ما ورد فى أحد المصادر من أنه جرت العادة

بأن كل من بنى بها بيت خوص كان عليه أن يزيد للسلطات الحاكمة ثلاثة دراهم وأما الدور التى هى بالحجر والجص فليس عليها شىء بالمرة . والسر فى هذه الضريبة واضح بلا شك ، وهو كثرة الاقبال على هذا النوع من المبانى(٤٣٤) .

ومما شجع على ازدهار هذه الصناعة أيضا أن أغلب أنواع المراكب التى استخدمها أهالى جدة سواء فى الصيد ، أى صيد الأسماك ، واستخراج المرجان واليسر ، أم فى التجارة بين جدة وبعض موانى الحجاز الأخرى مثل ينبع ، أو بين جدة وبين اليمن ، أو بينها وبين الموانىء الغربية للبحـر الأحمـر كانت أشرعتها مصنوعة من هذا الحصير ، ولعل أهم هذه السفن كانت الجلاب التى يقول عنها أحد الرحالة المغاربة « ومن أعجب أمر هذه الجـلاب أن شرعهـا منسوجة من خوص شجر المقل » أى شجر الدوم(٤٣٥) والمعروف أن جدة وكذلك الكثير من المناطق القريبة منها كانت تعتنى بزراعة شجر الدوم الذى يمدها بالخوص المستخدم فى صناعة الحصير والذى عرف باسم « الطفى » ، مما وفر لها المادة الخام اللازمة والتى اعتمدت عليها هذه الصناعة الى حد كبير ، بل انها نافست فى ذلك الكثير من مدن الحجاز التى قامت بها هذه الصـناعة أيضـا(٤٣٦) .

ويرى الباحث أنه من المفيد أن نشير الى أنه ربما وجدت صناعة شبيهة بهذه الصناعة ، وهى صناعة السعف والتى تعتمد على أوراق أشجار النخيل التى تجفف وتشذب بحيث تتحول الى قطع مستطيلة من السعف ، تصنع منها أنواع من الحصير تسمى الخسف كانت تغرس فى أرضية البيوت ثم يوضع فوقهـا السجاد لحمايته من الأتربة ، كما كان يصنع من هذا السعف الأوعية الكبيرة التى توضع فيها الحبوب ، وكذلك كان يصنع منه بعض المراوح اليدوية وربما المكانس كذلك وبعض الأدوات الأخرى وبخاصة المنزلية(٤٣٧) كما أننا لا نستبعد أنه نتيجة لازدهار صناعة الحصير فى جدة ، أن يكون الحصير المنتج كان يتم تصـدير بعضه الى أنحـاء مختلفة من العالم ، وربما حرص بعض الحجـاج والمعتمرين على شراء بعض المصليات المصنوعة منه لاهدائها لذويهم عند عودتهم من رحلتهم ، حيث أشارت وثائق الجنيزا الى الحصير الذى كان يصـل الى أماكن عديدة ، مثل مدينـة الاسـكندرية ، والقيروان ، وعدن ، وجنـوب شبه الجزيرة العربية ، وبلاد الهند وغيرها(٤٣٨) .

صــــناعة المســـابح : ـــ

اعتمدت صناعة المسابح فى جدة بوجه خاص على مادة اليسر أو الأبنوس ، والذى كان منتشرا على نطاق واسع فى منابته الموجودة بكثرة فى مياه البحــر الأحمر[٤٣٩] وهو نبات أسود يستخرج من قاع البحــر ، فيتنــاوله نصـــناع بمهارتهم حيث يقومون بتقطيعه وتهذيبه بمهارة فائقــة ، ثم يصــنعون منــه حبات المسابح المعروفة • وهى صناعة تعتبــر من أدق الصناعات وأثرها مشقة حيث يقوم الصناع بثقب هذه الحبات بعد تقطيعها عقدا متساوية فى الحجم ، متماثلة فى الشكل بحيث لا تشذ فيها حبة عن الأخردى ، والتى تنتظم فى مسابح تلامسها الأنامل بصورة متكررة فى كل يوم وليلة على الأقــل خمس مرات ، ان لم يكن أكثر • وكانوا يصنعون لهذه المسابح الامام ، وهو عبارة عن قطعــة مستطيلة من نفس مادة اليسر تجمع طرفى المسبحة بعد انتظامها فى الخيط الذى نظمت فيه ، كما يصنعون لها الفواصل التى تفصل بين أعداد معينة فى المسبحة فالمسابح كبيرة الحجم تتكون عادة من تسع وتسعين أو مائة حبــة وهى الأكثر شيوعا وان كانت هناك مسابح تبلغ حباتها الألف حبة ، وحبات هذه الأنواع من الحجم الصغير أو المتوسط ، بينما المسابح الصغيرة التى تســمى انثلث فهى عادة ماتتكون من ثلاث وثلاثين حبة ، حباتها كبيرة نوعا ما ولها فاصلتان كذلك . وكانت تتم صناعة هذه المسابح بدقة واتقان فتظهر فى شكل جميل أملس لماع ، ومما يذكر أن الصناع كانوا يقومون بهذه الصناعة فى حوانيتهم أو فى أماكن أعدوها لهذا الغرض فى منازلهم ، وربما كان هناك العــديد من أهالى جدة ممن كانت لهم شهرتهم فى صناعة هذا النوع من المسابح التى يقبل على شرائهــا كثيرون ممن يفدون الى جدة ومكة المكرمة فى مواسم العمرة والحج كل عام[٤٤٠].

والجدير بالذكر أيضا أنه حتى القرن الثانى عشر الهجرى ، الثامن عشر للميلاد كان لجدة شهرتها الواسعة التى طبقت الآفاق فى صناعة مسابح اليسر هذه ، فقد وردت اشارة عند أحد الرحالة الأوربيين والذى زارها عام ١٨٠٥م يقول فيها ان أمير البحر فى جدة أعطاه بعض العبيد المشــهورين بخبرتهم فى الغطس واستخراج مادة اليسر التى تصنع منها المسابح ، وهذه المادة موجودة

بكثرة فى مياه جدة . ويذكر أنه نبات يوجد بكثرة فى الأعماق ، ويبلغ طول فروعه الأسطوانية الشكل أربعة أقدام[٤٤١] .

الصناعات الخشبية :

عرفت جدة فى العصر المملوكى كثيرا من الصناعات الخشبية والتى نستطيع أن نطلق عليها الصناعات الفنية ، وهى تعتمد على الخشب كمادة أساسية فيها ، ومن هذه الصناعة ، صناعة خرط الخشب . والى عهد قريب كان يوجد فى جدة شارع صغير لأرباب هذه الصناعة يعرف باسم « زقاق الخراطين » حيث كان من المألوف فى ذلك العصر أن يتجمع أرباب كل صناعة فى مكان واحد يعرف بهم تمييزا لهم عن غيرهم من أرباب الصناعات الأخرى . هذا الزقاق كان بجوار مسجد الحنفى الموجود حاليا فى الشارع الجديد الممتد من ميدان البيعة ، بحذاء امتداد شارع الملك عبد العزيز ، والمسمى حاليا شارع الذهب . وكان لهؤلاء الخراطين حوانيت صغيرة فى هذا الزقاق ، الذى أزيل كل ما فيه من حوانيت وبيوت ، وأدخلت توسعة للشارع فى أول توسعة شهدتها مدينة جدة قبل حوالى ربع قرن ، أما صناعة الخرط هذه فانها كانت تقوم على قطع الأخشاب وخراطتها وفق أشكال هندسية جميلة ، ثم يتم تركيبها مع بعضها البعض بحيث تستخدم فى أغراض شتى . منها على سبيل المثال لا الحصر عمل دربزينات الشقادف « حواجز الهوادج » والتى وصفها لنا الرحالة المغربى ابن جبير بقوله : « ولهم أيضا فى مراكبهم على الابل قباب تظلهم بديعة المنظر عجيبة الشكل قد نصبت على محامل من الأعواد يسمونها القشاوات وهى كالتوابيت المجوفة . هى لركابها من الرجال والنساء كالأمهدة للاطفال ، تملأ بالفرش الوثيرة ، ويقعد الراكب فيها مستريحا كأنه فى مهاد لين فسيح وبازائه معادلة أو معادلته فى مثل ذلك من الشقة الأخرى ، أو كيفما أحبا ... »[٤٤٢] كما استخدم الخشب المخروط أيضا فى صناعة ظهور الدكاك ، وغطيان شراب الماء . ولعل مما ساعد على ازدهار هذه الصناعة كثرة استخدام المشربيات فى منازل جدة طوال ذلك العصر . وقد كانت الفكرة الأساسية من اتخاذ هذه المشربيا فى واجهات البيوت لتلطيف الجو وادخال النسيم العليل ، وتمكين أهل الدار من رؤية من بالخارج دون أن يكون العكس ممكنا[٤٤٣] . كما استخدمت المشربية بما فيها من خارجات

صغيرة مستديرة أو مثمنة لوضع القلل لتبريدها(٤٤٤) • هذه المشربيات هى التى مازالت تعرف الى اليوم باسم « الردواشين » ، والتى كان يستغرق عملها الكثير من الوقت والجهد ، ويمارسها صناع مهرة حاذقون ، أخذوا هـذه الصـناعة الدقيقة عن آبائهم وأجدادهم ومعلميهم ، والناظر لبعض بيوت جدة القديمة ، سيجد هذه المعالم باقية حتى اليوم تشهد بجمال الصناعة واتقانها(٤٤٥) ، ومما لا شك فيه أن المتطلع اليوم الى مبانى جدة الحديثة سيجد حرصـا كبـيرا من أهلها على العودة الى التراث ، لذلك سيلاحظ أنه مع حداثة البناء وتطور أساليبه المعمارية فهناك اصرار شديد لدى الكثيرين على استخدام هذه المشربيات كطراز اسلامى مميز •

المشـــغولات المعـــدنية :

والى جانب الصناعات السابقة كانت هناك صناعات أخرى ، اسـتمرت بمدينة جدة منذ العصور الاسلامية الأولى والى ما بعد العصر المملوكى الذى نحدد بصدد الحديث عنه ، منها صناعة الحـلى مثل الخـواتم والخلاخيـل والعقود ، واستخدام الصناع فيها الذهب والمجوهرات والأحجار الكريمة(٤٤٦) ولا غرو أن يكون الصناع فى جدة فى عصر سـلاطين المماليك قد أقبلوا مثـل أخوانهم فى مصر والشام على صناعة صـناديق من الخشب لحفظ المصحف الشريف ، والتى كانت تصفح بالنحاس وتزين بالكتابات والنقـوش والفروع النباتية المكفتة بالفضة والذهب(٤٤٧) كذلك لا نستبعد أن تكون جدة قد تأثرت بما كان فى مصر والشام من اقبال عظيم على صناعة التحف المعدنية ، ولعـل الأيام القليلة القادمة تكشف لنا عن وجود تحف معدنية من هذا العصر ، والذى لم ينل بعد حظه من الدراسة ، لنرى مثلما رأينا فى مصر والشام من عصر المماليك أبوابا وشماعيد وتنانير وكراسى وصناديق ومقلمات وآنية وغير ذلك مما استعملت فيه مختلف الأساليب الفنية فى صناعة المعادن ، من حفـر وتكفيت وتصفيح وتخريم ، فضلا عن وجود الأباريق ، والمباخر ، والطاسات ، وأحقاق الأشنان ، والطشوت وكلها كانت معروفة فى جدة وبلاد الحجاز ، والتى قـد زينت برسوم متنوعة من فروع نباتية دقيقة ، وزهور متفتحة ، وخطوط هندسية متشابكة ومتداخل بعضها فى بعض ، بالاضافة الى وجود عدة كتـابات على

بعضهـا بخط النســخ ، بالخط الكوفى تسجل نسبة هذه الأشياء الى أصحابها وبخاصة اذا كانوا من ذوى الجاه أو السلطان(٤٤٨) هذا الى جانب صـناعة الأسلحة والدروع والسيوف والنبال ، بالاضافة الى اهتمام أهـالى المدينـة بصناعة الآلات الخاصة بالصيد مثل الشباك وغيرها(٤٤٩) .

صـناعة الأوانى الفخـارية :

من بين الصناعات التى اشتهرت بها جدة كانت صناعة الأوانى الفخارية ، حيث كانت تصنع الأزيار لحفظ الماء وذلك لعدم معرفة الناس فى تلك العصور للحنفيات المعروفة فى عصرنا الحالى ، كما كانت هناك القلاقل أو القلل والتى عرفت أيضا باسم « الشراب » ، ولعلها هى نفسها الدوارق التى ذكرها أحد الرحالة المغاربة فى ذلك العصر ، ولكل دورق منها مقبض واحد يعين من يريد الشرب عند الامساك به ، وهى التى كانت تصنع كذلك من الفخار ، ويوضع فيها الماء ، ثم تعرض للهواء لتبريد الماء حيث يشربه الناس بعد ذلك ، وربما أضف بعضهم اليهـا بعض المواد المعطـرة مثـل ماء الورد أو ماء الزهر(٤٥٠) وكنت هذه الازيار والدوارق والتلال على جانب كبير من الأهمية فى حيـاة الناس اليومية ، حيث لم تكن هناك ثلاجات أو مبردات لعدم معرفة الكهرباء فى ذلك الزمان . كما كانت هذه الأزيار والدوارق والقلال مما لا يستغنى عنه فى أى بيت من بيوت جدة ، تمتاز بأنها تصنع من طينة أقرب الى البياض خفيفة .

والى جانب هذه الأنواع السابقة من الأوانى الفخارية كان هناك نوع يستخدم فى المنازل أيضا لكنه كبير الحجم ، بحيث يتسع الواحد منها لبضع لترات من الماء عرف باسم الشراب كذلك . بينما كانت التـلال الصغيرة تستخدم فى المساجد والحوانيت ، وبحيث تتسع الواحدة منها لما يقرب من زجاجة كبيرة من زجاجات الماء الآن . ومن المرجح أن الأزيار الصغيرة كانت توضع فيها بعض المشروبات السكرية مثلما كان الحال الى وقت قريب ، حيث كان يوضع فيها شراب السوبيا او الزبيب وتعرض للهواء لتبرد محتوياتها ، ومن المرجح كذلك أن اهل جدة عرفوا ذلك النوع من الدوارق الفخارية وهى التى كانت شائعة فى كثير من مدن الحجاز وبخاصة مكة المكرمة والمدينة المنورة ، حيث كان يسقى بها الماء فى

مكة المكرمة من زمزم ، وفى المسجد النبوى الشريف بالمدينة المنورة توضع فيها المياه لتقديمها لكل من يرغب الارتواء ، والتى أطلق على النـوع الصغير منهـا اسم « المزمزية » نسبة الى ماء زمزم ، فضـلا عن بعض الأوانى الفخـارية الأخـرى التى كانت تستخدم فى أغـراض الطعـام والشراب وحفظ بعض الأطعمة(٤٥١) .

أعمال الحفر على الرخام والجص :

ومن الصناعات الفنية والتى تطلبت مهارة ودقة كانت الأعمال الخاصـة بالزخارف الحجرية التى كانت تزين العمائر كتيجان الأعمدة والمحـاريب أو الزخرف الرخامية ، سواء ما كان منها يغطى جدران بعض المساجد على شـكل أشرطة من الرسوم بالرخام المختلف الألوان ذات الرسوم النباتية أو الخطية ، أو ما كان منها يستخدم فى نوافذ المنازل وبخاصة لدى الموسرين من أهل المدينة. وأهم ما يميز هذه الزخارف هو طبعها الاسلامى بما فيه من فروع نباتية منطلقة فى انثناءات وتعاريج متكررة ، وهى الزخارف التى تم تكوينها الاسـلامى فى العصر العباسى وعلى وجه التحديد فى القرن الخامس الهجرى ، الحادى عشر للميلاد(٤٥٢) .

أما الزخارف الجصية فقد كان تم صـنعها على أيـدى كثـير من المبدعين من أهل جدة بأشكال جميلة من الطيور وأوراق النبتات وأغصان الأشجار ، أو كتابة بعض الآيات القرآنية ، أو اسم من أسماء الله على سبيل التيمن والبركة ، والتى كانت تزين بها واجهات كثير من المنازل والدور والمساجد والمبانى المختلفة ، كذلك كانت تستخدم فى كتابة تاريخ انشاء مبنى من المبانى،اذ كانت أغلب البيوت فى جدة وغيرها من مدن الحجـاز تزين أبوابها الرئيسية خاصة بهذه الزينـات الفضية من أعمال الجص(٤٥٣) . هذه الأعمال من حفر على الرخام أو عمـل تشكيلات فذة بالجص لاقت استحسان ، بل أنها نالت اعجـاب كل من زار جدة بوجه عام ومدن الحجاز بوجه خاص طوال العصر الذى نتحدث عنه وهو العصر المملوكى(٤٥٤) .

وينبغى أن نذكر أن عمال البناء قد تفننوا فى تزويد مبانى جدة وبخاصة المنازل أو على الأقل منازل الأثرياء من أهلها بتلك النافورات الجميلة والتى حلت

محلها المسابح الحديثة ، والمبنية من أحجار الكاشور وهى نوع من الحجر المرجانى الذى كان يقتطع من محاجر كانت تقع على شاطىء البحر ، هذه النافورات كانت تمثل مسطحات مائية فى حديقة تلك الدور تساعد على سريان نسمة فى ليـالى الصيف ، تجدر الاشارة الى أنه فى أيامنا الحالية فان أمانة المدينة تعمل على المحافظة على بيوت المدينة القديمة ذات الأهمية العمرانية وتشجيع المبـانى الحديثة التى تبنى على نفس النمط ، وهكذا ظهرت فى جدة وشوارعها الحديثة بيوت تحمل نفس سمات ذلك العصر[٤٥٥] .

الحواشى والتعليقات

١ — المقريزى : « تقى الدين احمد بن على » ، السلوك لمعرفة دول الملوك ، القاهرة ١٩٣٤ — ١٩٥٨ م ، جـ ١ ، قسم ١ ، ص ٤٤٨ — ٤٥٠ ، ص ٤٥٣ — ٤٥٧ ، السيوطى : « جلال الدين عبد الرحمن » ، تاريخ الخلفاء ، د.م.ت ، ص ٣٢٨— ٣٢٩

٢ — عن ذلك راجع ، ابن عبد الظاهر : « محيى الدين » تشريف الأيام والعصور فى سيرة الملك المنصور ، تحقيق « مراد كامل ، القاهرة ١٩٦١ ، ص ٤٨ ، **القلقشندى** « ابو العباس احمد » ، صبح الأعشى فى صناعة الإنشا ، القاهرة ١٣٣١ هـ / ١٩١٣ ، جـ ٤ ، ص ٢٨٩ ، **المقريزى ، الذهب المسبوك فى ذكر من حج من الخلفاء والملوك ،** تحقيق د. جمال الدين الشيال ، القاهرة ١٩٥٥ م ، ص ٨٧ — ٩٢ ، السيوطى ، حسن المحاضرة فى تاريخ مصر والقاهرة ، القاهرة ١٩٦٧، جـ ٢ ، ص ٨٨ .

٣ — Dopp. (Ph.) : L'Egypte du Commencement du Quanzieme Siecle, le Caire 1950, p. 41.

٤ — القلقشندى ، صبح الأعشى ، جـ ١٢ ، ص ١٧١ ، جـ ١٥ ، ص ٤٦٢ .

٥ — المقريزى ، السلوك ، جـ ٣ ، قسم ١ ، ص ٩٦ ، **ابن تغرى بردى : « جمال الدين يوسف ابو المحاسن » ،** النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، دار الكتب المصرية ، ١٩٧١ ، جـ ١٢ ، ص ١٧١ ، جـ ١٥ ، ص ٤٦٢ .

٦ — المقريزى ، السلوك ، جـ ٤ ، قسم ١ ، ص ٧٥ — ٧٦ .

٧ — المقريزى ، المصدر نفسه ، جـ ٤ ، قسم ١ ، ص ٦٠٨ — ٦٠٩ .

٨ — السخاوى : « محمد بن عبد الرحمن » كتاب التبر المسبوك فى ذيل السلوك ، الناشر مكتبة الكليات الأزهرية ، القاهرة د.م ، ص ١٨٤ — ١٨٥ .

٩ — المقريزى ، الذهب المسبوك ، ص ٨٧ ، ٨٨ ، ابن فهد : « النجم عمر بن فهد » اتحاف الورى بأخبار أم القرى ، تحقيق عبد الكريم على باز ، الرياض ١٩٨٠ م ، جـ ٣ ص ٩٨ ، **ابن عبد الظاهر** ، الروض الزاهر فى سيرة الملك الظاهر ، تحقيق د . عبد العزيز الخويطر ، الرياض ١٣٩٦ هـ / ١٩٧٦ م ، ص ٣٥١ — ٣٥٦ .

١٠ — الفاسى : « تقى الدين محمد بن احمد » ، شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام ، دار الكتب العلمية ، بيروت بدون تاريخ طباعة ، ج ٢ ، ص ٢٠٢ ، العقد الثمين فى تاريخ البلد الأمين ، **تحقيق فؤاد سيد ، مطبعة السنة المحمدية ، القــاهرة ، ١٣٨٤ هـ ، ج ١ ، ص ٤٦٠ ،** المقريزى السلوك ، ج ١ قسم ١ ، ص ٥٩٧ .

١١ — القلقشندى ، صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ١٠٨ .

١٢ — الفاسى ، العقد الثمين ، ج ٤ ، ص ٩٩ ، **على بن حسين السليمان ، العلاقات الحجازية المصرية زمن سـلاطين المماليك ، القـاهرة ، ١٣٩٣ هـ ، ص ٤٦ ،** إبراهيم بن حمود المشيقح ، تاريخ أم القــرى ومكانة المرأة العلمية فيها ، الطبعة الأولى ، جدة ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٧م، ص ٢٢ .

١٣ — الفاسى ، العقــد الثمين ، ج ٤ ، ص ١٠٧ ، شــفاء الغرام ، ج ٢ ، ص ٢٥٢ .

١٤ — عن ذلك راجــع ، التجيبى : « ابو القاســم بن يوسف ت ٧٣٠ هـ / ١٣٢٩ م » ، مســتفاد الرحلة والاغتراب ، تحقيق عبــد الحفيظ منصور ، الدار العربية للكتاب ، تونس ١٣٩٥ هـ / ١٩٧٥ م ، ص ٢٢٠

١٥ — الفاسى ، العقد الثمين ، ج ٦ ، ص ٥٨ — ٥٩ .

١٦ — ابن جبير : « ابو الحسن محمد بن احمد » ، الرحلة ، نشر دار صادر ، بيروت ، ١٩٦٤ ، ص ٩٥ ، **ابن المجاور :** « جمال الدين ابو الفتــح يوسف بن يعقوب ابن محمد الشيبانى الدمشقى » ، صــفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز المسماة : تاريخ المستبعد ، طبع ليدن ١٩٥١ ، ص ١٣ ، ابن بطوطه : « محمد بن ابراهيم اللوتينى » ، الرحلة ، نشر دار صادر ،بيروت ١٩٦٤ ، ص ٢٣٨ .

١٧ — الفاسى ، شفاء الغرام ، ج ١ ، ص م .

١٨ — شوقى عبد القوى عثمان ، تجارة المحيط الهندى فى عصر الســيادة الإسلامية ، سلسلة عالم الفكر ١٥١ ، الكويت ١٤١٠ هـ / ١٩٩٠ م ، ص ٢٠١ — ٢٠٣ .

١٩ — التجيبى ، مستفاد الرحلة ، ص ٢١٩ .

٢٠ — سعيد عبد الفتاح عاشور ، العصر المماليكى فى مصر والشام ، الطبعة الثانية ، دار النهضة العربية ١٩٧٦ ، ص ٢٩٦ — ٢٩٧ .

٢١ — بامخرمة : « ابو محمد عبد الله الطيب بن عبد الله بن احمد » ، تاريخ ثغر عدن مع نخب من تواريخ ابن المجاور والجندى والاهدل ، طبع مطبعة بربل فى مدينة ليــدن المحروســة ، ســنة ١٩٣٦ م ، ج ١ . ص ٥٩ — ٦٤ ، سعيد عاشور ، المرجع السابق ، ص ٢٩٧ .

٢٢ — سعيد عاشور ، المرجع نفسه ، ص ٢٩٧ — ٢٩٨ .

٢٣ — ابن المجاور ، نفس المصدر ، ص ١٤٣ — ١٤٧ .

٢٤ — المصدر السابق ، ص ١٤٦ — ١٤٨ .

٢٥ — ابن إياس : «محمد بن احمد بن إياس المصرى ت ٩٣٠ هـ / ١٥٢٢ م»، بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٢ — ١٩٨٣ م ، ج ٢ ، ص ١٧٣ .

٢٦ — لطفى عبد الوهاب يحيى ، العرب فى العصور القديمة ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، ١٩٨٨ م ، ص ١٥٣ — ٣٢٥ .

٢٧ — المسعودى : « ابو الحسن على بن الحسين » ، مروج الذهب ومعادن الجوهر ، القاهرة ، ١٢٨٣ هـ ، ج ١ ، ص ٨٧٠ ، شوقى عثمان ، تجارة المحيط ،ص ٨٧ — ٩٣ ، **محمد صالح ضرار** ، تاريخ سواكن والبحر الأحمر ، الخرطوم ١٩٨٠ م ص ٩٣ .

٢٨ — القلقشندى ، صبح الأعشى ، ج ١٣ ، ص ٣٤٠ — ٣٤١ ، **العينى : « بدر الدين محمود » ، عقد الجمان فى تواريخ أصل الزمان ، عصر سلاطين المماليك ، تحقيق د . محمد محمد أمين ، القاهرة ت ١٩٨٨ م ، ص ٣٠٣ .**

٢٩ — المقريزى ، السلوك ، ج ٤ ، قسم ٢ ، ص ٩٢٩ — ٩٣٠ .

٣٠ — Lane-Poole : A Hist. of Egypt in the Middle Ages, London 1968, p. 339.

٣١ — ابن فهد ، إتحاف ، ج ٣ ، ص ٣٧٩ .
Ibid : Op. Cit., p. 340; Dopp : Op. Cit. pp. 41-42.

٣٢ — شوقى عثمان ، تجارة المحيط ، ص ٤٤

٣٣ — ابن بطوطة ، الرحلة ، ص ٢٤٣ — ٢٤٥

٣٤ — المصدر السابق نفسه ، ص ٢٤٣

٣٥ — Burkhardt (J.L.), Travels in Arabia; London, 1829, p. 188.

٣٦ — ابن جبير ، الرحلة ، ص ٩٦ — ٩٧

٣٧ — Goitein (S.D) : A Med. Society of the High Middle Ages, New York, 1967, Vol. I, pp. 55, 277-281;
حسنين محمد ربيع ، وثائق الجنيزا كمصدر لدراسة تاريخ الجزيرة ؛ مصادر تاريخ الجزيرة العربية ، الرياض ١٩٧ م ، ج ٢ ص ١٥

٣٨ — Burkhardt, Op. Cit. pp. 189-191.

٣٩ — ابن الصيرفى : « الخطيب الجوهرى على بن داود » ، نزهة النفوس والأبدان فى تواريخ الزمان ، تحقيق د . حسن حبشى ، القاهرة ١٩٧٠ م ، ج ١ ، ص ٣٦٢

٤٠ — المصدر السابق نفسه ج ١ ، ص ٣٦٢ — ٣٦٣

٤١ — المصدر السابق نفسه ، جـ ١ ، ص ٤٠١ — ٤١٤ ، ابن حجر العسقلانى ، إنباء الغمر بأنباء العمر ، تحقيق د . حسن حبشى ، القاهرة ١٩٦٩ ١٩٧١ م ، جـ ١ ، ص ٤٨٩ .

٤٢ — المقريزى ، السلوك ، جـ ٤ ، قسم ٢ ، ص٧٠٧ ، ابن فهد ، اتحاف الورى ، جـ ٣ ، ص ٣٦٣ .

٤٣ — الفاسى ، شفاء الغرام ، جـ ٢ ، ص ٨٧ — ٨٨ .

٤٤ — نعيم زكى فهمى ، طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب أواخر العصور الوسطى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٣ ، ص ١٤٧ — ١٥٧ ،

Anglo Pesce : Jiddah, Portnait of an Arabian city, Falcon Press, London 1977, p. 67.

٤٥ — Heyd, W., Histoire du Commerce du Levant au Moyen Age, Leipzg 1925, Tome 11, pp. 34, 428-440.

٤٦ — نعيم زكى ، نفسه ، ص ١٩٢ — ١٩٤ ،

Lane-Poole, A Hist. of Egypt, p. 309.

٤٧ — نعيم زكى ، نفسه ، ص ١٨٦ ، Ibid, Op Cit., p. 350.

٤٨ — نوال سراج ششة ، جدة فى مطلع القرن العاشر الهجرى « السادس عشر الميلادى » ، مكة المكرمة ، ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦ م ص ٧

٤٩ — ابن شاهين الظاهرى ، كتاب زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك ، اعتنى بتصحيحه بولس راديس ، طبع باريس ١٨٩٤ م ، ص ١٤ .

٥٠ . ناصر خسرو سفرنامه ، نقلها للعربية د . يحيى الخشاب بيروت ، ١٩٧٠ م ، ص ١٢٠ .

٥١ — ابن المجاور ، تاريخ المستبصر ، ص ٥١ ،

٥٢ — ابن جبير ، الرحلة ، ص ٩٩ ، احمد عمر الزيلعى ، مكة وعلاقاتها الخارجية (٣٠٤ — ٤٨٧ هـ) جامعة الرياض د . ت ، ص ١٨٤ ،
Goitein, Jews and Arabs-their contacts through the Ages, New York 1974, p. 115.

٥٣ — عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم ، « الحجازيون فى مصر فى القرن العاشر الهجرى السادس عشر الميلادى » مجلة الدارة ، العدد الأول — السنة الحادية عشرة ، شوال ١٤٠٥ — يونيو ١٩٨٥ م ، ص ١٤٢ ، جهد الجاسر ، بلاد ينبع ، الرياض ، ص ١٢٨ .

٥٤ — عن مدلول لفظ التكاررة ، ومناطق تواجدهم فى القارة الإفريقية راجع بحثنا « التبادل التجارى بين مصر وبلاد التكرور وانعكاساته على أحوال مصر المملوكية » ، من كتاب ندوة العرب فى إفريقيا الجذور التاريخية والواقع المعاصر ، دار الثقافة العربية ، ١٩٨٧ ، ص ٨٥ — ٨٧ .

٥٥ — يوسف شلحة ، « رحلة تاميزية إلى الجزيرة العربية » مجلة العرب ، جـ ٧ ، جـ ٨ ، السنة ٢٤ محرم / صفر ١٤١٠ هـ ، اغسطس / سبتمبر ١٩٨٩ ، ص ٤٥٤ .

٥٦ — مغربى ، اعلام الحجاز فى القرن الرابع عشر للهجرة وبعض القـــرون الماضية ، القاهرة ١٩٩٠ ، جـ ٣ ، ص ١٨٠ — ١٨١ .

٥٧ — Burkhardt, Travels in Arabia, London 1829, p. 45.

٥٨ — مغربى ، اعلام الحجاز ، جـ ٣ ، ص ٨٩ .

٥٩ — المرجع السابق ، جـ ٣ ، ص ١٨١ .

٦٠ — Burkhardt, Op. Cit., p. 36.

٦١ — ابن فهد ، إتحاف الورى ، جـ ٤ ، ص ١٩ .

٦٢ — Lodovico di Varthema, the Itinerary of Lodovico di Varthema of Bologna from 1502 to 1508, Trans, by John Winter. Jones, London, 1928, pp. 24-25.

٦٣ — على السيد على ، « التبادل التجارى بين مصر وبلاد التكرور .. » ، ص ١٠١ — ١١٨ .

٦٤ — سعود القويم : « جدة المتحف الحضارى المفتوح » ، المجلة العربية العدد ١١٩ ذو الحجة ١٤٠٧ / اغسطس ١٩٨٧ ، ص ٣٧ .

٦٥ — Angelo-Pesce, Jiddah, p. 63.

٦٦ — سعيد عاشور ، المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك ، القاهرة ١٩٦٣ ، ص ٨٦ — ٨٧ .

٦٧ — Burkhardt, Op. Cit. p. 41.

٦٨ — سعود القويم ، جدة المتحف الحضارى ، ص ٣٨ .

٦٩ — Burkhardt, Op. Cit. p. 37.

٧٠ — مغربى ، اعلام الحجاز ، جـ ٣ ص ١٨٣ .

٧١ — **القلقشندى ، صبح الأعشى ، جـ ٨ ، ص ١١٦ — ١١٧ .**

٧٢ — Burkhardt, Op. Cit. pp. 186-187.

٧٣ — Ibid, pp. 34-41.

٧٤ — Ibid, pp. 36-38, 41.

٧٥ — Ibid, p. 41.

٧٦ — Ibid, p. 32.

٧٧ — Ibid, p. 30.

٧٨ — ابن المجاور ، تاريخ المستبصر ، ص ١٥ .

٧٩ — Burkhardt, Op. Cit. p. 42.

٨٠ — الحضراوى « احمد بن محمد » ، الجواهر المعدة فى فضايل جـــدة ، مخطوط بمكتبة الحرم المكى برقم ٢٧ دهلوى ، ورقة ٢٤ ، مغربى ، اعلام ، جـ ٣ ، ص ١٧٢ .

٨١ — مغربى ، اعلام الحجاز ، جـ ٣ ، ص ١٧٢ — ١٧٤ .

٨٢ — الحضراوى ، الجواهر المعدة ، ورقة ٢٤ ، مغربى ، نفسه ، جـ ٣ ص ١٤٤ ، Burkhardt, Op. Cit. p. 42.

٨٣ — نعيم زكى ، طرق التجارة الدولية ، ص ٢٨٢ .

٨٤ — Angelo-Pesce, Jiddah, p. 217.

٨٥ — ابن فرج : « **عبد القادر احمد بن محمد** » ، رسالة السلاح والعدة فى تاريخ جدة ، تحقيق د . محمد عيسى صالحية ، بيروت ، ١٩٨٣ م ، ص ٦٥ .

٨٦ — Angelo-Pesce, Op. Cit. p. 38.

٨٧ — Burkhardt, Op. Cit. p. 37.

٨٨ — التجيبى ، مستفاد الرحلة ، ص ٢١٧ .

٨٩ — نعيم زكى ، طرق التجارة ، ص ٢٨٤ ، Angelo-Pesce, Op. Cit. p. 34.

٩٠ — Burkhardt, Op. Cit. p. 31.

٩١ — ابن فرج ، رسالة السلاح والعدة ، ص ٥٩ .

٩٢ — Angelo-Pesce, Op. Cit. p. 63.

٩٢ — ابن فرج ، رسالة السلاح والعدة ، ص ٦٢ .

٩٤ — المقريزى ، الخطط ، جـ ٢ ، ص ٩٣ — ١٠٦ .

٩٥ — Burkhardt, Op. Cit. p. 28.

٩٦ — ابن الحاج ، «ابو عبد الله محمد بن محمد العبودى الفاسى ت ٧٣٧ هـ» ، المدخل إلى الشرع الشريف ، القاهرة ١٣٤٨ هـ ، جـ ٤ ص ١٨٢ . قاسم عبده قاسم ، دراسات فى تاريخ مصر الاجتماعى ، دار المعارف بالقاهـــرة ، ١٩٧٩ م ، ص ٥٣ ، على الســـيد على ، القـــدس فى العصر المملوكى ، ص ١٨٧ .

٩٧ — عبد القدوس الأنصــارى ، بين التاريخ والآثار ، جــدة ١٩٧٧ م ؛ ص ١٧١ ، مغربى ، أعــلام الحجاز ، جـ ٣ ، ص ١٦٦ ، ص ٤٣٤ ، ملامح الحياة الاجتماعية فى الحجاز ، ص ١٧٨ — ١٨٠ .

٩٨ — ابن المجاور ، تاريخ المســتبصر ، ص ٥٢ ، الزيلعى ، مكة وعلاقاتها الخارجيــة ، ص ١٧٦ .

٩٩ — Burkhardt, Op. Cit. p. 12; Angelo-Pesce, Op. Cit. p. 31.

١٠٠ — سعيد عاشــور ، المجتمع المصرى ، ص ٨٧ .

١٠١ — قاســم عبده قاســم ، دراســات فى تاريخ مصر الاجتمــاعى ؛ دار المعرف ، القاهرة ١٩ ، ص ٨٩ .

١٠٢ — على السيد على ، القدس فى العصر المملوكى ، القاهرة ١٩٨٦ ، ص ٢٠٤ — ٢٠٥ .

١٠٣ — Angelo-Pesce, Op. Cit. p. 32.

١٠٤ — Burkhardt, Op. Cit. pp. 11, 44.

١٠٥ — الحضراوى ، الجواهر المعدة ، ورقة ٢٤ ، مغربى ، أعلام الحجاز ، جـ ٣ ، ص ١٧٤ ، شوقى عثمان ، تجارة المحيط ، ص ٢٠٣ .

١٠٦ — مغربى ، نفسه ، جـ ٣ ، ص ١٨٢ — ١٨٣ .

١٠٧ — على السيد على ، القدس فى العصر المملوكى ، ص ٢٠٦ .

١٠٨ — ان الأخوة : « محمــد بن أحمد القرشى ، ت ٧٢٩ هـ » ، معــالم القربة فى أحكام الحسبة ، نشره روبن ليوى ؛ كمبردج ، ١٩٣٧ م ، ص ٨ .

١٠٩ — عن هذه الأسرات ودورها فى الحجاز راجع ، على الســيد على ، الحياة الثقافية فى الحجاز فى العصر المملوكى ، تحت الطبع .

١١٠ — السبكى : « تاج الدين أبو نصر عبــد الوهاب ، ت ٧٧١ هـ » ، معيــد النعم ومبيد النقم ، لندن ١٩٠٨ ، ص ٩٢ ، الســخاوى ، كتاب التبر المسبوك ، ص ٣٩١ .

١١١ — ابن الأخوة ، معالم القربة ، ص ١٠٨ .

١١٢ — Angelo-Pesce, Op. Cit. p. 81.

١١٣ — الجزيرى : « عبد القادر بن محمــد بن إبراهيم الأضــارى » ، الدرر الفرائد المنظمــة فى أخبار الحــاج ، وطــريق مكة المكرمة ، الرياض ، ١٩٨٣ ، جـ ٢ ، ص ٥٢٨ ، ابن اياس ، بدائع الزهور ، جـ ٤ ، ص ٨٩ — ١٠٥ ، ١١٦ — ١٣٨ .

١١٤ — نوال ششة ، جدة فى مطلع القرن العاشر ، ص ٣٤ — ٣٥ .

١١٥ — الفاسى ، العقد الثمين ، جـ ٢ ، ص ١٣٧ .

١١٦ — ابن الصيرفى « الخطيب الجوهرى على بن داود » نزهة النفوس والابدان فى تواريخ الزمان ، تحقيق د. حسن حبشى ، القاهرة ١٩٧٠ ، جـ ١ ، ص ١٥٣ .

١١٧ — الفاسى ، العقد الثمين ، جـ ٦ ، ص ٢٠٦ — ٢٠٧ .

١١٨ — المصدر السابق ، جـ ٦ ، ص ٢٠٦ — ٢١٢ ، جـ ٧ ، ص ٨٧—٨٨ ، ٢٥١ .

١١٩ — ابن بطوطة ، الرحلة ، ص ٢٤٣ — ٢٤٤ .

١٢٠ — الفاسى ، العقد الثمين ، جـ ٦ ، ص ٥٨ — ٥٩ .

١٢١ — ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ ٤ ، ص ٤٤ — ٤٥ .

١٢٢ — السخاوى ، كتاب التبر المسبوك ، ص ١٧٥ ، ابن إياس ، بدائع الزهور جـ ٢ ، ص ٢٥٧ .

١٢٣ — المقريزى ، السلوك ، جـ ٤ ، قسم ٢ ، ص ٩٢٩ ، النجم عمر ابن فهد ، اتحاف الورى ، جـ ٤ ، ص ٨١ — ٨٢ .

١٢٤ — نوال ششة ، جدة فى مطلع القرن العاشر ، ص ٤٥ — ٤٦ .

١٢٥ — ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ٤ ، ص ٢٠٧ ، ٢٠٨ — ٢٣٢ ، ٣٥٩ ، ٣٨١ — ٤٣٥ ، ٤٣٦ — ٤٥٨ ، جـ ٥ ، ص ١٩٩ ، قطب الدين النهروالى ، الاعلام بأعلام بيت الله الحرام ، القاهرة ١٣٧٤ هـ ، ص ١٦٥ — ١٦٧ ، نعيم زكى ، طرق التجارة الدولية ، ص ١٤٦ .

١٢٦ — شوقى عثمان ، تجارة المحيط ، ص ٢١٥ ؛
Goitein, A. Med. Soc. Vol. I, p. 220.

١٢٧ — ابن بطوطة ، الرحلة ، ص ٢٤٣ — ٢٤٤ ، مغربى ، اعلام الحجاز ، ص ٥٥ .

١٢٨ — الجزيرى ، الدرر ، جـ١ ، ص ٦٩٥ .

١٢٩ — ابن المجاور ، تاريخ المستبصر ، ص ١٣ .

١٣٠ — ابن سيده : « أبو الحسن بن إسماعيل » ، المخصص ، القاهرة ، المطبعة الأميرية ، ١٣١٦ هـ ، جـ ١٢ ، ص ٢٦٤ .

١٣١ — ابن فهد ، اتحاف الورى ، جـ ٣ ، ص ١٤٥ ، الجزيرى ، الدرر الفرائد ، جـ ١ ص ٦٤٦ .

١٣٢ السخاوى ، كتاب التبر المسبوك ، ص ٧٤ .

١٣٣ — الجزيرى ، الدرر الفرائد ، جـ ١ ، ص ٦٤٢ ، ٦٤٤ ، ٦٩٥ .

١٣٤ — ابن فهد ، اتحاف الورى ، جـ ٣ ، ص ١٢٥ .

١٣٥ — الفاسى ، العقد الثمين ، جـ ٦ ، ص ١٠٦ — ١٠٧ .

١٣٦ — السخاوى ، كتاب التبر المسبوك ، ص ٦٧ ، ٧٤ .

١٣٧ — العقد الثمين ، جـ ٣ ، ص ١٢١ .

١٣٨ — السخاوى ، المصدر نفسه ، ص ٧٤ ، الجزيرى ، الدرر ، جـ ١ ، ص ٦٤٢ — ٦٤٤ ، ٦٩٥ .

١٣٩ — القلقشندى ، صبح الأعشى ، جـ ٤ ، ص ٢٧٥ . عبد الرحمن محمد فهمى ، النقود العربية ماضيها وحاضرها ، القاهرة ١٩٦٤ ، ص ٧٣ .

١٤٠ — عائشة عبد الله باقاسى ، بلاد الحجاز فى العصر الأيوبى ، منشورات نادى مكة الثقافى ، ١٤٠٠ هـ ١٩٨٠ م ، ص ٧٦ .

١٤١ — ابن المجاور ، تاريخ المستبصر ، ص ٣٧ .

١٤٢ — حسنين محمد ربيع ، النظم المالية فى مصر زمن الأيوبيين ، القاهرة ١٩٦٤ م ، ص ٩٨ — ٩٩ ، عبد الرحمن فهمى ، النقود العربية ، ص ٧٣ .

١٤٣ — القلقشندى ، صبح الأعشى ، جـ ٤ ، ص ٢٨٠ ، الفاسى ، العقد الثمين ، جـ ٣ ، ص ١٢٨ ، جـ ٧ ، ص ٤٤٥ ، ابن فهد . إتحاف الورى ، جـ ٣ ، ص ٤٣٢ ، سعيد عاشور ، العصر المماليكى فى مصر والشام ، القاهرة ١٩٧٦ ، ص ٣١٥ — ٣١٦

١٤٤ — القلقشندى ، صبح الأعشى ، جـ ٣ ، ص ٤٤١ ، سعيد عاشور ، المرجع السابق ، ص ٣١٦ .

١٤٥ — المقريزى ، السلوك ، جـ ١ ، قسم ١ ص ٥٧٩ .

١٤٦ — ابن فهد ، اتحاف الورى ، جـ ٣ ، ص ١١٤ .

١٤٧ — المقريزى ، السلوك ، جـ ١ ، قسم ٣ ، ص ٧٨٦ ، الجزيرى ، الدرر الفرائد ، جـ ١ ، ص ٢٨٧ ، ابن فهد ، نفسه ، جـ ٣ ، ص ١٢٣ .

١٤٨ — الفاسى ، العقد الثمين ، جـ ٤ ، ص ١١٧ .

١٤٩ — المقريزى ، السلوك ، جـ ٤ ، قسم ٢ ، ص ١٣٠ ، ٧١٠ ، السخاوى ، كتاب التبر المسبوك ، ص ٣٢١ — ٣٤٧ .

١٥٠ — ابن فهد ، إتحاف الورى ، جـ ٣ ، ص ٥١٠ ، جـ ٤ ، ص ١٩٥ — ١٩٦ .

١٥١ — السخاوى ، المصدر نفسه ، ص ٤٧ .

١٥٢ الفاسى ، العقد الثمين ، جـ ٦ ، ص ١٦٩ .

١٥٣ — المصدر السابق نفسه ، والصفحة ذاتها .

١٥٤ — ابن بطوطة ، الرحلة ، ص ٢٥٤ — ٢٥٩ .

١٥٥ — رافت محمد النبراوى : « التواريخ غير الهجرية على النقود الإسلامية » العصور ، المجلد الخامس ، الجزء الأول ، ٩١ — ١١٢ (١٩٩٠ م) ، ص ١٠٢ — ١٠٥ .

١٥٦ — الفاسى ، العقد الثمين ، جـ ٦ ، ص ١٢٩ — ١٣٣ .

١٥٧ — المقريزى ، السلوك ، جـ ٤ ، قسم ٢ ، ص ٧٩٣ .

١٥٨ — Bovill : The Golden Trade of the Moors, London 1958, pp. 83-84.

١٥٩ — المقريزى ، المصدر السابق ، جـ ٢ ، قسم ٣ ، ص ٥٤٧ .

١٦٠ — الفاسى ، العقد الثمين ، جـ ١ ، ص ٢١٠ ، ابن فهد ، إتحاف الورى فى حوادث سنة ٨٤٧ هـ .

١٦١ — المقريزى ، السلوك ، جـ ٤ ، قسم ٢ ، ص ٧١٠ ، ابن فهد ، إتحاف الورى ، جـ ٣ ، ص ٥١٧ ، الجزيرى ، الدرر الفرائد ، جـ ١ ، ص ٦٩٥ .

١٦٢ — القلقشندى ، صبح الأعشى ، جـ ٣ ، ص ٤٣٧ .

١٦٣ — إتحاف الورى ، جـ ٤ ، ص ٢٣٥ — ٢٣٦ .

١٦٤ — توفيق إسكندر ، « نظام المقايضة فى تجارة مصر الخارجية فى العصر الوسيط » ، المجلة التاريخية المصرية ، العدد السادس ١٩٥٧م ، ص ٣٨ — ٤٠ ، نقولا زيادة : دمشق فى عصر المماليك، بيروت ١٩٦٦ م ، ص ١٦٨ .

١٦٥ — المقريزى ، السلوك ، جـ ٤ ، قسم ٢ ، ص ٧٣٦ — ٧٣٧ .

١٦٦ — القلقشندى ، صبح الأعشى ، جـ ٣ ، ص ٤١٣ — ٤٣٧ .
Adler, Jewish Travellers, London, 1930, pp. 24-26.

١٦٧ — الفاسى : العقد الثمين ، جـ ٢ ، ص ٢٧٣ — ٢٧٥ .

١٦٨ — ابن الهائم ، (الشيخ احمد بن محمد ت ٨١٥ هـ) ، نزهة النفوس فى بيان حكم التعامل بالفلوس ، تحقيق د . عبد الله بن محمد بن احمد الطريقى ، الرياض ، ١٤١٠ هـ — ١٩٩٠ م ، ص ٥٩ .

١٦٩ — المقريزى ، شذور العقود فى ذكر النقود ، دراسة وتحقيق د . محمد عبد الستار عثمان ، القاهرة ١٩٩٠ م ، ص ١٥٣ — ١٥٤ .

١٧٠ — المصدر السابق نفسه ، ص ٦٨ ، ابن حجر العسقلانى ، إنباء الغمر بابناء العمر ، تحقيق د . حسن حبشى ، القاهرة ١٩٧٢ ، جـ ٣ ، ص ١٠٠ .

١٧١ — ابن الهائم ، نفسه ، ص ٤٠ — ٤١ ، الفاسى ، العقد الثمين ، جـ ٣ ، ص ٢٩٢ .

١٧٢ — عبد اللطيف إبراهيم ، « وثيقة بيع دراسة ونشر وتحقيق » ، مجلة كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، المجلد التاسع عشرة الجزء الثانى ، ديسمبر ١٩٥٧ ، ص ١٤٤ ، **الفاسى ، العقد الثمين ، جـ ٣ ، ص ٢٩٢ .**

١٧٣ — ابن الهائم ، نفسه ، ص ٤٠ — ٤١ .

١٧٤ — المقريزى ، السلوك ، جـ ٤ ، قسم ٢ ، ص ٧٩٣ ، الفاسى ، العقد الثمين ، جـ ٣ ، ص ٧٥ .

١٧٥ — الفاسى ، العقد الثمين ، جـ ٣ ، ص ٢٧ — ٢٨ .

١٧٦ — المقريزى ، السلوك ، جـ ٤ ، قسم ٢ ، ص ٧٩٣ ، نعيم زكى ، طرق التجارة الدولية ، ص ٢٧٣ — ٢٧٥ .

١٧٧ — Burkhardt, Op. Cit., pp. 38-40.

١٧٨ — ابن الأخوة ، معالم القربة ، ص ٥٢ .

١٧٩ — الدمشقى : « أبو الفضل جعفر بن على » الإشارة إلى محاسن التجارة ، القاهرة ١٣١٨ هـ ، ص ٣٩ ، ٧١ .

١٨٠ — ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ ٢ ، ص ٢٤٣ .

١٨١ — ابن حجر ، إنباء الغمر ، ص ٢ ، ص ٢٧٥ — ٢٧٦ .

١٨٢ — **الفاسى ، العقد الثمين ، جـ ٨ ، ص ٣٥٦** ، ابن فهد ، إتحاف الورى ، جـ ٣ ، ص ٣٤٧ .

١٨٣ — Angelo-Pesce, Op. Cit. p. 219.

١٨٤ — ابن فهد ، نفس المصدر ، جـ ٤ ، ص ١٦٢ ، Ibid, p. 219.

١٨٥ — لطفى عبد الوهاب ، نفسه ، ص ٣٢٠ .

١٨٦ — ابن جبير ، الرحلة ، ص ٨٦ — ٨٩ ، ابن سعيد المغربى : « أبو الحسن على بن موسى » ، كتاب الجغرافيا ، حققه ووضع مقدمته وعلق عليه إسماعيل العربى ، بيروت ، ١٩٧٠ م ، ص ١١٦

١٨٧ — ابن خرداذبة : « أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله بن احمد الخراساتى » ، المسالك والممالك ، ليدن ، ١٨٨٩ م ، ص ١٤٥ — ١٤٨ ، **قدامة بن جعفر الكاتب ، نبذ من كتاب الخراج وصفة الكتابة، تشريع كتاب المسالك لابن خرداذبة ، ليدن ، ١٨٨٩ م ، ص ١٩٢ — ١٩٣ .**

١٨٨ — بامخرمة ، تاريخ ثغر عدن ، ص ٢١٩ .

١٨٩ — Angelo Pesce, Op. Cit. p. 66.

١٩٠ — لطفى عبد الوهاب ، نفسه ، ص ٣١٤ .

١٩١ — ابن الفقية : « ابو بكر احمد بن محمد الهمذانى » ، كتاب البلدان، ليدن ، ١٣٠٢ هـ ، ص ٣٠ ، عبد الله محمد السيف ، الحياة الاقتصادية والاجتماعية فى نجد والحجاز فى العصر الأموى ، الرياض ، ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م ، حسين على المسرى ، تجارة العراق فى العصر العباسى ، الكويت ، ١٩٨٢ ، ص ٣٧٨ .

١٩٢ — الهمزانى : « ابو محمد الحسن بن احمد بن يعقوب » ، كتاب صفة جزيرة العرب ، تحقيق محمد بن عبد الله بن بلهيد النجدى ، القاهرة ، ١٩٥٣ م ، ص ١٩٧ — ١٩٨ .

١٩٣ — المقدسى : « ابو عبد الله محمد بن احمد » ، احسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ، ليدن ، ١٩٠٩ م ، ص ٩٧ .

١٩٤ — الهمزانى ، صفة جزيرة العرب ، ص ٢٠٠ .

١٩٥ — الجاحظ : « ابو عثمان عمر بن محمد » ، التبصر بالتجارة ، نشره وعلق عليه السيد حسن حسنى عبد الوهاب ، القاهرة، ١٩٣٥م، ص ٣٩ ، القزوينى : « **زكريا بن محمد بن محمود** » ، آثار البلاد واخبار العباد ، نشر دار صادر ، بيروت ، ١٩٦٩ م ، ص ٣٩ ، ابن المجاور ، نفسه ، ص ٨٩ .

١٩٦ — ابن المجاور ، نفس المصدر ، ص ٨٠٣ .

١٩٧ — الفاسى ، العقد الثمين ، ج ٤ ، ص ٣٤٩ .

١٩٨ — على بن حسين السليمان ، النشاط التجارى فى شبه الجزيرة العربية اواخر العصور الوسطى ، رسالة دكتوراه غير منشورة بجامعة القاهرة ، ١٩٥٤ م ، ص ١٥٠ — ١٥١ ، عائشة عبد الله باقاسى ، بلاد الحجاز فى العصر الأيوبى ، ص ٦٩ .

١٩٩ — بامخرمة ، تاريخ ثغر عدن ، ص ٢١٩ ، نعيم زكى ، نفس المرجع ، ص ١٣٨ ، عائشة باقاسى ، نفسه ، ص ٢٧ .

٢٠٠ — نعيم زكى ، نفسه ، ص ١٣٧ ،
Heyd. Hist. du Commerce, Tome 11, p. 444.

٢٠١ — ناصر خسرو ، سفرنامه ، ص ١٢٠ .

٢٠٢ — قدامة بن جعفر ، الخراج ، ص ١٨٦ .

٢٠٣ — الاصطخرى : « ابو اسحاق إبراهيم » المسالك والممالك ، تحقيق محمد جابر عبد العال ، دار القلم ، ١٩٦١ م ، ص ٢٨ ، حسين على المسرى ، تجارة العراق ، ص ٣٨٩ — ٣٩٠ .

٢٠٤ — المسعودى ، مروج الذهب ، ج ١ ، ص ٣٢٤ .

٢٠٥ — راجع ، حسين على المسرى ، تجارة العراق ، ص ٢٠٩ .

٢٠٦ — ابن المجاور ، نفس المصدر ، ص ٢٦ .

٢٠٧ — ابن الأثير : « عز الدين ابو الحسن على بن ابى الكرم » ، الكامل فى التاريخ ، ليدن ١٨٥١ — ١٨٧٦ م ، جـ ٧ ، ص ١٠٠ .

٢٠٨ — المقريزى ، السلوك ، جـ ٤ ، قسم ٢ ، ص ٧٦٨ .

٢٠٩ — لطفى عبد الوهاب ، نفسه ، ص ٣١٤ .

٢١٠ — محمد محمد التهامى ، « الاصلاحات المملوكية فى الأراضى الحجازية » ، الدارة ، العدد ١ شوال ١٤٠٥ هـ — يونيو ١٩٨٥ ، ص ٨٥ .

٢١١ — نعيم زكى ، نفسه ، ص ١٢٥ .

٢١٢ — ابن حوقل : « أبو القاسم عبيد الله » ، كتاب المسالك والممالك ، ليدن ، ١٨٧٢ م ، ص ٢١ ، Heyd, Op. Cit., 11, p. 446.

٢١٣ — القلقشندى ، صبح الأعشى ، جـ ٥ ، ص ٢٥٨ ، على السليمان ، النشاط التجارى ، ص ٩٧ — ٩٨ ، Angelo Pesce : Op. Cit., p. 63.

٢١٤ — نوال ششة ، جدة فى مطلع القرن العاشر ، ص ٢٧ .

٢١٥ — التجيبى ، مستفاد الرحلة ، ص ٢١٨ .

٢١٦ — ابن جبير ، الرحلة ، ص ٤٠ — ٤١ ، ابن عبد الظاهر ، تشريف الأيام والعصور ، ص ١٧٢ ، المقريزى ، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، بولاق ، ١٢٧٠ هـ ، جـ ١ ، ص ٢٠٢ — ٢٠٣ ، Dopp : Op. Cit., p. 52.

٢١٧ — ابن بطوطة ، الرحلة ، ص ٢٥٩ .

٢١٨ — شوقى عثمان ، تجارة المحيط ، ص ٢١٣ .

٢١٩ — ابن جبير ، الرحلة ، ص ٤٦ .

٢٢٠ — القزوينى ، آثار البلاد وأخبار العباد ، ص ١٨ .

٢٣١ — ناصر خسرو ، سفرنامه ، ص ١١٩ ، الزيعلى ، مكة وعلاقاتها الخارجية ، ص ١٨٠ .

٢٢٢ — نعيم زكى ، نفس المرجع ، ص ١٣٤ ، نوال ششة ، جدة فى مطلع القرن العاشر ، ص ٢٧ .

٢٢٣ — ابن فرج ، رسالة السلاح والعدة ، ص ٥٨ ، Angelo Pesce : Op. Cit., p. 63.

٢٢٤ — ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ ٤ ، ص ١٩٢ ، نعيم زكى ، طرق التجارة ، ص ١٣٤ ، Ibid, p. 32.

٢٢٥ — المقريزى ، السلوك ، ج ٤ ، قسم ١ ، ص ٥٠٣ ، ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ١٢ ، ص ١٠٩ ، الفاسى ، شفاء الغرام ، ج ٢ ، ص ٢٧٤ ، ابن فهد ، إتحاف الورى ، ج ٣ ، ص ١٨٠ .

٢٢٦ — The Itinerary of Lodovico di Varthema, p. 40.

٢٢٧ — عائشة باقاسى ، بلاد الحجاز فى العصر الأيوبى ، ص ٧٠ .

٢٢٨ — Burkhardt, Op. Cit., p. 28.

٢٢٩ — نعيم زكى ، طرق التجارة ، ص ٢٤٤ .

٢٣٠ — Heyd, Op. Cit., 11, p. 696.

١٣١ — السخاوى ، كتاب التبر المسبوك ، ص ١٩ .

٢٣٢ — المقريزى ، السلوك ، ج ٤ ، قسم ٢ ، ص ٨٢٣ ، ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٨ ، ص ١٥٢ ، نعيم زكى ، نفس المرجع ، ص ١٣٤ — ١٣٥ .

٢٣٣ — Felix Fabri, the Wanderings of Felix Fari, 1480-1483, London, 1891, Vol. II, pp. 642-693.

٢٣٤ — ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج ٤ ، ص ٢٠٧ — ٤٥٨ ، نعيم زكى ،طرق التجارة ، ص ١٣٥ .

٢٣٥ — الجزيرى ، الدرر الفرائد ، ج ١ ، ص ٧٦٤ ، ابن فهد ، إتحاف الورى ، ج ٤ ، ص ١٦١ .

٢٣٦ — Angelo Pesce, Op. Cit., p. 66.

٢٣٧ — ابن فرج ، السلاح والعدة ، ص ٤٦ .

٢٣٨ — ابن بطوطة ، الرحلة ، ص ٢٤٥ .

٢٣٩ — المصدر السابق ، ص ٢٤٥ — ٢٥٠ ، محمد صالح ضرار ، تاريخ سواكن والبحر الأحمر ، الدار السودانية للكتب ، الخرطوم ، ١٩٨٠ ، ص ٢٣ — ٧٠ .

٢٤٠ — الفاسى ، شفاء الغرام ، ج ٢ ، ص ٢٧٢ ، ريتشارد مورتيل . « مصادر التموين الغذائى لإمارة مكة ٣٥٨ / ٩٦٩ هـ — ٩٢٣ / ١٥١٧ م » ، مجلة كلية الآداب ، جامعة الملك سعود ، المجلد الثانى عشر ، العدد الأول ١٩٨٥ ، ص ٢٠٤ .

٢٤١ — نعيم زكى ، طرق التجارة ، ص ١٤١ .

٢٤٢ — شوقى عثمان ، تجارة المحيط ، ص ٤٤ .

٢٤٣ — Burkhardt, Op. cit., p. 28.

٢٤٤ — ابن بطوطة ، الرحلة ، ص ٢٥٣ .

٢٤٥ — الجزيرى ، الدرر الفرائد ، جـ ١ ، ص ٢٥٧ ، ريتشـارد مورتيـل ، مصادر التموين ، ص ٢١٦ ، شـوقى عثمان ، تجارة المحيط : ص ٨٨ .

٢٤٦ — G.S.P. Freeman, the Medieval Hist. of the Goast of Tanganyike, Berlin, 1962, p. 326.; شوقى عثمان ، تجارة المحيط ، ص ١٦٨ — ١٨٣ .

٢٤٧ — ابن بطوطة ، الرحلة ، ص ٢٥٩ .

٢٤٨ — Freeman, Op. Cit., pp. 326-330.

٢٤٩ — شـوقى عثمان ، تجـارة المحيط ، ص ١٦٨—١٨٣ .

٢٥٠ — Angelo Pesce, Op. Cit., pp. 33-36.

٢٥١ — الحميرى ، الروض المعطار ، ص ٨٧ ، الزيلعى ، مكة وعلاقاتها، ص ١٧٧ .

٢٥٢ — الإدريسى : « ابو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس الحمودى الحسنى » ، كتاب نزهة المشتاق فى اختـراق الآفاق ؛ عالم الكتب ، بيروت ، ١٩٨٩ ، جـ ١ ، ص ١٣٨ — ١٣٩ .

٢٥٣ — المقدسى ، أحسن التقاسيم ، ص ٩٧ .

٢٥٤ — شـوقى عثمان ، تجارى المحيط ، ص ١٧٤ — ١٧٦ .

٢٥٥ — ابن فهـد ، اتحاف الورى ، جـ ٣ ، ص ٥٦٥ .

٢٥٦ — بامخرمة ، تاريخ ثغرعدن ، ص ٥٨ ، سـعيد عاشـور ، العصر المماليكى فى مصر والشام ، ص ٢٨٥ — ٢٨٦ .

٢٥٧ — المقريزى الخطط ، جـ ٢ ، ص ٢٠٢ ، ابن تغـرى بردى ، النجـوم الزاهرة ، جـ ١٤ ، ص ٣٦٢ .

٢٥٨ — نعيم زكى ، طرق التجارة ، ص ١٣٦ — ١٣٧ .

٢٥٩ — الحميرى ، الروض المعطـار ، ص ٨٧ ، ابن بطوطة ، الرحـلة ؛ ص ٢٤٦ — ٢٤٧ ، Heyd, Op. Cit., 11, p. 446.

٢٦٠ — نعيم زكى ، طرق التجارة ، ص ١٣٨ — ١٤٠ ، Heyd, Op. Cit., 11, pp. 379, 595-596.

٢٦١ — نعيم زكى ، نفسه ، ص ١٣٦ — ١٣٧ ، شوقى عثمان ، تجـارة المحيط ، ص ٦٩ .

٢٦٢ — ابن بطوطة ، الرحلة ، ص ٢٥٩ — ٢٦٣ .

٢٦٣ — ابن المجـاور ، تاريخ المستبصر ، ص ١٤٢ .

٢٦٤ — ابن جوقل ، كتاب المسالك ، ص ٣٩ — ٤٠ ، نعيم زكى ، طرق التجارة ، ص ١٢١ .

٢٦٥ — السيراف « ابو زيد » ، سلسلة التواريخ ، باريس ، ١٨١١ م ، ص ١٣٦ — ١٣٧ .

٢٦٦ — هايد ، تاريخ التجارة فى الشرق الادنى فى العصور الوسطى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٥ ، جـ ١ ص ٥٢ .
٢٦٧ — العينى : « بدر الدين محمود » ، عقد الجمان فى تاريخ الزمان ، عصر سلاطين المماليك ، تحقيق د . محمد محمد أمين ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٨ ، ص ٣٠٣ .
٢٦٨ — القزوينى ، آثار البلاد واخبار العباد ، ص ٨٣ .
٢٦٩ — Heyd, Op. Cit., 11, p. 660.
٢٧٠ — الدمشقى ، نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر ، ص ١٥٩ ، الإدريسى ، نزهة المشتاق ، جـ ١ ، ص ٣٧ — ٣٨ ، نعيم زكى ، طرق التجارة ، ص ١٧٤ — ٢٢٦ ، ٣٥١ ، شوقى عثمان ، تجارة المحيط ، ص ١٩٢ .
٢٧١ — المقريزى ، السلوك ، جـ ٤ ، قسم ٢ ، ص ٨٧٢ .
٢٧٢ — شوقى عثمان ، تجارة المحيط ، ص ٧١ — ٧٨ .
٢٧٣ — نعيم زكى ، طرق التجارة ، ص ١٦١ — ١٦٤ .
٢٧٤ — شوقى عثمان ، نفس المرجع ، ص ٢٣٣ — ٢٣٤ .
٢٧٥ — القزوينى ، آثار البلاد ، ص ٥٥ .
٢٧٦ — نعيم زكى ، نفسه ، ص ٢١٢ — ٢٢٦ ، Heyd, Op. Cit., 11, pp. 679-675.
٢٧٧ — شوقى عثمان ، نفس المرجع ، ص ٢٦٧ .
٢٧٨ — نعيم زكى ، نفسه ، ص ١٩ .
٢٧٩ — ابن فهد ، اتحاف الورى ، جـ ٣ ، ص ٥٩٢ ، Angelo Pesce, Op. Cit., p. 67.
٢٨٠ — Ibid, p. 82.
٢٨١ — ابن بطوطة ، الرحلة ، ص ٣٧٨ .
٢٨٢ — Angelo Pesce, Op. Cit., p. 62.
٢٨٣ — شوقى عثمان ، تجارة المحيط ، ص ١٩٢ .
٢٨٤ — ابن جبير ، الرحلة ، ص ٨٦ — ٨٧ ، نعيم زكى ، طرق التجارة ، ص ٢١٥ — ٢١٩ ، ٢٢٦ .
٢٨٥ — الجزيرى ، الدر الفرائد ، جـ ١ ، ص ٧٥٥ .
٢٨٦ — نعيم زكى ، طرق التجارة ، ص ٢٥١ .
٢٨٧ — المرجع السابق نفسه ، ص ٢١٣ — ٢١٤ ، Heyd, Op. Cit., 11, p. 643.
٢٨٨ — ك.م. بانيكار ، آسيا والسيطرة الغربية ، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد ، دار المعارف بمصر ، د.ت ، ص ٢١ .
٢٨٩ — نعيم زكى ، نفسه ، ص ١٧٣ .
٢٩٠ — Angelo Pesce, Op. Cit., pp. 216-217.
٢٩١ — Ibid, p. 67.

٢٩٢ — نعيم زكى ، نفس المرجع ، ص ١٦٨ .
٢٩٣ — المرجع السابق ، ص ١٧٣ .
٢٩٤ — Burkhardt, Op. Cit., p. 28.
٢٩٥ — شوقى عثمان ، تجارة المحيط ، ص ٢١٣ .
٢٩٦ — Angelo Pesce, Op. Cit., p. 66.
٢٩٧ — عائشة باقاسى ، بلاد الحجاز فى العصر الايوبى ، ص ٧٢ .
٢٩٨ — الإدريسى ، نزهة المشتاق ، ص ١٣٥ .
٢٩٩ — الفاسى ، العقد الثمين ، جـ ٦ ، ص ٦٩ — ٧٠ .
٣٠٠ — المصدر السابق نفسه ، جـ ٤ ، ص ١٠٠ — ١٠١ .
٣٠١ — نفس المصدر السابق ، جـ ٤ ، ص ١٢٠ — ١٢٢ .
٣٠٢ — نفس المصدر السابق ، جـ ٦ ، ص ٥٨ ، ٥٩ ، ٦٥ .
٣٠٣ — نفس المصدر ، جـ ٤ ، ص ١٣٦ .
٣٠٤ — نفس المصدر ، جـ ٤ ، ص ١٣٢ .
٣٠٥ — المقريزى ، الذهب المسبوك فى ذكر من حج من الخلفاء والملوك ، ص ١٠١ ، ١٠٢ .
٣٠٦ — ابن فهد ، اتحاف الورى ، جـ ٣ ، ص ٥٧١ .
٣٠٧ — ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، جـ ١٤ ، ص ٢٧١ — ٢٧٢ .
٣٠٨ — ابن اياس ، بدائع الزهور ، جـ ٢ ، ص ١٠٣ .
٣٠٩ — ابن فهد ، اتحاف الورى ، جـ ٤ ، ص ١١٥ .
٣١٠ — المقريزى ، السلوك ، جـ ٤ ، قسم ٢ ، ص ٧٠٧ — ٩٣٠ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ ١٤ ، ص ٣٦٧ — ٣٦٩ ؛ الجزيرى ، الدرر الفرائد المنظمة فى اخبار الحاج وطريق مكة المعظم ، جـ ١ ، ص ٧١٨ .
٣١١ — بدائع الزهور ، جـ ٢ ، ص ١٠٣ .
٣١٢ — المقريزى ، السلوك ، جـ ٤ ، قسم ٢ ، ص ٨٨٦ .
٣١٣ — النجم عمر بن فهد ، اتحاف الورى ، جـ ٤ ، ص ١٦ .
٣١٤ — المقريزى ، الخطط ، جـ ٢ ، ص ٢٢٤ ، ابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ ١٤ ، ص ٨ ، ١٥ ، ٢١ ، سعيد عاشور ، العصر المماليكى ، ص ٤٤٨ — ٤٤٩ .
٣١٥ — المقريزى ، السلوك ، جـ ٤ ، قسم ٢ ، ص ٩٢٨ .
٣١٦ — السخاوى ، كتاب التبر المسبوك فى ذيل السلوك ، ص ٦٧ ، ٢١٩
٣١٧ — ابن فهد ، اتحاف الورى ، جـ ٤ ، ص ١٦ ، سعيد عاشور ، العصر المماليكى ، ص ٤٦٨ .
٣١٨ — السخاوى ، كتاب التبر المسبوك ، ص ٣٢١ — ٣٤٧ .

٣١٩ — ابن فهد ، اتحاف الورى ، جـ ٤ ، ص ١٦ ، سعيد عاشور ، العصر المماليكى ، ص ٤٦٨ .

٣٢٠ — ابن حجر ، انباء الغمر ، جـ ١ ، ص ٢١١ ، نعيم زكى ، طرق التجارة ، ص ٣٠٤ .

٣٢١ — القلشقندى ، صبح الأعشى ، جـ ٤ ، ص ١٣ ،
S.D. Goitein, Jews and Arabs, p. 115.

٣٢٢ — نعيم زكى ، طرق التجارة ، ص ١٣٨ ، ٣١٦ ، قاسم عبده قاسم ، « علاقات مصر بعالم البحر الأحمر » من كتاب البحر الأحمر فى التاريخ والسياسة الدولية المعاصرة ، القاهرة ١٩٧٩ ، ص ١٤٩ — ١٥٠ .

٣٢٣ — ابن فهد ، اتحاف الورى ، جـ ٤ ، ص ٨٠ — ٨٢ .

٣٢٤ — المقريزى ، السلوك ، جـ ٤ ، قسم ٢ ، ص ٩٢٩ — ٩٣٠ .

٣٢٥ — المصدر السابق ، جـ ٤ ، قسم ٣ ، ص ١١٩٠ — ١١٩١ ،
Lane-Poole, A Hist. of Egypt, p. 340.

٣٢٦ — المقريزى ، المصدر السابق ، جـ ٤ ، قسم ٢ ، ص ٩٢٩ .

٣٢٧ — المصدر السابق نفسه ، جـ ٤ ، قسم ٣ ، ص ١١٩٣ .

٣٢٨ —
Lane-Poole, Op. Cit. p. 303.

٣٢٩ — الجزيرى ، الدرر الفرائد جـ ١ ، ص ٧١٨ .

٣٣٩ — محمد أمين صالح ، « تجارة البحر الأحمر فى عصر المماليك الجراكسة » ، من كتاب البحر الأحمر فى التاريخ والسياسة ، ص ١٧٠ — ١٧١

٣٣١ — ابن اياس ، بدائع الزهور ، جـ ٤ ، ص ٢٨٧ ، ٣٥٩ .

٣٣٢ — نعيم زكى ، طرق التجارة ، ص ٣١٣ — ٣١٤ .

٣٣٣ — ابن جبير ، الرحلة ، ص ٢٥٠ — ٢٥١ .

٣٣٤ — المقريزى ، الخطط ، جـ ١ ، ص ١٠٦ ، سعيد عاشور ، العصر المماليكى ، ص ٢٠١ — ٢٠٢ .

٣٣٥ — القلقشندى ، صبح الأعشى ، جـ ٣ ، ص ٤٦١ ، نعيم زكى ، نفسه ، ص ٣١٥ .

٣٣٦ — نعيم زكى ، طرق التجارة ، ص ٣١٦ .

٣٣٧ — المرجع السابق نفسه ، ٣١٦ ، ٣٢٢ .

٣٣٨ — ابن فهد ، اتحاف الورى ، جـ ٤ ، ص ٣١ .

٣٣٩ — المقريزى ، السلوك ، جـ ٤ ، قسم ٢ ، ص ٨٧٢ — ٨٧٣ .

٣٤٠ — الجزيرى ، الدرر الفرائد ، جـ ١ ، ص ٢٧٣ .

٣٤١ — نعيم زكى ، طرق التجارة ، ص ٢٧١ .

٣٤٢ — لطفى عبد الوهاب ، العرب فى العصور القديمة ، ص ١٠٤ — ١٠٥ .

٣٤٣ — ناصر خسرو ، سفرنامه ، ص ١٢٠ ، ١٢٥ .

٣٤٤ — ابن جبير ، الرحلة ، ص ٥٣ ، ٥٤ .

٣٤٥ — ابن بطوطة ، الرحلة ، ص ٢٤٢ — ٢٤٣ .

٣٤٦ — الحضراوى ، الجواهر المعدة ، ورقة ٢٣ مخطوط .

٣٤٧ — ابن المجاور ، تاريخ المستبصر ، ص ٤٣ — ٤٥ .

٣٤٨ — ابن منظور ، لسان العرب ، جـ ١٨ ، ص ٢١٧ .

٣٤٩ — السمهودى : « نور الدين على بن أحمد » ، وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى ، دار الباز للنشر والتوزيع ، مكة المكرمة ، ١٣٧٤ هـ / ١٩٥٥ م ، جـ ٢ ، ص ٢١٧ ، ٢٢٤ .

٣٥٠ — الإمام الشافعى ، كتاب الأم ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، جـ ٣ ، ص ٢٧٠ .

٣٥١ — ابن جبير ، الرحلة ، ص ٥٣ .

٣٥٢ — الفاسى ، العقد الثمين ، جـ ٤ ، ص ١٢٢ .

٣٥٣ — ابن فهد ، اتحاف الورى ، جـ ٤ ، ص ١١٢ .

٣٥٤ — يوسف شلحة ، رحلة تاميزيه ، ص ٤٥٧ .

٣٥٥ — الإدريسى ، نزهة المشتاق ، جـ ١ ، ص ١٤١ .

٣٥٦ — مغربى ، ملامح الحياة الاجتماعية ، ص ٢١٤ — ٢١٦ .

٣٥٧ — عاتق البلادى ، معجم قبائل الحجاز ، ص ١٠٧ — ١٠٨ .

٣٥٨ — الحتيل : « أحمد بن ابراهيم بن عبد الله » ، كنز الأنساب ومجمع الآداب فى الرياض ، ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨ م ، ص ١٢٦ — ١٢٩ .

٣٥٩ — الزيلعى ، مكة وعلاقاتها الخارجية ، ص ١٨٥ .

٣٦٠ — مغربى ، أعلام الحجاز ، جـ ٣ ، ص ١٤٩ .

٣٦١ — Burkhardt, Op. Cit., p. 30.

٣٦٢ — Ibid, pp. 13, 53-54.

٣٦٣ — لطفى عبد الوهاب ، نفس المرجع ، ص ٢٢٥ .

٣٦٤ — ابن فهد ، اتحاف الورى ، جـ ٤ ، ص ١١٢ .

٣٦٥ — ابن جبير ، الرحلة ، ص ٩٩ .

٣٦٦ — حسنين ربيع ، وثائق الجنيزا ، ص ٢٢ ، الزيلعى ، نفسه ، ص ١٨٥ .

٣٦٧ — ياقوت الحموى ، معجم البلدان ، جـ ٢ ، ص ٢٩٧ .

٣٦٨ — الزيلعى ، نفسه ، ص ١٨٥ — ١٨٦ .

٣٦٩ — ريتشارد مورتيل ، نفسه ، ص .

٣٧٠ — الزيلعى ، نفسه ، ص ١٨٥ — ١٨٩ .
٣٧١ — المقدسى ، أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ، ص ٨٦ ، ابن جبير ، الرحلة ، ص ١٣٦ ، ابن بطوطة ، الرحلة ، ص ١٣٠ ، القلقشندى ، صبح الأعشى ، جـ ٤ ، ص ٢٥٩ .
٣٧٢ — ابن فهد ، اتحاف الورى ، جـ ٣ ، ص ٢٥٤ ، حاشية ٣ .
٣٧٣ — ابن فهد ، نفسه ، جـ ٣ ، ص ٢٥٤ — ٢٧١ .
٣٧٤ — الزيلعى ، مكة وعلاقاتها الخارجية ، ص ١٨٦ .
٣٧٥ — أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ، ص ٨٦ .
٣٧٦ — الزيلعى ، نفس المرجع ، ص ١٨٥ — ١٨٦ .
٣٧٧ — السخاوى ، كتاب التبر المسبوك ، ص ١٠١ .
٣٧٨ — ابن المجاور ، نفسه ، ص ٤١ .
٣٧٩ — المصدر السابق ، نفسه ، ص ٣٩ — ٤٠ .
٣٨٠ — الفاسى ، العقد الثمين ، جـ ٢ ، ص ٢٢٧ — ٢٢٨ .
٣٨١ — المصدر السابق ، والصفحات ذاتها ، مغربى .
٣٨٢ — مغربى ، أعلام الحجاز ، جـ ٣ ، ص ١٤٢ — ١٤٣ .
٣٨٣ — لطفى عبد الوهاب يحيى ، العرب فى العصور القديمة ، ص ٣٢٥
٣٨٤ — المرجع السابق ، ص ١٥٣ — ١٥٥ ، ص ٣٢٥ .
٣٨٥ — المرجع السابق نفسه ، ص ٣٣٠ .
٣٨٦ — هايد ، تاريخ التجارة فى الشرق الأدنى فى العصور الوسطى ، مراجعة وتقديم عز الدين فوده ، الهيئة المصرية للكتاب ، ١٩٨٥ م ، الجزء الأول ، ص ٥٢ .
٣٨٧ — نعيم زكى ، طرق التجارة الدولية ، ص ١٦١ — ١٦٨ .
٣٨٨ — محمد صالح ضرار ، تاريخ سواكن والبحر الأحمر ، ص ١٨٦ .
٣٨٩ — ابن جبير ، الرحلة ، ٤٧ .
٣٩٠ — المسعودى ، مروج الذهب ، جـ ١ ، ص ٣٦ ، الزيلعى ، مكة وعلاقاتها الخارجية ، ص ١٧٤ .
٣٩١ — آدم متز ، الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى ، ترجمة محمد عبد الهادى أبو ريدة ، القاهرة ، ١٩٤٨ ، جـ ٢ ، ص ٤٢٨ .
٣٩٢ — الإدريسى ، نزهة المشتاق ، جـ ١ ، ص ٥٧ .
٣٩٣ — Angelo Pesce, Jiddah, p. 63.
٣٩٤ — التجيبى ، مستفاد الرحلة ، ص ٢٠٧ — ٢٠٨ .
٣٩٥ — Burkhardt, Travels in Arabia, p. 34.
٣٩٦ — الإدريسى ، نزهة المشتاق جـ ١ ، ص ١٣٦ ، ١٣٧ .
٣٩٧ — التجيبى ، مستفاد الرحلة ، ص ٢٠٨ .

٣٩٨ — المصدر السابق نفسه ، ص ٢٠٨ .

٣٩٩ — ابن جبير ، الرحلة ، ص ٤٧ ، نعيم زكى ، طرق التجارة ، ص ١٦٩ — ١٧٠ ، محمد صالح ضرار ، تاريخ سواكن ، ص ١٨٣

٤٠٠ — ابن فهد ، اتحاف الورى ، جـ ٤ ، ص ١٩٢ ، حاشية ٢ .

٤٠١ — شوقى عبد القوى عثمان ، تجارة المحيط الهندى ، ص ١٥١ — ١٥٢ .

٤٠٢ — نوال سراج ششة ، جدة فى مطلع القرن العاشر ، ص ١٠٣ ، ١٠٤ ، Angelo Pesce, Op. Cit., p. 31.

٤٠٣ — النجم عمر بن فهد ، اتحاف الورى ، جـ ٤ ، ص ١٧٨ .

٤٠٤ — ابن على ، يحيى بن الحسين بن القاسم بن محمد بن على ، غاية الأمانى فى أخبار القطر اليمانى ، تحقيق د . سعيد عاشور ، القاهرة ١٩٦٨ م ، القسم الثانى ، ص ٦٣٠ — ٦٣١ ، ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ ٤ ، ص ٣٠٧ — ٣٦٢ .

٤٤٠٥ — ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ ٤ ، ص ١١٦ — ١٢٤ .

٤٠٦ — ابن على ، غاية الأمانى ، القسم الثانى ، ص ٦٣٥ .

٤٠٧ — ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ ٤ ، ص ١١٦ — ١٢٤ .

٤٠٨ — ابن على ، غاية الأمانى ، القسم الثانى ، ص ٦٤٠ .

٤٠٩ — الإدريسى ، نزهة المشتاق ، ص ١٣٨ — ١٤٠ .

٤١٠ — ابن المجاور ، تاريخ المستبصر ، ص ٤٢ — ٤٣ .

٤١١ — نعيم زكى ، طرق التجارة ، ص ٢٣٨ — ٢٣٩ .

٤١٢ — Burkhardt, Op. Cit. p. 43.

٤١٣ — ابن المجاور ، تاريخ المستبصر ، ص ١٣ ، ٢٢ ، ٣٢ ، ٩٧ ، الزيلعى مكة وعلاقاتها الخارجية ، ص ١٩٠ .

٤١٤ — الزيلعى ، نفس المرجع ، ص ١٨٩ .

٤١٥ — احمد فاروق ، دباغه الجلد ، مجلة العرب ، السنة العاشرة ، الجزء السابع ، والثامن ، ص ٥٣٨ .

٤١٦ — ابن جبير ، الرحلة ، ص ٥٣ .

٤١٧ — الزيلعى ، نفس المرجع ، ص ١٨٥ — ١٨٦ .

٤١٨ — ابن المجاور ، تأريخ المستبصر ، ص ١٣ .

٤١٩ — المصدر السابق نفسه ، ص ١٤٢ — ١٤٣ ، الزيلعى ، نفس المرجع ، ص ١٩١ .

٤٢٠ — مغربى ، اعلام المجلة ، جـ ٣ ، ص ١٦٥ .

٤٢١ — التجيبى ، مستفاد الرحلة ، ص ٢١٨ — ٢١٩ .

٤٢٢ — ابن المجاور ، نفس المصدر ، ص ٤٣ .

٤٢٣ المصدر السابق نفسه ، ص ٢٠ .

٤٢٤ — احمد فاروق ، دباغة الجلود ، ص ٥٤٥ .

٤٢٥ — المرجع السابق نفسه ، والصفحة ذاتها ، الزيلعى ، مكة وعلاقاتها ص ١٩٠ .

٤٢٦ — ابن المجاور ، نفس المصدر ، ص ١٣ .

٤٢٧ — المصدر السابق نفسه ، والصفحة ذاتها .

٤٢٨ — ابن جبير ، الرحلة ، ص ٩٨ .

٤٢٩ — المقريزى ، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، بولاق ١٢٧٠ هـ ، جـ ١ ، ص ٩٢ — ١٠٦ .

٤٣٠ — ابن جبير ، الرحلة ، ص ٩٨ — ٩٩ .

٤٣١ — S.D. Goitein, A Med. Soc., California, 1967, Vol. I, p. 100.

٤٣٢ — ابن جبير ، الرحلة ، ص ٥٢ — ٥٣ .

٤٣٣ — التجيبى ، مستفاد الرحلة ، ص ٢١٨ .

٤٣٤ — ابن المجاور ، تأريخ المستبصر ، ص ٥١ — ٥٢ .

٤٣٥ — ابن جبير ، الرحلة ، ص ٤٧ .

٤٣٦ — الزيلعى ، مكة وعلاقاتها ، ص ١٨٩ .

٤٣٧ — مغربى ، ملامح الحياة الاجتماعية ، ص ٢١٤ — ٢١٦ .

٤٣٨ — Goitein, Op. Cit. Vol. I, p. 100.

٤٣٩ — الإدريسى ، نزهة المشتاق ، ص ١٣٧ .

٤٤٠ — مغربى ، ملامح الحياة الاجتماعية ، ص ٢٠٥ .

٤٤١ — Angelo Pesce, Jiddah, p. 37.

٤٤٢ — ابن جبير ، الرحلة ، ص ١٥٤ ، ١٥٥ ، مغربى ، المرجع السابق والصفحة ذاتها .

٤٤٣ — سعيد عاشور ، المجتمع المصرى ، ص ١١٣ ، حاشية ١ .

٤٤٤ — زكى محمد حسن ، فنون الإسلام ، القاهرة ، ١٩٤٨ ، ص ٤٧٠ .

٤٤٥ — مغربى ، ملامح الحياة الاجتماعية ، ص ٢٠٨ — ٢٠٩ .

٤٤٦ — سليمان عبد الغنى مالكى ، مرافق الحج والخدمات المدنية فى الاراضى الإسلامية المقدسة منذ السنة الثامنة للهجرة حتى سقوط الخلافة العباسية ، رســالة ماجستير ، كلية الآداب ، جامعة القــاهرة

١٣٩٨ هـ / ١٩٧٨ م ، ص ١٠٠ ، عائشة عبد الله باقاسى ، بلاد الحجاز فى العصر الآيوبى ، ص ٧٥ .

٤٤٧ — زكى محمد حسن ، فنون الإسلام .

٤٤٨ — المرجع السابق نفسه ، ص ٥٥١ — ٥٥٦ .

٤٤٩ — احمد إبراهيم الشريف ، مكة والمدينة فى الجاهلية وعهد الرسول ﷺ ، القاهرة ، ١٩٦٥ ، ص ٣٧٨ .

٤٥٠ — ابن بطوطة ، الرحلة ، ص ١٣٨ .

٤٥١ — محمد على مغربى ، ملامح الحياة الاجتماعية ، ص ٢١٢ .

٤٥٢ — زكى محمد حسن ، فنون الاسلام ، ص ٦٢٢ .

٤٥٣ — محمد على مغربى ، نفس المرجع السابق ، ص ٢١٠ .

٤٥٣ — محمد على مغربى ، نفس المرجع السابق ، ص ٢١٠ .

٤٥٤ — ابن بطوطة ، الرحلة ، ص ١٣٨ — ١٤٠ .

٤٥٥ — محمد سعيد فارس ، وحمزة إبراهيم عامر : «جدة القديمة والحديثة» أبحاث من ندوة المدينة العربية خصائصها وتراثها الحضارى الإسلامى ، واشنطن ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م ، ص ١٨٣ — ١٨٥ .

قائمـــة المصـــادر والمراجـــع

اولا : المصادر العربية :

١ — **ابن الأثير : ((عز الدين أبو الحسن على بن ابى الكرم))** ، الكامل فى التاريخ **١٢ جزء** ، طبع ليدن ١٨٥١ — ١٨٧٦ م .

٢ — **ابن الأخوة : ((محمد بن احمد القرشى))** ، معالم القربة فى أحـــكام الحسبة ، نشره روبن ليوى ، كمبردج ١٩٣٧ م .

٣ — **الإدريسى : ((ابو عبد الله محمد بن محمد بن عبـــد الله بن إدريس الحسنى))** ، كتاب نزهة المشتاق فى اختـــراق الآفاق ، عالم الكتب ١٩٨٩ م .

٤ — **الإصطخرى : ((أبو اسحاق إبراهيم))** ، المسالك والممالك ، تحقيق محمد جابر عبد العال ، دار القلم ، ١٩٦١ م

٥ — **ابن إياس : ((محمد بن احمد بن إياس المصرى))** ، بدائع الزهور فى وقائع الدهور **٥ اجزاء** ، الهيئة المصرية للكتاب ، ١٩٨٢ — ١٩٨٤ م

٦ — **ابن بطوطة : ((محمد بن إبراهيم اللواتى))** ، رحلة ابن بطوطة ، نشر دار صادر ، بيروت ، ١٩٦٤ م

٧ — **التجيبى : ((ابو القاسم بن يوسف))** ، مستفاد الرحـــلة والاغتراب تحقيق عبد الحفيظ منصور ، الدار العربية للكتاب ، تونس ١٩٧٥ م

٨ — **ابن تغرى بردى : ((جمال الدين يوسف أبو المحاسن))** ، النجـــوم الزاهرة فى ملوك مصر والقـــاهرة **١٦ جزء ، دار الكتب المصرية ،** ١٩٧١ م .

٩ — **الجاحظ : ((أبو عثمان عمر بن محمد))** ، التبصر بالتجـــارة ، نشره وعلق عليه السيد حسن حسنى عبد الوهاب ، القاهرة ، ١٩٣٥ م

١٠ — **ابن جبير : ((أبو الحسن محمد بن أحمد))** ، الرحلة ، نشر دار صادر ، بيروت ١٩٦٤ م .

١١ — **الجزيرى : ((عبد القادر بن محمد بن إبراهيم الانصارى))** ، الدرر الفرائد المنتظمة فى اخبار الحاج وطريق مكة المكرمة **٦ اجـــزاء ،** الرياض ١٩٨٣ م .

١٢ — **ابن الحاج : ((أبو عبد الله محمد بن محمد العبودى الفاسى))** ، المدخل إلى الشرع الشريف ، القاهرة ١٣٨٤ هـ .

١٣ — **الحضراوى : ((أحمد بن محمد))** ، الجواهر المعدة فى فضايل جدة ، مخطوط بمكتبة الحرم المكى ، برقم ٢٧ دهلوى .

١٤ — **ابن حجر العسقلانى** ، إنباء الغمر ، بأبناء العمر ، تحقيق د . حسن حبشى ، القاهرة ١٩٦٩ — ١٩٧٢ م .

١٥ — **ابن حوقل : « ابو القاسم عبيد الله »** ، كتاب المسالك والممالك ، ليدن ، ١٨٧٢ م .

١٦ — **ابن خردانبه : « ابو القاسم عبيد الله بن عبد الله بن احمد الخرسانى »** ، المسالك والممالك ، ليدن ، ١٨٨٩ م .

١٧ — **الدمشقى : « ابو الفضل جعفر بن على »** ، الإشارة إلى محاسن التجارة ، القاهرة ١٣١٨ هـ .

١٨ — **السبكى « تاج الدين ابو نصر عبد الوهاب »** ، معيد النعم ومبيد النقم ، لندن ، ١٩٠٨ م .

١٩ — **السخاوى : « محمد بن عبد الرحمن »** ، كتاب التبر المسبوك فى ذيل السلوك ، الناشر مكتبة الكليات الأزهرية د . ت .

٢٠ — **ابن سعيد المغربى : « ابو الحسن على بن موسى »** ، كتاب الجغرافيا ، حققه ووضع مقدمته وعلق عليه إسماعيل العربى ، بيروت ١٩٧٠ م

٢١ — **السمهودى : « نور الدين على بن أحمد »** ، وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى، دار الباز للنشر والتوزيع، مكة المكرمة، ١٣٧٤هـ/١٩٥٥م.

٢٢ — **ابن سيده : « ابو الحسن بن إسماعيل »** ، المخصص ، القاهرة ، المطبعة الأميرية ، ١٣١٦ هـ .

٢٣ — **السيرافى : « ابو زيد »** ، سلسلة التواريخ ، باريس ١٨١١ م .

٢٤ — **السيوطى : « جلال الدين عبد الرحمن »** ، حسن المحاضرة فى تاريخ مصر والقاهرة ، **جزءان ، القاهرة** ١٩٦٧ م .

٢٥ — **السيوطى** : تاريخ الخلفاء ، بدون تاريخ طباعة ومكان طبع .

٢٦ — **الإمام الشافعى** : كتاب الأم ، طبع الهيئة المصرية العامة للكتاب **٥ اجزاء** ١٩٨٥ م .

٢٧ — **ابن شاهين : « غرس الدين خليل »** ، كتاب زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك ، اعتنى بتصحيحه بولس راديس ، طبع باريس ، ١٨٩٤ م .

٢٨ — **ابن الصيرفى : « الخطيب الجوهرى على بن داود » ، نزهة النفوس والأبدان فى تاريخ الزمان ، تحقيق د . حسن حبشى ، القاهرة ١٩٧٠ — ١٩٧٢ م .**

٢٩ — **ابن عبد الظاهر : « محيى الدين ابو الفضل عبد الله السعدى »** ، تشريف الأيام والعصور فى سيرة الملك المنصور ، تحقيق مراد كامل القاهرة ١٩٦١ .

٣٠ — **ابن عبد الظاهر** : الروض الزاهر سيرة الملك الظاهر ، تحقيق . د . عبد العزيز الخويطر ، الرياض ١٣٩٦ هـ / ١٩٧٦ م .

٣١ — **ابن على : « يحيى بن الحسين بن القاسم بن محمد »** ، غاية الأمانى فى أخبار القطر اليمانى ، تحقيق د . سعيد عاشور ، القسم الثانى ، القاهرة ، ١٩٦٨ م .

٣٢ — **العينى : « بدر الدين محمود »** ، عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان ، عصر سلاطين المماليك ، تحقيق د . محمد محمد أمين . القاهرة ١٩٨٨ م .

٣٣ — **الفاسى : « تقى الدين محمد بن أحمد »** ، العقد الثمين فى تاريخ البلد الأمين ، تحقيق فؤاد سيد ٨ **أجزاء** ، مطبعة السنة المحمدية ، القاهرة ١٣٨٤ هـ .

٣٤ — الفاسى : شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام ، دار الكتب العلمية **جزءان** ، بيروت ، بدون تاريخ طبع .

٣٥ — **ابن فرج : « عبد القادر أحمد بن محمد بن فرج »** ، رسالة السلاح والعدة فى تاريخ جدة ، تحقيق محمد عيسى صالحية ، بيروت ، ١٩٨٣ م .

٣٦ — **ابن الفقية : « أبو بكر أحمد بن محمد الهمدانى »** ، كتاب البلدان ، ليدن ، ١٣٠٢ هـ .

٣٧ — **ابن فهد : « النجم عمر »** ، إتحاف الورى بأخبار أم القرى **٤ أجزاء** ، تحقيق عبد الكريم على باز ، الرياض ، ١٩٨٠ م .

٣٨ — **قدامة بن جعفر الكاتب** ، نبذ من كتاب الخراج وصنعة الكتابة ، نشر مع المسالك لابن خرداذبة ، ليدن ، ١٨٨٩ م .

٣٩ — **القزوينى : « زكريا بن محمد بن محمود »** ، آثار البلاد واخبار العباد ، نشر دار صادر ، بيروت ، ١٩٦٩ م .

٤٠ — **القلقشندى : « أبو العباس أحمد »** ، صبح الأعشى فى صناعة الإنشا **١٤ جزء** ، القاهرة ١٣٣١ هـ / ١٩١٣ م .

٤١ — **ابن المجاور : « جمال الدين أبو الفتح يوسف بن يعقوب بن محمد الشيبانى الدمشقى »** ، صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز المسماة ، تاريخ المستبصر ، طبع ليدن ، ١٩٥١ م .

٤٢ — **بامخرمة : ((أبو محمد عبد الله بن أحمد))** ، تاريخ ثغر عدن مع نخب من تواريخ ابن المجاور والجندى والأهول ، طبع بريل فى مدينة ليدن المحروسة ، سنة ١٩٣٦ م .

٤٣ — **المسعودى : ((ابو الحسن على بن الحسين))** ، مروج الذهب ومعادن الجوهر ، القاهرة ، ١٢٨٣ هـ .

٤٤ — **المقدسى ((أبو عبد الله محمد بن أحمد))** ، أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ، ليدن ، ١٩٠٩ م .

٤٥ — **المقريزى : ((تقى الدين احمد بن على))** ، السلوك لمعرفة دول الملوك أجزاء ١ — ٢ ستة أقسام ، تحقيق د. محمد مصطفى زيادة . طبع القاهرة ١٩٤٢ — ١٩٧١ م ، وأجزاء ٣ — ٤ فى ستة اقسام . تحقيق د. سعيد عبد الفتاح عاشور ، القاهرة ، ١٩٧٠ — ١٩٧٢ م

٤٦ — المقريزى : الخطط المقريزية — المسماة بالمواعظ والاعتبار . ٣ أجزاء طبع بولاق ، ١٢٧٠ هـ .

٤٧ — **المقريزى** : الذهب المسبوك فى ذكر من حج من الخلفاء والملوك . تحقيق د . جمال الدين الشيال ، القاهرة ١٩٥٥ م .

٤٨ — المقريزى : شذور العقود فى ذكر النقود ، دراسة وتحقيق د . محمد عبد الستار عثمان ، القاهرة ١٩٩٠ م .

٤٩ — **ابن منظور : ((جمال الدين أبو الفضل محمد))** ، لسان العرب . تحقيق يوسف خياط ، بيروت ، بدون تاريخ طبع .

٥٠ — **ناصر خسرو** : سفرنامة ، نقلها للعربية ، د . يحيى الخشاب ، بيروت ، ١٩٧٠ م .

٥١ — **النهروالى : ((قطب الدين))** ، الأعلام بأعلام بيت الله الحرام . القاهرة ١٣٧٤ هـ .

٥٢ — **ابن الهائم : ((الشيخ أحمد بن محمد))** ، نزهة النفس فى بيان حكم التعامل بالفلوس ، تحقيق د. محمد بن احمد الطريفى ، الرياض . ١٤١٠ هـ .

٥٣ — **الهمدانى : ((أبو محمد الحسن بن احمد بن يعقوب))** ، كتاب صفة جزيرة العرب ، تحقيق محمد بن عبد الله بن بلهيد النجدى ، القاهرة ١٩٥٣ م .

ثانيا : المراجع العربية والمترجمة :

٥٤ — **آدم ميتز** ، الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى ، ترجمة محمد عبد الهادى أبو ريدة ، القاهرة ، ١٩٤٨ م .

٥٥ — **إبراهيم بن حمد المشيقح** ، تاريخ ام القرى ومكانة المرأة العلمية فيها ، الطبعة الأولى ، جدة ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٧ م .

٥٦ — **احمد فاروق** ، ((**دباغة الجلود وتجارتها عند العرب فى مستهل الإسلام**)) ، **العرب ، ص ٧ ، ٨ ، السنة العاشرة محرم / صفر ١٣٩٦ هـ .**

٥٧ — **احمد عمر الزيلعى** ، مكة وعلاقاتها الخارجية « ٣٠١ — ٤٨٧ هـ » ، الناشر عمارة شئون المكتبة ، جامعة الرياض د . ت

٥٨ — **بانيكار . ك . م** ، آسيا والسيطرة الغربية ، ترجمة عبد العزيز جاويد ، دار المعارف بمصر ، د.ت .

٥٩ — **توفيق أسكندر** ، « نظام المقايضة فى تجارة مصر الخارجية فى العصر الوسيط » المجلة التاريخية المصرية ، العدد السادس ، ١٩٥٧ م

٦٠ — **حسنين محمد ربيع** ، النظم المالية فى مصر زمن الأيوبيين ، القاهرة ، ١٩٦٤ م .

٦١ — **حسين على المسرى** : وثائق الجنيزا كمصدر لدراسة تاريخ الجزيرة مصادر تاريخ الجزيرة العربية ، الرياض ، ١٩٧٧ م ، تاريخ العراق فى العصر العباسى ، الكويت ، ١٩٨٢ .

٦٢ — **حمد بن ابراهيم بن عبد الله الحقيل** ، كنز الانساب ومجمع الآداب ، الرياض ، ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨ م .

٦٣ — **رأفت محمد النبراوى** ، « التواريخ غير الهجرية على النقود الإسلامية » ، العصور ، المجلد الخامس ، الجزء الأول ، ١٩٩٠ م .

٦٤ — **سعيد عبد الفتاح عاشور** ، المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك ، القاهرة ، ١٩٦٣ م .

٦٥ — **سعيد عبد الفتاح عاشور** ، العصر المماليكى فى مصر والشام ، دار النهضة العربية ، القاهرة ١٩٧٦ م

٦٦ — **سعود القويم** ، « جدة المتحف الحضارى المفتوح » ، المجلة العربية ، العدد ١١٩ ، ذو الحجة ١٤٠٧هـ / أغسطس ١٩٨٧ م .

٦٧ — **شوقى عبد القوى عثمان** ، تجارة المحيط الهندى فى عصر السيادة الإسلامية ، ١٥٩ عالم الفكر ، الكويت ١٤١٠ هـ / ١٩٩٠ م .

٦٨ ـ عائشة عبدالله باقاسي ، بلاد الحجاز في العصر الأيوبي ، منشورات نادي مكة الثقافي ، ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠ م .

٦٩ ـ **عاتق غيث البلادي** ، معجم معالم الحجاز ، دار مكة للنشر والتوزيع ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩ م .

٧٠ ـ **عبد الرحمن محمد فهمي** : النقود العربية ماضيها وحاضرها ، القاهرة. ١٩٦٤ م

٧١ ـ **عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم** ، « الحجازيون في مصر في القرن العاشر الهجري السادس عشر الميلادي » الدارة ، العدد الأول . السنة الحادية عشرة ، شوال ١٤٠٥ — يونيو ١٩٨٥ م .

٧٢ ـ **عبد القدوس الأنصاري** ، بين التاريخ والآثار ، جدة ، ١٩٧٧ م .

٧٣ ـ **عبد الله محمد السيف** ، الحياة الاقتصادية والاجتماعية في نجد والحجاز في العصر الأموي ، الرياض ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م .

٧٤ ـ **عبد اللطيف إبراهيم** ، « وثيقة بيع دراسة ونشر وتحقيق » مجلة كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، المجلد ١٩ ، جـ ٢ ، ديسمبر . ١٩٥٧ م .

٧٥ ـ **علي بن حسين السليمان** ، النشاط التجاري في شبه الجزيرة العربية العربية أواخر العصور الوسطى ، رسالة دكتوراه غير منشورة بجامعة القاهرة ١٩٥٤ م .

٧٦ ـ **علي بن حسين السليمان** ، العلاقات الحجازية المصرية زمن سلاطين المماليك ، القاهرة ١٣٩٣ هـ .

٧٧ ـ **علي السيد علي** ، القدس في العصر المملوكي ، القاهرة ، ١٩٨٦ م.

٧٨ ـ **علي السيد علي** : « التبادل التجاري بين مصر وبلاد التكرور وانعكاساته على أحوال مصر المملوكين » ، من كتاب ندوة العرب في إفريقيا الجذور التاريخية والواقع المعاصر ، دار الثقافة العربية . ١٩٨٧ م .

٧٩ ـ **قاسم عبده قاسم** ، دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٩ م .

٨٠ ـ **قاسم عبده قاسم** : « علاقات مصر بعالم البحر الأحمر في عصر سلاطين المماليك الجراكسة » من كتاب البحر الأحمر في التاريخ والسياسة الدولية المعاصرة ، القارة ١٩٧٩ م .

٨١ ـ **لطفي عبد الوهاب يحيى** ، العرب في العصور القديمة ، دار المعرفة الجامعية ، الاسكندرية ، ١٩٨٨ م .

٨٢ — **محمد أمين صالح** ، « تجارة البحر الاحمر فى عصر المماليك الجراكسة » من كتاب البحر الاحمر فى التاريخ والسياسة الدولية المعاصرة . القاهرة ، ١٩٧٩ م .

٨٣ — **محمد سعيد فارس** ، وحمزة ابراهيم عامر : « جدة القديمة والحديثة أبحاث من ندوة المدينة العربية ، خصائصها وتراثها الحضارى الاسلامى ، واشنطن ، ١٩٨٣ م .

٨٤ — **محمد صالح ضرار** ، تاريخ سواكن والبحر الاحمر ، الخرطوم . ١٩٨٠م .

٨٥ — **محمد على مغربى** : اعلام الحجاز فى القرن الرابع عشر للهجرة وبعض القرون الماضية ، القاهرة ، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م .

٨٦ — **محمد محمد التهامى** ، «الأصلاحات المملوكية ، فى الأراضى الحجازية». الدارة ، العدد ١ شوال ١٤٠٥ هـ / يونيو ١٩٨٥ م .

٨٧ — **نعيم زكى فهمى** ، طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والمغرب أواخر العصور الوسطى ، الهيئة المصرية العامة ، ١٩٧٣م .

٨٨ — **نقولا زيادة** ، الشرق فى عصر المماليك ، بيروت ، ١٩٦٦م .

٨٩ — **نوال سراج ششة** ، جدة فى مطلع القرن العاشر الهجرى، السادس عشر الميلادى ، مكة المكرمة ، ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦ م .

٩٠ — **هايد** ، تاريخ التجارة فى الشرق الادنى فى العصور الوسطى . مراجعة عز الدين فودة ، الهيئة المصرية العامة ، ١٩٨٥ م .

٩١ — **يوسف شلحة** ، « رحلة تاميزية الى الجزيرة العربية » ، مجلة العرب ، ص ٧ ، ٨ ، السنة ٢٤ محرم / صفر ١٤١٠ هـ ، اغسطس — سبتمبر ١٩٨٩ .

ثانيا : المصادر والمراجع الأجنبية :

٩٢ — Adler : Jewish Travellers, London, 1980.

٩٣ — Angelo Pesce : Jiddah, Portrait of an Arabian City, Falcon Press, London, 1977.

٩٤ — Burkhardt, J.L. : Travels in Arabia, London, 1829.

٩٥ — Bovill : The Golden Trade of the Moors, London, 1958.

٩٦ — Dopp. (Ph.) : L'Egypte du Commencement du Quanzieme Siecle, Le Caire, 1950.

٩٧ — Goitein, S.D. : A Med. Society of the High Middle Ages, Vol. I, New York, 1967.

٩٨ ——————— : Jews and Arabs their Contacts through the Ages, New York, 1974.

٩٩ — Heyd, W. : Hist du Commerce du Levant au Moyen Age, Tome 11, Leipzg, 1925.

١٠٠ — Lodovico di Varthema, the Itinerary of Lodovico di Varthema of Bologna from 1502 to 1508, Trans by John Winter Jones, London, 1928.

١٠١ — Stanely Lane-Poole, A Hist. of Egypt in the Middle Ages, London, 1961.

رقم الايداع بدار الكتب ٩٦٣٥ / ١٩٩١
ترقيم دولى ٢ — ٢٥٢٣ — ٥٥ — ٩٧٧

المطبعـــة التجـــارية الحديثـــة
٢٢ شـارع إدريس راغب — الظاهر
ت : ٩٠٣٣٦٤